جمعية التاريخ الحديث

تاريخ أوربا

في العصور الوسطى

القسم الثاني

تأليف

ه . ا . ل . فشر

نقله إلى العربية

محمد مصطفى زيادة

السيد الباز العريني   ابراهيم أحمد العدوى

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

جمعية التاريخ الحديث

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

القسم الثانى

تأليف

ه . ا . ل . فشر

نقله إلى العربية

محمد مصطفى زيادة

السيد الباز العريني   ابراهيم أحمد العدوى

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مكتبة الأنجلو المصرية

تصدير

شاءت الصدفة الحميدة أن أعدّ معظم القسم الأول من هذا الكتاب بالعراق ، وكذلك شاءت أن أنتهى من إعداد هذا القسم الثانى منه فى الولايات المتحدة الأمريكية . ومنبع حمدى لهذه الصدفة المزدوجة انى تأكدت بها من شيء اسمه المنظور التاريخى عند المؤرخين ، وهو ما تعلمته وخبرته واطمأننت إليه منذ سالف السنين . ذلك أن المؤرخ لا يستطيع أن يتجرّد من حصيلته الثقافية ووضعه الجغرافى ، أو يتقمص بديلا أجنبياً عن أحدهما أو كليهما ، مهما طرأ عليه من طارئ عابر وقتاً ما ، لأن ثقافته وجغرافيته تتكون منهما نافذته ، أى شباكه الذى يستنشق منه المعنويات والماديات من أصناف المعرفة والحياة اليومية . وإذا أطل هذا المؤرخ على العصور الوسطى الأوربية من نافذة مصرية — مثلى — ، فإنما يطلّ عليها من هذه النافذة الروحية المادية المخلوقة له ، أو المخلوق هو لها ، بعبارة أدق . وهذا المؤرخ لا بدّ لذلك مختلف النظرة إلى تلك العصور الوسطى عن مؤرخ أمريكى ، أو روسى ، أو ألمانى ، أوفرنسى ، أو إنجليزى ، مثل مؤلف هذا الكتاب . ذلك لأن كلاً من أولئك المؤرخين له نافذته الخاصة به ،وليس معنى هذا أن اختلاف النوافذ يغيّر الحقائق التاريخية ، أو يعدّل فى ترتيبها التاريخى ، بل معناه أنها تغيّر النظرة إليها تغييراً زعيما بعرض أصناف الحقائق الثابتة عروضاً مختلفة .

ويفهمنى القارئ تمام الفهم وهو يتصوّر معى أن التاريخ كله سجلّ أمين لأخبار الدول ، والأمم والشعوب الإنسانية ، التى تبعثرت فى أجزاء الكرة الأرضية ، وسكنت إليها ، وأنّ المؤرخ لا يستطيع رؤية هذه الأجزاء الجغرافية رؤية متساوية ، من وضع جغرافى واحد ، وأنه كذلك لا يستطيع رؤية تواريخ هذه الأجزاء رؤية تاريخية متساوية ، من وضع ثقافى واحد .

وفى مقدمتى للقسم الأول من هذا الكتاب بعض البرهان التطبيقى على سلامة هذا القول ، إذ أشرت إلى اهتمام المؤلف فى هذا القسم الأول بالنواحى الأوربية الغربية من العصور الوسطى ، مع اجتزائه باللازم المكمل لمنهجه من تاريخ الدول الأوربية الشرقية ، أو الجنوبية الشرقية ، أو الشمالية . وأشرت هنالك كذلك إلى التزام المؤلف هذا المنهج ، احتراماً منه للمنظور التاريخى ، ولقواعد التنسيق والتوزيع والتركيز فى شرح أركان التاريخ الأوربى الغربى فى العصور الوسطى ، لقارئ غربى ، وهو أقصى ما استهدف من نافذته الأوربية الغربية . والفصول التى يحتويها هذا القسم الثانى الذى بين يدى القارئ تطبيق أكثر برهاناً وتوضيحاً لما أشرت إليه، فى مقدمتى للقسم الأول .

وهنا تثور مسألة فى عقل المصرى الشرقى ، الموكل فى بعض عمله — مثلى — بتدريس العصور الوسطى الأوربية . هل يسير فى دراسة هذه العصور الوسطى الأوربية على وتيرة ما يقوم به الأساتذة فى جامعات أوربا — الغربية أو الشرقية ؟ ثم هل يلتزم أولئك الأساتذة الأوربيون — على اختلاف بلادهم وقومياتهم — وتيرة واحدة فى دراسة العصور الوسطى الأوربية ، أم لهم وتائر مختلفة فى فرنسا عنها فى ألمانيا ، وفى إنجلترا عن كلّ من هاتين الاثنتين ، وفى إيطاليا عن كلّ من أولئك الثلاث ، وهكذا . الجواب عندى هو ما استفتحت به هذه السطور ، وهو جواب استغرق شرحه كتاباً طيباً لمؤلف بولندى معروف '(Halecki : Limits and Divisions of European History, 1950) وأفاض فى دعمه مؤرخ من رومانيا قبيل الحرب العالمية الثانية (Bratianu: Nouvelle Histoire de L'Europe au Moyen Age, Bucarest, 1938) وفى مجلة رسالة الإسلام التى تصدرها دار التقريب بالقاهرة جزء من مقالة فى هذا المعنى ، ولكنى لست مستطيعاً أن أرشد إلى هذه المقالة على نحو ما فعلت فى المرجعين السابقين ، لنقص مجموعتى من هذه المجلة .

الخلاصة أن دراسة العصور الوسطى الأوربية — الغربية والشرقية — تستلزم فى مصر نافذة مصرية ، وهى نافذة ذات وضع جغرافى فريد ، وتركيب

حضارى منقطع النظير ، على قول المؤرخ توينبى (Toynbee) . وهاتان الصفتان أوضح أهمية فيما سوف أشير إليه هنا خاصاً بدراسة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، من أهميتهما فى دراسة العصور الوسطى الأوربية فى مصر ، وهو ما نحن بصدده هنا . وتتلخص هاتان الصفتان فى كون مصر جزءاً من مجتمع مزاجه الرسمى العام إسلامى ، منذ ألف ومائتين من السنين ، وفى كون هذا الجزء الاستراتيجى من المجتمع الإسلامى — أى مصر — أقرب جغرافياً وأعظم إغراءاً سياسياً للمجتمع المسيحى الأوربى ، من سائر البلاد الإسلامية الأخرى . ومصر لذلك أكثر تعرّضاً دون غيرها من هذه البلاد الإسلامية لما يرتكض فى أحشاء المجتمع الأوربى المسيحى من حركات توسعية — سياسية أو اقتصادية ، أو دينية . ومصداق ذلك فى العصور الوسطى الأوربية واضح مثلا فى الحروب الصليبية ، وفى تفكير زعمائها الأولين والآخرين فى الاستيلاء على مصر ، وهو واضح كذلك فى تفضيل بعض الصليبيين أن يبقوا أصحاب مدينة دمياط سنة ١٢٢٠ م ، عن أن يتعوّضوا عنها مدينة بيت المقدس نفسها ، كما هو واضح فى تركيز التجارة الأوربية فى الشرق بميناء الإسكندرية ، معظم العصور الوسطى . وعلى هذا فالمؤرخ فى مصر — والشرق عموما — لا ينبغى له حين يدرس العصور الوسطى الأوربية أن يدرسها أوربية المرمى أو المغزى ، أو أن يحكى فى تدريسه قواعد التوزيع والمنظور الأوربى ، بل ينبغى له أن يطلّ على الموضوع كله من نافذته المصرية ، وهو على أية حال لا يستطيع غير ذلك ، كما قدّمت هنا .

أما أهمية هذه النافذة المصرية فى دراسة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، فهى — كما قلت — واضحة كل الوضوح ، ولا سيما إذا ذكرنا أن بعض المؤلفات العربية فى تلك العصور يبدو مسدود النافذة أو معدومها ألبتة ، ما عدا باب خلفى واطئ ضيق لا تدخل منه المعرفة ، ولو دانت قطوفها ، ولا تخرج منه نظرة إلا ساذجة حائرة من وراء حجاب ، لرؤية حوادث الخلافة الإسلامية فى دمشق أو بغداد ، أو لرؤية حوادث العالم الخارجى وهى

تقترب اقتراباً غامضاً غير مفهوم ، أو غير جدير بالفهم . الواقع أن مصر من دون بلاد الشرق الأوسط كله ، وبلاد الكرة الأرضية أجمع ، واسطة جغرافية بين مجموعة القارات القديمة (والحديثة كذلك) ، وهى مطلة على بحرين طويلين غير عريضين ، واصلة بين قارتين شاسعتين ، عائشة وأخواتها حول واديين عظمين فى أفريقيا وآسيا ، وهما واديان فيهما زرع وفير ، وإمكانيات صناعية كثيرة ، حتى فى العصور الوسطى . ومن هذا الوضع الجغرافى وحده يتضح أن مصر لا تستطيع — ولا تستطيع مراحل تاريخها — أن تكون وحدة مقفلة. ثم إن التركيب الحضارى المصرى أشبه شيء بوثيقة تاريخية (Palimpsest) كتبت الأجيال أخبارها على صفحتها جيلا بعد جيل ، وهى فى أخبارها الإسلامية منذ أواسط القرن السابع الميلادى تنطوى فيما تنطوى على بيزنطيات مشهود بها فى بعض أوراق البردى العربية ، وفى النظم والمبانى الفاطمية ، كما تنطوى على أصول قبطية لا يستهان بها ، فضلا عن إيرانيات وسودانيات وتركيات قبل العثمانيين وبعدهم . وهذه وتلك وغيرها شواهد مادية لا سبيل إلى إنكار وجودها فى تكوين النافذة المصرية التى يطلّ منها المؤرخ ويستضيء ، وهو يكتب تاريخ مصر العصور الوسطى . على أن هذا كله ليس من موضوع تصدير لكتاب فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، ولا معنى للاستطراد فيما ليس من صميم هذا الموضوع .

وسوف يجد القارئ فيما يجد بهذا القسم الثانى من هذا الكتاب فصلا يجمع دانتى الشاعر الإيطالى ، وتوما الأكوينى فيلسوف المسيحية فى العصور الوسطى ، وأولهما صاحب الكوميديا الإلهية التى رجّح بعض المستشرقين استيحاء موضوعها من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرّى ، وثانيهما صاحب القول بأن العقل والإيمان متوافقان ، وهو القول الذى استفهم عنه توما الأكوينى فى فلسفة ابن رشد حتى فهمه ، ثم قلدّ فيه الإمام أبى حامد الغزّالى . وهناك فصل عنوانه "حرب المائة عام" ، وهى الحرب التى تدلّ حوادثها على قديم استماتة الإنجليز فى احتلال بلاد غير بلادهم ، لولا نهضة الفتاة الفرنسية چان دارك ، لإجلاء الجيوش

الإنجليزية عن أرض فرنسا . على أن هزيمة الإنجليز فى هذه الحرب لم تعلّمهم شيئاً سوى انتظار الفرص المستقبلة للتملك على ما ليس للأمة الإنجليزية من أراضى القارات الخمس ، منذ القرن السادس عشر الميلادى حتى العصر الحاضر . وفى الفصل الذى عنوانه "الناقدون والمصلحون" إشارات واضحة إلى مطالع الإصلاح الدينى المسيحى أواخر العصور الوسطى ، وهى المطالع التى بشرت بالإصلاح البروتستانى فى غرب أوربا ، كما بشرت بالقومية فى مختلف الأقاليم الأوربية . ويلى ذلك فصل فى إسبانيا العصور الوسطى ، حين بدت الأندلس الإسلامية منبع المعرفة والحضارة الزاهرة ، وهو فصل طافح بالحروب بين القومية الإسبانية المسيحية والمسلمين ، ومن هذه الحروب تفرّعت فكرة الحروب الصليبية العامة . وفى الفصل الذى عنوانه "روسيا العصور الوسطى" ، ألمّ المؤلف بجميع الأصول البشرية التى دخلت فى تكوين أمة الروسيين ، كما شرح أصول سياستهم الدينية المسيحية ، بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين . ثم جعل المؤلف من نشأة الدولة العثمانية واستيلائها على العاصمة البزنطية فصل الخاتمة للعصور الوسطى ، وأعقب هذا الفصل ببضع صفحات دالة على الآفاق الجديدة التى أشرقت منها العصور الحديثة .

ويتخلل فصول هذا القسم الثانى بضع خرائط تاريخية رأيتُ الاستعانة بها ، إضافة إلى ما بالأصل الإنجليزى من الخرائط ، لتوضيح ما لم يرَ المؤلف ضرورة توضيحه لقارئه الأوربى الغربى ، ولتعويض ما احتاجته بعض الفصول من حواش تفسيرية طويلة . ومع هذا لم يستغن المتن عن عدد من الحواشى التى رأيتُ إضافتها كذلك إلى كثير من الصفحات ، من باب التعريف بالمصطلح التاريخى الجديد على القارئ العربى ، أو التنبيه على نصّ من النصوص التاريخية ، كما فعلت بمواد الماجنا كارتا الواردة ترجمتها فى المتن ، أو من باب الإشارة إلى بعض المراجع التى يشتهى القارئ أن يستزيد منها حين الرغبة فى الاستزادة . وإمعاناً فى توفير ما يمكن توفيره للقارئ العربى من مادة توضحية مساعدة ، رأيتُ كذلك أن أضيف إلى قوائم الدول والملوك ملاحق خاصة بالدولة

البيزنطية ، والدولة التركية العثمانية وريثتها فى التاريخ ، وهذه القوائم واردة فى آخر هذا الكتاب ، من غير تمييز بين ما هو منقول من الأصل ، وما هو مضاف إليه ، على غرار ما اتبعتُ فى الخرائط .

وبعد ، فلا جديد فى قول بعض القارئين المنتفعين بهذا الكتاب أنه ترجمة وعمل غير مبتكر ، إلا نسبة إلى مؤلفه ، وأنه ليس للنقل من لغة إلى أخرى سوى شكر أبتر قصير العمر ، أو ثناء فى ابتسامة مختصرة . على أن ما هنالك من شكر أو ثناء ليس مصدره بعض القارئين المنتفعين بهذا الكتاب وأشباههم فحسب ، بل كاتب هذه السطور وشريكاه الأول والثانى فى نقله إلى صيغة عربية . ذلك أن هذه الصيغة التى خرج الكتاب فيها تطلبت قراءة معظم فصول هذا القسم الثانى — وفصول القسم الأول قبله كذلك — فى مراجع العصور الوسطى المطوّلة ، قبل البدء فى عملية الترجمة ، وحسبنا شكراً أو ثناء فوزنا بهذا القدر من المطالعة ، واستطاعتنا أن نسدّ بهذا الكتاب فراغاً فى المكتبة العربية .

وأسجل هنا شكرى إلى صديقى شوقى ضيف لقيامه على قراءة هذا القسم الثانى وتعديل بعض ألفاظه ، وإلى صديقى زكى نجيب محمود لقراءة الصفحات الخاصة بفلسفة توما الأكوينى ، وتعديل بعض عباراتها ، وإلى صديقى حسن عثمان لإمدادى بأسماء بعض المراجع الخاصة بالشاعر الإيطالى دانتى . وأسجل هنا كذلك شكرى لصديقى أحمد عيسى ، لإنجازه نصف فهرس الكتاب . ثم إنى مدين بشكر ختامى لإدارة المطبعة بدار المعارف ، حيث لقيت من المعونة الفنية ما ساعدنى على إخراج هذا الكتاب فى المستوى الجدير بالقارئ العربى الجديد .

محمد مصطفى زيادة

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣ هـ
فبراير سنة ١٩٥٤ م

محتويات القسم الثانى

		صفحة
تصدير		هـ — ى
قائمة الفصول		ك
قائمة الخرائط		ل
الفصل السابع عشر	قادة الفكر فى أوربا الكاثوليكية	٢٦٧ — ٢٧٨
ملحق خاص بالفصل السابع عشر		٢٧٩ — ٢٨٠
الفصل الثامن عشر	نمو الملكية فى فرنسا وإنجلترا	٢٨١ — ٣٠٣
الفصل التاسع عشر	بلاد الغال واسكتلندا وأيرلندا	٣٠٤ — ٣١٢
الفصل العشرون	حرب المائة عام	٣١٣ — ٣٤٢
الفصل الحادى والعشرون	الألمانيون والسويسريون	٣٤٣ — ٣٥٤
الفصل الثانى والعشرون	الناقدون والمصلحون	٣٥٥ — ٣٨٤
الفصل الثالث والعشرون	إسبانيا العصور الوسطى	٣٨٥ — ٣٩٨
الفصل الرابع والعشرون	روسيا العصور الوسطى	٣٩٩ — ٤١٨
الفصل الخامس والعشرون	الحكام المستبدون فى إيطاليا	٤١٩ — ٤٣٨
الفصل السادس والعشرون	الأتراك العثمانيون	٤٣٩ — ٤٥٩
الفصل السابع والعشرون	آفاق جديدة فى العصور الوسطى	٤٦٠ — ٤٦٥
ملاحق		٤٦٧ — ٤٨٥
فهرس		٤٨٧ — ٥٠٤

قائمة الخرائط

صفحة

أوربا سنة ١٣٨٠ م ٣٢١

فرنسا (١٢٧٣ — ١٤٩٤ م) لبيان امتداد . . . .
الملكية الفرنسية أواخر العصور الوسطى ٣٣٥

سويسرا فى القرن الرابع عشر الميلادى ٣٤٩

إسبانيا الإسلامية ٣٩٣

روسيا وشرق أوربا ، سنة ١٢٥٠ م ٤٠٩

إيطاليا فى القرن الخامس عشر الميلادى ٤٢٤

الدول اللاتينية فى الأراضى البيزنطية سنة ١٢١٤ م ٤٤٠

الدولة العثمانية سنة ١٤٨١ م ٤٥٥

الفصل السابع عشر [1]

قادة الفكر فى أوربا الكاثوليكية

القديس أوجسطين — سيجر البرابانتى — ألبرت الكولونى العظيم — توما الأكوينى — دانتى الليجيرى .

* * *

ظلت العقيدة المسيحية فى المجتمع الأوربى الغربى حافظة لما انطبعت به من تفكير القديس أوجسطين، حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى . واستمرت مدينة الله ساطعة النور لا كمدينة الإنسان ، وبدا الخلود حقيقة ماثلة للعيان ، واستعلت الفضيلة على الخطيئة بالدوام . وفى ذلك المجتمع الأوربى الغربى اعتقد رجال الدين دون غيرهم من الناس أنهم يشتركون وملائكة السماء فى الرضا الأبدى، فضلا عما استقام لهم من تأدية المعجزات الناشئة من واجباتهم وصلواتهم الدينية . غير أن عدداً من الحركات الفكرية والروحية الجديدة أخذت فى الظهور أثناء ذلك القرن ، وتولى بعض الناس من مختلف الطبائع والعقول شعور بأن ما جاء فى أقوال القديس أوجسطين من مفارقات ومقارنات ومتباينات ليس دائماً قضايا مسلّمة مطلقة، وأن من الجائز أن يدرك العاصى الآثم من الرحمة ما يبلغ به مرتبة الرضا وهو على قيد الحياة، وأن الروح أهم من الأوضاع الظاهرية ، وأن الإيمان والعقل أهم من شعائر القداس وطقوس الكنيسة . ألم يقل يواقيم الفلورى المتوفى سنة ١٢٠٢ م بأن المرحلة الأخيرة فى هذه الدنيا سوف تبدأ فى الظهور حين تحل الكنيسة الروحية التى تنبع من روح القدس محل الكنيسة البابوية التى ترجع إلى عصور تالية لعصر المسيح ، فلا تعود ثمة حاجة للبابوات والرهبان والطقوس الدينية ، بعد أن يعمر الروح المقدس قلب كل إنسان بالإيمان . وفى وسط الحماسة الدينية التى

---

(١) ترتيب الصفحات والفصول فى هذا القسم الثانى من كتاب تاريخ أوربا فى العصور الوسطى تابع لترتيب القسم الأول منه ، وهوكذلك من مطبوعات دار المعارف ، بالقاهرة . انظر صفحة محتويات القسم الأول حاشية ١ . زيادة .

خلقتها الحركة الفرنسسكانية[1] سرت هذه الأحلام وأشباهها فى إيطاليا ، وبعثت فى الإخوان الفرنسسكانيين بالذات أوسع الآمال وأتق الأمانى .

وبينما الحال الدينية على هذا المنوال ، فى غرب أوربا ، وصل بعض الفلاسفة فى تلك العصور ، من طريق آخر ، إلى نتائج لا تقل خطورة عن النتائج المتقدمة فى خطورتها على قدسية الهيئات الكنسية . ذلك أن أرسطو أضحى بفضل المسلمين معروفاً تمام المعرفة ، مدروساً أوثق الدرس لأول مرة فى أوساط أوربية . فغدت نظرياته مشغلة المشاغل بجامعة باريس — وهى النظريات التى تنادى بأزلية الزمن وأبديته ، وقدم العقل ، ووجود العقل الإلهى عند الإنسان . ومن ثم قامت طائفة من الأرسطاليين أمثال سيجر البرابانتى (١١٥١ م) ومدرسته تدعو إلى مبادئ جريئة مثل القول بأن العقل الإنسانى أزلى ، وهو — أى العقل — مصدر ما شاء الخالق للمخلوق من كمال ، وأن الإنسان الذى يدرك سواء السبيل يكون مصيره الجنة والنعيم المقيم . وأصاب هذان المبدآن بالذات صميم البابوية والسلطان البابوى ، بما فى أولهما من كفاية الإيمان الفردى للدين ، وبما فى ثانيهما من كفاية العقل البشرى لفهم أسرار الكون . غير أن روح المحافظة الدينية لم تلبث أن تغلبت على هذين المبدأين ، حين استطاعت الكنيسة أن تكبح من جماح الروحانية الفرنسسكانية والميتافيزيقية الأرسطالية وسيكلوجيتها ، وأن تربطهما جميعاً إلى عربتها بحبل من الدين مكين . لكن غلبة الكنيسة نهائياً على هذه الأزمة الخطيرة ، وإنكار علماء باريس سنة ١٢٧٧ م أقوال سيجر ، ونهوض اللاهوتيين للبرهان على أن نظريات أرسطو لا تتعارض وقواعد الإيمان — كل ذلك لا ينبغى أن يؤدى إلى الاعتقاد بأن حركة التفتح الفكرى والنهوض العقلى اللذين امتلأ بهما القرن الثالث عشر الميلادى لم يكونا شيئاً مذكوراً . ذلك لأن الحركة اصطبغت بجميع ألوان الخطر ، إذ دلت على أن الفكر الأوربى آخذ فى السير حثيثاً ، وأن أصفياء الضمائر من المتقين لم يقفوا جامدين . ومع أن السلطة البابوية لم تلق وقتذاك من التحدى الفادح مثلما لقيت زمن الانقسام الدينى الكبير أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، فإن كثيراً من بوادر الإصلاح الدينى لم تكن بعيدة عن الأبصار . والواقع أنه لو لم تقع حرب المائة عام — وهى الحرب التى عوّقت الفكر الأوربى عن النهوض ، وأخّرت

---

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٦ — ٢٣٩ . زيادة .

التطور الثقافى بين أرقى الدول بغرب أوربا — لاستطاعت القوى الجانحة نحو الحرية فى التعليم والسياسة أن تتقدم خطوات جديدة فى سبيل زحفها الطويل .

أما الذى حدث فعلا منذ بدت الحركة الفكرية الأرسططالية واضحة فى أفق الحياة الأوربية ، فخلاصته أن ألبرت الكولونى العظيم (١١٩٣ — ١٢٨٠ م) وتلميــذه توما الأكوينى (١٢٢٦ — ١٢٧٤ م) انبريا والحركة فى كفة الميزان ، وألقيا عقليتهما الفحلة فى جانب الكاثوليكية . استغل هذان الدومنيكيان — وأولهما ألمانى من غرب ألمانيا ، وثانيهما إيطالى من جنوب إيطاليا — جميع ما تولد فى المجتمع الأوربى من نهضة باكتشاف مؤلفات أرسطو فى الفيزيقا والميتافيزيقا ، وأخذا يبنيان حول الكنسية الكاثوليكية سياجاً دفاعياً قوياً من الفلسفة . وكان ألبرت شخصية موسوعة من المعارف التى تأخذ الألباب بضخامتها ، وكان توما أمضى ذهناً وأبعد عمقاً وأوضح منهجاً ، فرحبا بما جدّ على المجتمع الأوربى من المعرفة والعلم ، وأعلنا أن الفلسفة الوثنية التى تعتمد أكثر ما تعتمد على التجربة لا الإيمان يصح أن تتفق على الرغم من ذلك فى جــوهرها وأركان العقيدة المسيحية . وعكف الرجلان على دعم أقوالهما كلّ على شاكلته ، هذا بما أوتى من غزارة فى العلم ، وذاك بما اشتهر به من قوة الحجة ، فضلا عما استقام لكليهما من شدة التمسك الدينى وسمو الأخلاق ؛ وما زالا يعملان حتى أصاخ لهما المفكرون من معاصريهما ، ورضخ الفكر فى غرب أوربا لهجومهما المشترك .

وسرّ ذلك كله أنه لم يكن من المنتظر فى ذلك العصر أن يدنو الفيلسوف بفلسفته من أبواب العقائد الدينية أو يتناولها بالنقد العقلى المطلق ، فى غير قيد من الإيمان ، إذ قال توما بأنه لما كان كلّ من العقل والإيمان هبة من هبات الله ، فهما بالضرورة متوافقان ، وربما تجاوزت الحقائق التى نزلت على الأنبياء والرسل حدود العقل ، ولكنها لا تعارضه ولا تناقضه ، لأن الإيمان هو التسليم العقلى الصادر عن الإرادة ، بما يتراءى ممكن الحدوث محمود التصديق . ثم إن جميع ما يتنزل على الأنبياء من الحق ، وهو حق لا يدركه العقل ولا ينقضه ، ليس إلا جزءاً مكتوباً من كلٍّ لم يكتب ، مما استمدته الرسل من الروح القدس فى صورة قواعد وأحكام لرعاية أحوال الكنيسة . وهذه القواعد والأحكام التى لم تسجلها الأقلام هى التى تبرر كثيراً من الطقوس التى لم تنصّ عليها الأناجيل ، مثل عبادة الصور المقدسة . وصفوة القول أن جميع ما كان معتبراً بين الناس من العقائد الأساسية

وقتذاك لم يثر شيئاً من الشكوك الفكرية فى نفس القديس توما، فالإيمان بالتحوّل الكامل فى العشاء الربانى مثلا إيمان بمعجزة يستطيع العقل أن يردها إلى أصولها، وكذلك الإيمان بعذاب النار للكافرين خالدين فيه أبداً، لأن الله أدخل السرور والفرح إلى قلوب الملائكة والقديسين حين جعلهم يتفكرون فى عدالته ويتأملون فيما اجتنبوا من الشرور التى استحق النار بسببها الكافرون. ثم إن الاعتقاد فى العقاب الأبدى بنيران جهنم، وهو الاعتقاد الذى أخذه المسيحيون عن اليهود منذ القرن الأول الميلادى، لم يفقد شيئاً من مكانته الأولى فى القلوب على مرّ الأجيال والقرون.

ولهذا كله قال القديس توما إن الإيمان الصحيح فى الدنيا هو السبيل الوحيد للخلاص، والنعيم المقيم فى الآخرة، وإنه لاخلاص بغير الكنيسة (Extra ecclesiam nulla salus). فلا خلاص لغير المعمدين، ولا للمذنبين والآثمين، إلا بعد الاعتراف والتوبة والغفران على يد قسيس من القساوسة، أى أن شارب الخمر الذى لاتستطيع الكنيسة أن تدركه بغفرانها، أو لايستطيع هو أن يدركها بتوبته، يكون مصيره الخلود فى عذاب النار. غير أن الأسس الدينية التى تراءت لهذا القديس الدومينكانى — وهو الذى لم يأل جهداً فى التوفيق بين الإيمان والعقل، — لم تكن كلها ظلاماً وعذاباً، بل تخللتها ألوان من الجمال الوضاء، فضلا عن القداسة الطاهرة والفضيلة، للدلالة على عدل الخالق ورحمته وجلاله. ومن هذه صور الملائكة التى أشار إليها أرسطو فى معرض التفرقة بين الصورة والمادة، وأمعن توما [١] فى وصفها إمعان المطنب المتحمس، حين جعل منها ميداناً للجدل الفلسفى الذى تطمئن إليه القلوب.

هذا ما كان من موقف الأخوين الدومينيكانيين ألبرت الكولونى العظيم وتلميذه توما الأكوينى. وهناك شخص ثالث يتألّق معهما فى سماء الكاثوليكية فى القرن الثالث عشر الميلادى، وهو شاعر من أبناء مدينة فلورنسا بإيطاليا. وكانت إيطاليا وقتذاك تعانى أوجاع الرعدة السياسية التى اقتلعت جذور الهوهنشتاوفن، وأدت إلى تأسيس البيت الأنجوى الفرنسى فى نابولى وصقلية بفضل البابوية. وفى أثناء تلك الرعدة العنيفة مالت فلورنسا إلى الجانب البابوى — وهى المدينة التى بلغ سكانها وقتذاك ثلاثين ألفاً، واشتهرت بالتقدم الصناعى والديمقراطية، فطردت

(١) انظر ما يلى هنا، ص ٢٨٠. زيادة.

نبلاءها الجبللينين(١) أنصار الإمبراطورية ، وغدت خاضعة لسيطرة الجولفيين ، وهم حزب البابا ، بعد أيام صاخبة من حيرة الحكم بين الفريقين . ثم طرأ على كتلة الجولفيين وحكمهم طارىء منشؤه نزاع عائلى انتقل إليهم من مدينة پستويا (Pistoia) ، فمزّق شملهم ، وجعلهم حزبين متنافرين ، هما الجولفيون البيض والجولفيون السود . وليس لغلبة السود على البيض بمساعدة البابوية والفرنسيين من أهمية سوى أن الشاعر الفلورنسى دانتى آلليجيرى (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) أمسى فى زمرة الضحايا الذين سيقوا إلى المنفى نتيجة تلك الغلبة الحزبية . وكان دانتى وقتذاك فى السادسة والثلاثين من عمره ، وله من الشعر العاطفى باللغة الإيطالية قصائد جعلته فى نظر المعاصرين شاعراً عبقرياً ، وهى القصائد التى أطلق عليها اسم ديوان الأغانى (Canzoniere) ، ومنها قصيدته الحياة الجديدة (Vita nuova) التى خلد فيها هيامه بمحبوبته بياتريس . وفى كثير من العنف والجدّ اللذين اتصف بهما طول حياته ، انغمس دانتى قبل نفيه فى المنازعات السياسية التى اكتظت بها فلورنسا ، وأسهم فى حكومتها بنصيب حين صار عضواً من أعضاء نقابة الثقافة والآداب (Priors of the Arts) ، ورأى فيه جيرانه وزملاؤه رجلا متكبراً كتوماً ، دؤوباً على العمل ، شديد الإخلاص لوطنه ، حتى إذا ماتت محبوبته بياتريس سنة ١٢٩٠ م ، بات هذا الزميل رفيق حزن مستديم .

غير أن المنفى أنقذ دانتى من مخالب السياسة الفلورنسية ، وأطلق عقله للتفكير والتأمل فى غير انقطاع ، فغدا منهوماً فى قراءاته ، عميقاً فى مطالعاته ، وسحرت قصص الفروسية وأشعار البروڤنساليين خياله ، دون أن تملأ شغاف قلبه ، فانتقل عنها وتشبع بفلسفة توما الأكوينى ، وتاريخ هروشيوس (Orosius) ، وفلك بطليموس ، وملاحم ڤرچيل وستاتيوس . ومن ثم أخذ دانتى يكتب فى مسائل الأسلوب واللغة والعروض ، فجاءت كتابته أبدع ما جادت به الأقلام منذ هوراس وكونتليان ، وأقام نفسه مقام الجندى المدافع عن تفوق الإيطالية على البروڤنسالية فى حلبة الأدب ، فضلا عن استحقاقها لتشجيع الذين تنبض فى عروقهم دماء الوطنية . ونظم دانتى هذا المعنى فى مقطوعة من مقطوعات القصيدة

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٩٤ ، حاشية ١ . زيادة .

التى عنوانها اللغة العامة واللغة الفصحى (De Vulgaria Eloquentia) ، حين قال : " إن إيطاليا لا ينقصها أبهة الملكية والبلاط الملكى والحاشية ، برغم أنه لا ملك على رأسها ، لأن لغتها مملكة فى ذاتها " ، وهى مقطوعة ردّدتها أفواه الوطنيين الإيطاليين على مرّ العصور . وبهذا المعنى سبق دانتى بأربعة قرون أو أكثر قول الكاتب الإنجليزى الدكتور چونسون ، إن عظمة البلاد من عظمة مؤلفيها.
أما الكوميديا الإلهية – وهى الملحمة الدينية التى نعتها دانتى بأنها قصة رمزية – بسبب أسلوبها الخاص وما انتهت به من خاتمة سعيدة – فهى فيما يبدو من وحى الأبيات الرائعة فى الكتاب السادس من الإنيادة ، حيث يروى ڤرچيل قصة ظهور ديدو (Dido) لإينياس (Aeneas) وهو يجوس خلال الظلام فى العالم السفلى ، على قول الأساطير اليونانية ذلك أن دانتى كتب فى الكوميديا أنه كذلك سوف يرى حبيبته مرة أخرى ، وأن بياتريس سوف تظهر له فى جنة الفردوس ؛ وتشرح له ما خفى من أسرار الله الغامضة ، وأنه فى سبيل الوصول إليها سوف ينزل إلى قرار جهنم ، ثم يصعد إلى قمة المطهر ، ويرشده فى هاتين المرحلتين من رحلته الخيالية ڤرچيل ، أستاذه فى الشعر ، وصاحب المثل الأعلى عند رجال ذلك العصر فى المعرفة الدنيوية .

يتضح من ذلك أن دانتى لم يكن رأس الرعيل الحافل بالكتاب الخياليين الذين حاولوا وصف الروح ومصيرها بعد الممات ، عن طريق قصة رمزية يصفون فيها رحلة رحلوها فى عالم الخيال ، أو رؤيا رأوها فى عالم الغيب ؛ ومن أولئك الكاتب الإنجليزى بَنْيَن. الواقع أن الكوميديا الإلهية تدين بكثير من محتوياتها إلى رؤيا سيپيو ، فضلا عن الكتاب السادس من الإينيادة ، وفكرة الهبوط إلى العالم السفلى لم تكن من مبتكرات ڤرچيل ، ولم تقتصر على مؤلفى العصور الوثنية القديمة فحسب ، بل وردت فى قصة هراقليس وفى قصة أورفيوس ، وكذلك فى قصة أوديسيوس التى كتبت على غرارها قصة إينياس . ومن العصور المسيحية الأولى توجد قصة راعى هرميس ، وقصة رؤيا بطرس ، وقصة بستيس صوفيا – وهى كلها ترجع إلى القرن الثانى الميلادى ، وتدلّ برغم ما بينها من الاختلافات الواضحة على نفس الأساس الذى قامت عليه الكوميديا الإلهية ، وهو الرغبة الدينية الشديدة فى معرفة أسرار الحياة الآخرة . ثم إن قصص العصور الوسطى – مثل قصة رؤيا ڤيتينى (Visio Wettini) سنة ٨٢٤ م ، وقصة رؤيا ألبريك راهب مونت كاسينو ،

سنة ١١٠٧ م ، وقصة رؤيا راهب إيفيشام سنة ١١٩٦ م — كفيلة بكثرتها وشهرتها لاستبعاد فكرة الابتكار فى أساس الكوميديا الإلهية . والواقع أن الابتكار فى الكوميديا الإلهية ليس فى طابعها الخيالى ، بل فى عبقريتها وجمال لغتها ، وفنانة بحرها الشعرى وعمق فكرتها ، فضلا عن سعة خيالها وروعته . وكفى دانتى فخراً أنه دون سائر المؤلفين الخياليين هو الوحيد الذى تتراءى روح فرجيل واضحة فى أسلوبه ، وهذا التمازج بين الروح الفرجيلية وخيال العصور الوسطى المسيحية ، هو الذى أشاع فى الكوميديا الإلهية فيضاً من الرقة الإنسانية — بله المعرفة — ، وأفرد لها مكانتها الفذة فى تاريخ الأدب[١] .

على أن دانتى لم يفرّق بين الأساطير القديمة والتاريخ فى الكوميديا الإلهية ، شأنه فى ذلك شأن مؤلفى العصور الوسطى ، إذ اعتبر شارون (Charon) وأخيل (Achilles) ، وتيريزياس (Tiresias) ، ونمرود (Nimrod) وأشباههم من الأبطال الخياليين شخصيات حقيقية مثل كافالكانتى (Cavalcanti) وفرجيل والقديس فرنسيس ، كما اعتبر المعجزات التى أوردها ليڤى (Livy) ولوقان (Lucan) فى مؤلفاتهما شواهد قاطعة بأن الإمبراطورية الرومانية صدرت فى جميع أعمالها عن وحى العناية الإلهية . ورأى دانتى أن الشعر القديم ليس تاريخاً يتطلب الفحص والتحليل ، بل سراً يجتليه الإيحاء الروحى والإلهام ؛ واعتقد أن التشبيه القصصى من لزوميات ما يلزم فى الشعر الرصين ، أو كما قال بوكاشيو : " إن النفحات الشعرية العظيمة ليست بدائع لفظية ساذجة خاوية ، على قول الكثيرين من الأغبياء ، بل تخفى تفاعيلها أعذب ثمرات المعرفة فى الفلسفة والتاريخ ، وليس فى استطاعة الإنسان أن يتذوق أفكار الشعراء تمام التذوق بغير التاريخ ، والفلسفة الخلقية والطبيعية " .

غير أن الإمعان فى التشبيه القصصى والسبح فى بحار الخيال يجعلان كثيراً من الكوميديا الإلهية غامضاً ، بعيداً عن الأفهام . ثم إن دانتى لم يكن بطبيعته من رجال الفكاهة ، ومن الدليل على ذلك ما جاء فى الكوميديا من حديث بياتريس إلى دانتى تحت ضوء قمر الفردوس ، ومنه " لو أخذتَ ثلاثاً من المرايا ، وجعلتَ

---

(١) تتطلب هذه الإشارات الكثيرة ، وأشباهها فيما يلى بهذه الصفحة ، تفسيرات طويلة لبعض القصص المسيحى الباكر ، وكله وارد فى تفصيل فى عدة مقالات بالموسوعة التى عنوانها (Encyclopaedia of Ethics and Religion) . زيادة .

اثنتين منها على بعدين متساويين من عينيك ، ووضعتَ الثالثة بين هاتين الاثنتين على مسافة أبعد قليلا ، ثم جعلتَ من خلفك شمعة ، تجد أن قوة الضوء المنبعث من الشمعة واحدة فى جميع الأحوال ، برغم اختلاف المساحة الضوئية المنعكسة من الشمعة على هذه المرايا الثلاث لاختلاف أبعادها " . فهذا الحديث وإن جاء فى الكوميديا شعراً دالا على مهارة دانتى فى النظم الفائق ، لا يستطيع إلا أن يكون نثراً رتيب النغمات ، لأن الشاعر الحديث لا يحلم أن ينظم قطعة علمية باردة فى سلك قصيدة رنانة تفيض بالتصوّف والرمزية والوجدان ، وهو ما دأب عليه دانتى فى الكوميديا ، ولا سيما فى الجزء الخاص بالفردوس .

وإذا وضح هنا أن فى قصيدة الكوميديا الإلهية ما هو نثر منظوم ، وما هو عنف ودنس وقبح وسخرية ، فليس فيها شىء أو بعض شىء من ضعف الوصف أو الأسلوب ، لأن دانتى لم يكن كسلا ولا ثرثاراً . ولن يستطيع ناقد أن يصف دانتى بالغرور واللجاج ، وإن استطاع أن يدلل على ما بالكوميديا من جفاف العبارة وملالها وصعوبتها ، بعض الأحيان . ذلك أن تلك الصفات لم تنجم عن نوبة من الإعياء الفكرى ، أو حالة من حالات الإغفاء والفتور ، أو عن تضاؤل الولع بالموضوع ، بل ترجع كلها إلى ما اتصفت به عقلية دانتى من ميل إلى الوعظ والإرشاد ، مما يتراءى أحياناً فى صعوبة التشبيه القصصى ، وأحياناً فى الشروح الغريبة لما يجرى فى الحياة الكائنة . ويكفى برهاناً على ذلك الغرض أنه ليس فى الكوميديا الإلهية صفحة إلا اشتملت على صفة أو مزية تجذب إليها إعجاب الخبيرين ، ومن هؤلاء الكاتب الإنجليزى رَسْكن الذى وصف دانتى فى كتابه روائع العمارة فى البندقية (Stones of Venice, IX p. 175) ، بأنه ولد فى بلد وفى زمن اصطبغت أحوالهما بأشد ألوان القبح والجمال فى آن واحد ، وسمحت مستوياتهما الوطيئة بظهور ذلك فى عبارات قارحة . ومع أنه يستحيل على ناظم أن ينظم فى العصر الحاضر ما يشبه فقرات معينة من مقطوعة الجحيم (Inferno) بالكوميديا الإلهية ، فإنى أرى الكمال كله فى هذه المقطوعة جميعها من أجل تلك الفقرات ، ومن ثم أقرر إن الفقرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين من مقطوعة " الجحيم " يحتويان على أبدع تصوير للطبيعة الشيطانية التى تنطوى عليها نفوس البشر .

وصفوة القول أن دانتى يعتبر أقرب شعراء العصور الوسطى إلى فرجيل ، من حيث الرقة والدقة فى الملاحظة ، فهو فى وصف قرقعة العاصفة بين أشجار الغابة ،

وانزلاق الضفادع إلى الماء حذّر الثعبان ، وعبور الضّب الصغير عرض الطريق فى سرعة البرق ، ورؤية الفلاح ذباب الليل فى الغسق ، وانكباب الإسكافى العجوز على إبرته وخيطه ، ولمعة أجسام الملاكمين وهى مضمخة بالزيت — متربصة بعضها ببعض أملا فى موضع لكمة على حين غرّة — ، وغوص البطة فى الماء فراراً من الصقر ، وصراخ الأم تأخذ بتلابيب ابنها خوفاً من خطر النار ، وتزاحم المتراهنين حول الظافر فى الرهان — كل هذه صور حية من الحياة . والواقع أن تصوير الضفادع والكراكى ، والسحالى والبط والصقور ، وتصوير الأسماك التى تتلألأ — وهى تسبح فى وعاء زجاجى من الماء النقى الساكن — طلباً للطعام ، وتصوير الفلاح حين ينهض متذمراً من بكور الصقيع الأبيض ، وحين يأخذ عصاته وأغنامه إلى المرعى ، بعد أن تغير الشمس وجه الأرض — كل ذلك وأشباهه من صور الحياة الريفية الهادئة فى إيطاليا ، مما لا يوجد نظير له إلا فى كتابات ڤرچيل ، هو الذى يجعل أجيال الشعراء مدينة أكبر دين لدانتى والكوميديا الإلهية ، لأنه برهن فيها على أن أية ناحية من نواحى الطبيعة مهما قلّ شأنها تستطيع العين البصيرة أن تجعل منها شعرا .

وأشبه دانتى أستاذه هُروشيوس المؤرخ فى القول بأن الإمبراطورية الرومانية هى الأداة التى قيّضها الله على الناس فى هذه الدنيا ، بدليل أن المسيح ولد على عهد الإمبراطور أوجسطس ، وأن الناس نعموا فى هذا العهد كذلك لأول مرة بالسلام العالمى . وكتب دانتى باللغة اللاتينية رسالة عنوانها " فى الملكية " (De Monarchia) ، ليثبت أولا أن الدولة العالمية أمر ضرورى قدّره الله لمصلحة البشر ، وثانياً أن الله عهد إلى الإمبراطورية الرومانية أمر هذه الدولة ، وثالثاً أن الإمبراطور يستمد لقبه وسلطانه من الله مباشرة ، دون أن يخضع لسلطان البابا . ومن المسلّم به أن المقدمات التى تؤيد هذه النتائج فى مؤلفات دانتى تبدو — فى عين الباحث الحديث — بعيدة كل البعد عن واقع الحياة السياسية . غير أنه إذا جرّدنا القضية كلها من قشرتها المدرسية ، وأمعنا النظر فى الأفكار الجوهرية المستقرة فى ذهن دانتى ، ألفينا أن هذه القضية لا تعدو أن تكون تعبيراً عن مثالية ما برح العالم يتمناها ، وسوف يظل متمنياً تحقيقها على مرّ الأجيال . ذلك أن القول بأن أسمى أنواع النشاط الإنسانى هو الفكر ، وأن آفة التقدم الفكرى هى الحرب ، وأن الغاية القصوى فى السياسة هى السلام العالمى ، وأن السلام

العالمى لا يمكن أن يستقرّ إلا إذا أذعن العالم قاطبة لحكومة واحدة ، وأنه لا بد لكل جماعة من الجماعات التى يتألف منها المجتمع الإنسانى من أن تحرز قسطا من الاستقلال ، وأن مصدر الشرور العظمى والمصائب فى الماضى والحاضر هو ما يطمح إليه ولاة الدين من سلطات دنيوية — ، كل هذه النظريات لا تستطيع أن تكون سخفاً أو من سرف القول ، وإن استطاع السياسيون المحدثون أن يجادلوا فيها أشد الجدل . ومع هذا فالدولة العالمية التى دعا إليها دانتى لا تزيد فى وهميتها عن البرلمان القومى فى مؤلفات الشاعر الإنجليزى تنيسون ، أو الجمهورية فى نداءات الزعيم الإيطالى ماتزينى . ثم إن الأمانى المثالية مهما بدت بعيدة التحقيق لا تلبث أن تؤثر فى مصائر البشر أكبر الآثار ، ولم يمض جيل على رسالة دانتى فى الملكية حتى غدت تلك الرسالة سلاحاً فى الجدل السياسى الذى نشب بين لويس ملك باڤاريا والبابا يوحنا الثانى والعشرين ، ونالها شرف الإحراق بالنار على يد مندوب من لدن البابوية .

والواقع أن الحوادث الأوربية فى ذلك العصر جعلت الأحوال التى تطلبتها نظريات دانتى فى الإمبراطورية العالمية تضيع هباء فى ظلمات الإهمال ، إذ اختفى آخر ما تبقى من بصيص الأمل فى توحيد إيطاليا تحت ظلّ الإمبراطورية بوفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ م ، أى خمسة وعشرين عاماً قبل أن يولد دانتى ، واقترنت حياة دانتى بسلسلة من التغييرات السياسية التى عطلت عودة الحكم الإمبراطورى . ذلك أن ذهاب الهوهنشتاوفن ، ومجىء شارل الأنجوى ملكاً فى جنوب إيطاليا ، وانتقال التاج الإمبراطورى مرة إلى أمير نمسوى ومرة إلى أمير من لكسمبرج ، فضلا عن ازدياد المطامع البابوية الإقليمية يوماً بعد يوم ، واضطراد النمو التجارى فى المدن الإيطالية — كل ذلك وغيره من الأسباب أدّى إلى فصم عرى الاتصال بين إيطاليا والإمبراطورية ، وأمعن فى تقسيم إيطاليا ذاتها إلى وحدات سياسية متفرقة .

وثمة ناحية من نواحى الفكر السياسى والفلسفة السياسية فى مؤلفات دانتى جعلته موضع الاختلاف بين الناقدين ، وتلك الناحية أنه كان أرستقراطياً بطبعه ، إمبراطوريا فى عقيدته ، إذ أن مثله الأعلى هو الإمبراطورية الرومانية لا الجمهورية ، وهدفه هو القانون لا الحرية . ثم أنه ليس فى الكوميديا الإلهية وغيرها من مؤلفاته المختلفة

دليل على عطفه نحو طبقة الفقراء، كالعطف الذى يملأ شخصية پيرز پلاومان[1] فى دفاعه الشديد عن أصحاب الأيدى العاملة ، أو كالعبارات الرحيمة التى ظهرت فى مطالع الآداب الفرنسسكانية .

غير أن الباحث يحسن صنعاً أن يذكر — حين ينسب دانتى إلى الأرستقراطيين — أن مسائل التنافس بين الطبقات ، وهى المسائل التى تتكون منها مادة السياسيين المتهالكين على السلطان ، لا تكون إلا عديمة الأهمية إلى أقصى حدود العدم فى عقلية من شاكلة دانتى ، شغلها الأعظم تنظيم العالم على أساس دينى جديد . ومن الدليل على ذلك أن العدل الإلهى الذى يصوره دانتى ليوم الحشر لم يفرق بين الأمير والحقير ، بل شمل الجميع على السواء ، فمنهم من تردى فى نار جهنم ، ومنهم من ظل متسنما جبل المطهر ، ومنهم من ذهب إلى الفردوس وأعلى عليين . ذلك أن المناصب مهما عظمت لم تعصم أحداً من ذلك العدل العظيم ، والجحيم فى تصوير دانتى عامر بعدد من البابوات ، على حين لم ينعم بالجنة سوى باباً واحد ، أى أن أعظم ما خلفته الكوميديا الإلهية من أثر عند قرائها أو المستمعين إليها من الإيطاليين وقتذاك هو أن الدنيا متاع الغرور ، بالقياس إلى ما تحظى به الروح من رضى الله فى الأرض والسماء . وتراءت الكنيسة الكاثوليكية لدانتى ديموقراطية عظيمة أفسدت شهوتها إلى السيطرة الدنيوية قدرتها الهائلة على الخير ، فكما ذهبت عن فلورنسا بساطتها حين كان نسوؤها عاكفات على منازلهن وغزلهن ، وحين كان أزواجهن يروحون إلى أعمالهم فى معاطف من جلود الأغنام ، كذلك انتشر الفساد فى الكنيسة بسبب الجرى وراء الثروة والنفوذ . وفى الفقرة الحادية عشرة من " الفردوس " فى الكوميديا الإلهية حيث يقص القديس توما الأكوينى حياة القديس فرنسيس ، يصف دانتى فى أسلوب رمزى رنان زواج القديس من خلة التقشف (Lady Poverty) ، وهى الخلة التى طلقها زوجها الأول — أى الكنيسة — منذ ألف عام ونيف ، فظلت الزوجة موضع الاحتقار والإهمال دون أن يسأل عنها سائل . وفى مثل هذه العبارات يقرر دانتى حماسته للفقر مثالا من المثل الدينية التى يجب اتباعها ، برغم ما ينطوى عليه الفقر من المشقة والصبر ، لكى تظل الكنيسة طاهرة نقية غير آثمة .

---

(١) بيرز بلاومان (Piers Plowman) شخصية خيالية فى قصة اجتماعية شهيرة من نظم الشاعر الإنجليزى لانجلاند (١٣٣٢ — ١٤٠٠ م) ، وهذا الاسم الخيالى هو عنوان القصة كذلك . زيادة .

ومن ذلك كله وغيره مما تقدم يتضح أن الكوميديا الإلهية أعظم ملحمة وصفية للكاثوليكية فى العصور الوسطى ، وأن دانتى من العظماء الإنسانيين الذين ساروا على نهج المدرسيين الإسكولائيين ، وأنه كان من المتصوفين والسياسيين ، وأنه كان كذلك من الكنسيين الحافظين للدين ، وفى سبيل الإصلاح مخلصين .

بعض المراجع لهذا الفصل

Armstrong, (E.) : Italian Studies. Ed. C.M. Ady. 1934.

Dante : De Monarchia. Ed. Dr. E. Moore; Introduction by W.H.V. Reade. 1916.

Dante : Divina Commedia. Ed. H.F. Tozer. 1902.

Dante : Opera Minore. Ed. P.J. Fraticelli. 1855.

D'Arcy, (M.C.) : Thomas Aquinas. 1930.

Gilson, (E.H.) : La Philosophie du Moyen Age. 1925.

Mandonnet :Siger de Brabant et l'Averroisme latin au 13me. siècle. 1908.

Nannucci, (V.) : Manuale della litteratura del primo secolo della lingua italiana. 1883.

-Ossetti, (D.G.) : Dante and his Circle. 1892.

ملحق[1] خاص بالفصل السابع عشر

يجد الباحث الكاثوليكى من الأسباب ما يجعله مديناً بالشكر لأكثر من فقرة فى هذا الفصل الجرىء بعنوانه ، كما يجد فيه كذلك من الأحكام الظاهرة أو المستورة العبارة ما يخالفه تمام المخالفة . وأول هذه إشارتك إلى آراء سيجر البرابانتى ، وهو من المنسوب إليهم تأييد الآراء التى لاتعترف بالشخصية الإنسانية أو بالتعاليم الخلقية ، على عكس توما الأكوينى الذى جعل كتابه وحدة العقل الفردى (De Unitate Intellectus) دفاعاً عن العقل وحدوده ضد سيجر وآرائه . غير أن عبارتك — فى نظرى — ربما أدت إلى شىء من الخطأ فى تقدير موقف القديس توما الأكوينى من مسألة العقل ، على حين أنى على يقين أنك لن تجد فى أى مؤلف من مؤلفاته دليلا واحداً على توفيقه قسراً بين العقل والدين دون إسناد ، مع التسليم لك فى غير جدل بأنه قال قولا مطلقاً باستحالة التعارض بينهما . ذلك أن فلسفة القديس توما تعتمد على العقل كل الاعتماد ، وأكبر شاهد على ذلك إجماع الباحثين المحدثين على أنه من عظماء المفكرين عند الإطلاق ، وحمدهم توفيقه فى الإيلاف بين معرفة الرومانيين واليونانين والمسيحيين إيلافاً ثابت الأوتاد حتى العصر الحاضر . أما أنت ، فيخيل إلى من عبارتك كأنك تخفى خصب تفكيره حين تكتفى بالتدليل على ذلك التفكير بإيمانه بالتحول التام (Transubstantiation) ، وبابتهاج الملائكة والقديسين بعذاب الكافرين فى الجحيم . غير أن المجال لا يتسع لى أن أشرح أن مسألة التحول ليست قطعة من الشعوذة الخارقة الفجة ، كما يتبادر إلى ذهن طائفة من الناس ، بل مستوى من التفكير الرفيع الدرجات . أما ابتهاج القديسين بعذاب الكافرين فى الجحيم ،

(١) كتب صديق كاثوليكى من أصدقاء المؤلف ، وهو من أعلام الدراسات الخاصة بالقديس توما الأكوينى ، عدة ملحوظات على الفصل السابق هنا ، فجعل المؤلف هذه الملحوظات ملحقاً بنهاية الجزء الخاص بالعصور الوسطى من كتابه . غير أنى رأيت نقل هذا الملحق إلى هنا ، أى بعد الفصل السابع عشر مباشرة ، إكمالا للموضوع مع القارئ . زيادة .

فطالما أثار السخرية بالأكوينى فى كثير من المناسبات ، ولذا يحسن الباحث صنعاً إذا أنعم النظر فى الباب الذى عالج فيه القديس توما ذلك الموضوع فى كتابه ، حيث يسأل نفسه هل كان الملائكة والقديسون يبتهجون حقيقة بعذاب الكافرين ، ثم يدلل فى عبارة واضحة على أنه من الفظيع الذى تشمئز منه العقول أن يبتهج إنسان ما بعذاب غيره من الناس . غير أنه يضيف إلى ذلك أنه مع صحة ما ورد بالكتب المقدسة فى عذاب الكافرين ، ومع أنه لا ينبغى لأحد أن يبتهج بآلام غيره حباً فى الابتهاج ، فإنه من الجائز – بل من الصواب – أن يبتهج الإنسان لأن شريراً من الأشرار يلقى ما يستحق من العقاب جزاء على ما اقترف من ذنوب . ونحن جميعا نفهم هذا الفرق بين الحالين ، وتنثلج صدورنا ونفرح حين تقبض العدالة على لص خاطف أو مجرم قاتل ، لتنزل به العقاب الأوفى . ولهذا إذن أسأل فى شىء من الحيرة لماذا تعرّضت نظرية الأكوينى لكثير من الاستهجان . على أنى أظن أن السبب فى ذلك أن كثيرين من المفكرين يعتقدون فى قرارة أنفسهم أن العصور الوسطى لم تتصف إلا بالقسوة والجحود والوهم الدينى ، وأنها تبعد عنا مراحل فى التفكير والسلوك ، ويتمسكون بما ورد فى نص القديس توما ، بصدد الابتهاج بعذاب الكافرين ، للتدليل على ما يقولون فى غير تفكير أو إمعان . ثم إنك تقول كذلك فى دانتى "إنه لم يفرق بين الأساطير القديمة والتاريخ الصحيح ، شأنه فى ذلك شأن جميع المؤلفين فى العصور الوسطى" ، وغاب عنك ما يتطلبه الحكم على كتابه الذى عنوانه الأسباب والمقدمات (De Causis) من عمق البحث . والواقع أنه إذا اتخذنا القديس توما دليلا على عصره ، فلا شك أن ذلك العصر كان ممتلئاً بنزعة قوية نحو المعرفة والحق ، وأن تلك النزعة القوية مضافاً إليها الرغبة فى التوفيق بين مظاهر الحياة المختلفة – لا الشعور بأن الروح أهم من الأوضاع الشكلية الظاهرة ، وأن الإيمان والعقل أهم من طقوس الكنيسة وأسرارها – هى التى تتحكم فى الحركات والاتجاهات السائدة دائما بين جماعات البشرية .

الفصل الثامن عشر

نمو الملكية فى فرنسا وإنجلترا

اختلاف التطورات الدستورية فى فرنسا وإنجلترا — ازدياد المركزية فى إنجلترا — تقلص السلطة الملكية فى فرنسا — لويس السابع وهنرى الثانى — توحيد فرنسا على عهد فيليب أوجسطس توحيداً ناقصاً — أهمية الطبقة الوسطى من المزارعين فى إنجلترا — البرلمان بإنجلترا ومجلس طبقات الأمة بفرنسا — التطور القانونى فى إنجلترا وفرنسا — لويس التاسع وفيليب الجميل (Le Bel) — الميل نحو الحكم الاستبدادى فى فرنسا — ميل إنجلترا للحكم الدستورى — الماجنا كارتا (العهد الأعظم) — سيمون دى مونتفرت — إدوارد الأول .

* * *

تختلف فرنسا عن إنجلترا فى العصر الحاضر اختلافاً واضحاً ، على الرغم مما استقام لهما معا من العوامل الحضارية التى كان ينبغى أن توحد بين الدولتين . ففرنسا فى العصر الحاضر دولة أغلب سكانها من صغار المزارعين وأنواع الصناع أرباب المهارة الصناعية ، فضلا عن بورچوازية (طبقة عاملة متوسطة وغير متوسطة) كبيرة العدد بالمدن ، وهى بورچوازية مثقفة مدبرة ، لا تهتم إلا لأمورها الخاصة ، ولا تحفل فى كثير أو قليل بما يجرى خارج بلادها الجميلة . أما إنجلترا فدولة أهلها فريق من كبار الملاك والمزارعين بالإجارة ، وفريق من أهل الصناعات والمصانع المكتظة بأعداد هائلة من العمال ، وفريق من رجال الأعمال ذوى المصالح التجارية المتشعبة فى أنحاء العالم ، وأولئك وهؤلاء من الصغير إلى الكبير معروفون جميعاً بحب الرحلة والأسفار والمغامرة : حتى إنه يندر أن توجد أسرة من الأسرات الإنجليزية بغير قريب أو نسيب يقيم فيما وراء البحار ، على قول الإنجليز أنفسهم .

غير أن أوجه الاختلاف بين البلدين — فى القرن الثانى عشر والثالث عشر الميلادى — لم تكن على ذلك النحو من الوضوح . وبيان ذلك أن الفتح النورمانى

جعل من إنجلترا إقليماً من أقاليم الحضارة الفرنسية ، إذ غدا اللسان الفرنسى لغة الطبقة الأرستقراطية والحكومة والمحاكم ، وامتدّ المعمار القوطى إلى إنجلترا من فرنسا ، أى باريس وما حولها وقتذاك ؛ وحكم ملوك إنجلترا النورمانيون حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى جزءاً كبيراً من فرنسا ، فحكموا أولا نورمنديا وهى إقليمهم القديم ، ثم الإمبراطورية الآنچوية التى أقامها الملك هنرى الثانى پلانتاچنت (Plantagenet) . ثم إن النظم الإقطاعية وفنون الفروسية والحروب الصليبية كلها ترجع إلى أصول فرنسية ، وكذلك الحركة الجامعية التى أفادت منها إنجلترا أكبر الفوائد ، إذ المعروف أن أصل هذه كذلك باريس . والحاصل أن جميع القواعد والمبادئ التى ارتكزت إليها الحكومة والقانون والمجتمع والدين فى إنجلترا المطلة على بحر المانش لم تختلف فى شىء من العموميات عن أشباهها فى فرنسا المطلة على الجانب الآخر من ذلك البحر ، بل بلغ من التشابه والتمازج بين الدولتين أن كثيراً من المدن صاغت براءاتها (Charters) على نماذج فرنسية، وأن جميع المصطلحات الخاصة بالنظم البلدية بإنجلترا مثل رئيس البلدية (Mayor) والمجلس البلدى أو القومون (Commune) جاءت كلها من فرنسا . ثم إن المتنقل بين فرنسا وإنجلترا فى عهد الملك حنا لم يكن يحسّ بشىء من الاختلاف فيما يرى بأرجاء البلدين ، إذ يرى فى كل منهما كتدرائيات شاهقة سامقة ، فإذا سأل عن بناة تلك العمائر الفخمة تبين له أن نقابات من البنائين قامت على بنائها بإرشاد أسقف فرنسى من الأساقفة. أو مقدم فرنسى من مقدمى الأديرة ، كما يرى أن الأديرة فى البلدين تخضع لقوانين الديرية الفرنسية ، وأن تلك الأديرة تملك مساحات شاسعة من الأراضى ، وتنفق عن سعة فى إكرام القادمين عليها ضيوفاً من مختلف النواحى . وفى كل من البلدين يلقى هذا المتنقل جموع الرهبان فى طريقهم إلى مهرجان من المهرجانات السنوية ،أو سوق من الأسواق ، أوحفلة من حفلات الفروسية والألعاب ، كما يلقى الجماعة من الجماعات القروية وهى تستمع فى صمت الملهوف إلى موعظة بليغة من أحد الرهبان العابرين ، وربما انتهت به موازنته بين تنقلاته المتشابهة فى كل من البلدين إلى القول بأن إنجلترا أقل مدنية وأوفر ثروة من فرنسا .

ثم إنه لم يوجد بين البلدين شىء من الاختلاف الروحى ، والدليل على ذلك أن بارونات العهد الأعظم لم يتردّدوا فى دعوة ولى العهد بالمملكة الفرنسية — وهو

الذى أصبح فيما بعد لويس الثامن ملك فرنسا – ليعتلى العرش الإنجليزى بدلا من الملك حنا ، وأن سيمون دى مونتفرت – بطل الحريات الإنجليزية وزعيم الثورة الأهلية فى إنجلترا ضد الملك هنرى الثالث – ابن للنبيل الفرنسى الذى تزعم الحملة الصليبية ضد الأليبجنسيين[١] بالجنوب الغربى من فرنسا الحالية . غير أن ذلك كله لم يتعدّ الفرنسيين والإنجليز ؛ إذ كان الألمانى فى نظر الفرنسى فى ذلك العصر شخصاً أجنبياً بغيضاً ، على عكس الإنجليزى الذى عاش فى محيط يشبه محيط الفرنسى فى العموميات . وإذ غدا من المعروف للفرنسى فى ذلك العصر أن الإنجليزى من العامة يتكلم بلسان غير مفهوم له ، ويشرب مشروباً رديئاً – هو البيرة – لقلة الكروم التى تنتج النبيذ ، غدا من المعروف له كذلك أن الإنجليزى من الخاصة يتقلب فى حياة تشبه حياته ، ويتكلم بلسان فرنسى منذ فتح النورمانيون إنجلترا سنة ١٠٦٦ م .

على أن فرنسا لم تكن البلد الوحيد الذى تأثرت به إنجلترا وقتذاك ؛ وذلك لأن معظم سكان إنجلترا العصور الوسطى عاشوا بالجزء الجنوبى الشرقى الذى تقع فيه لندن وإسكس وإيست آنجليا ، وهو إقليم دلت سجلات الروك[٢] النورمانى على أنه موطن قوم من المزارعين الأحرار الذين استطاعوا أن يحتفظوا بكيانهم رغم الاضطرابات الاقتصادية التى أعقبت الفتح النورمانى . ولم يكن ذلك الإقليم أكثر أقاليم إنجلترا ازدحاماً بالسكان فحسب ، بل أعظمها ثروة ؛ ولعل السبب الثانى بالذات هو الذى جعل أولئك القوم بالقياس إلى غيرهم من الإنجليز أحباء للحرية ، ومنهم استمد سيمون دى مونتفرت ، وبعده أوليفر كرمويل ، قوتهما وبأسهما . ثم إن معظم تجارة لندن وإيست آنجليا لم تكن مع فرنسا بل مع الأراضى المنخفضة ، وبلاد الفلاندرز ، وكولونيا ، واسكنديناوة ، ومدن البحر البلطى ، وأهمها جميعاً بلاد الفلاندرز ، حيث بروج وجنت اللتان جعلتا من أصواف المراعى والمروج الإنجليزية أقمشة ذائعة الصيت بمختلف البلاد الأوربية . ومن ذلك يتضح أنه على حين جاءت الاتصالات الأرستقراطية والأدبية إلى إنجلترا من منابع

---

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٢ ، حاشية ١ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٣٣ ، وكذلك راوس : التاريخ الإنجليزى ص ٤١ – ٤٢ . (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ م) . زيادة .

فرنسية لاتينية ، جاءت معظم الاتصالات الاقتصادية من بلاد أهلها والإنجليز أنفسهم من أصول تيوتونية ، مع العلم بأن العلاقات التجارية بين إنجلترا وبوردو وروان بفرنسا لم تكن قليلة الأهمية .

وكيفما كان الأمر فموضع الأهمية فى المقارنة بين إنجلترا وفرنسا العصور الوسطى ، أن الفتح النورمانى الذى أدخل إنجلترا دائرة الحضارة الفرنسية هو — فى الواقع — أحد الأسباب التى جعلت كلا من إنجلترا وفرنسا ينحو نحواً مخالفاً فى تطوراته الدستورية . وتفصيل هذه العبارة الموجبة للالتفات أن وليم الفاتح (١٠٦٦ — ١٠٨٧ م) صاغ إنجلترا دولة واحدة لم تقو الأيام على فصم عراها ، حتى إذا حلّت الفوضى الإقطاعية بأرجائها على عهد ستيفن (١١٣٥ — ١١٥٤ م) لم تلبث أن عادت إلى سجيتها من التماسك على عهد هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩ م) الذى تدين إنجلترا لسلسلة إصلاحاته الإدارية والقضائية بما استقام لها من التوحيد القضائى ، وهو ما لم تنله فرنسا إلا بعد قرون كثيرة . فلما مات هنرى الثانى وعى الإنجليز عنه أربعة دروس عظيمة : إذ تعلموا دفع الضرائب ، وهو درس لم تستطع الملكية الفرنسية تلقينه للشعب الفرنسى ، ولم يفهمه الفرنسيون تمام الفهم حتى العصر الحاضر . وتعلم الإنجليز كذلك أن الإجرام جناية ضد الملك[1] ، وأن محكمة تستمد سلطتها من الملك هى التى تفصل فى قضايا الجنايات ، ما عدا القضايا التى تدخل فيها الحصانة الدينية (Benefit of Clergy) ، حيث تتولى المحكمة الكنسية محاكمة المجرم ، على أن تسلمه إلى السلطة المدنية لتنفيذ العقوبة عند ثبوت الإدانة . أما الدرس الثالث الذى تعلمه الإنجليز وقتذاك ، فهو أن ثمة قانوناً واحداً يسرى على جميع البلاد ، وأن محكمة عليا واحدة — هى محكمة الملك (Curia Regis) — تقوم على تطبيقه ، وقضاة هذه المحكمة هم الذين يتنقلون بين البلاد فى دوائر قضائية ، ويمثلون سلطة الملك فى القضاء بين الناس أثناء تنقلاتهم الرسمية . وأما الدرس الرابع فهو ضرورة التعاون فى شئون الحكم ، بتأدية المقطعين ما عليهم من خدمة عسكرية فى الحروب ، وتضامن المواطنين عامة فى القبض على الفارين من وجه العدالة ، وقيام المحلفين بتقدير الضرائب ، وتجريم المجرمين أو تبرئة البريئين أمام الدوائر الجنائية ، فضلا عن الفصل

---

(١) المقصود بالملك هنا الدولة ، على أن التمييز بين اللفظين بدأ فى غرب أوربا منذ أواخر العصور الوسطى فصاعداً . زيادة .

فى القضايا المدنية فى المحاكم المركزية . وظلت هذه النظم قائمة على مرّ الأجيال ، فلم تتعرض لها الأيدى بسوء ، رغم غيبة الملك رينشارد قلب الأسد (١١٨٩ — ١١٩٩ م) عن المملكة عدة سنوات ، ورغم فساد الحكم على عهد الملك جنا (١١٩٩ — ١٢١٦ م) ، وهو الملك الذى لم يدل على شىء من النبوغ أو سعة الحيلة إلا حين جعل من الأداة الحكومية التى خلفها أسلافه وسيلة للحصول على أسطول يكفل له تحقيق أغراضه ضد البارونات وثورتهم التى تمخض عنها العهد الأعظم . .

وبعكس ذلك تماماً بدت أحوال فرنسا فى السنوات الممتدة من أوائل القرن الثانى عشر الميلادى إلى أوائل القرن التالى له ، فلم يكن باستطاعة الملك لويس السادس (١١٠٠ — ١١٣٧ م) أن يطلق اسم مملكته على مساحة أكثر من الإقليم الواقع بين أواسط نهرى السين واللوار ، على حين ظلت مدينة أميان من أملاك ڤرماندوا ، وكاليه و بولونيا داخلة فى أرض أرتوا ، وليون تابعة للإمبراطورية الألمانية . وبينا أضحى ملوك إنجلترا متمتعين بحكومة لها السلطة على أنحاء البلاد ، بقى ملوك فرنسا وجهاً لوجه إزاء إقطاعات ضخمة ، عليها إقطاعيون جبابرة ، وهى فلاندرز ، ونورماندیا ، وبرجنديا ، وجويين ، وجسقونيا ، وتولوز ، وبرشلونة — وكلها تابع للتاج الفرنسى تبعية مضطربة مهلهلة ، مستقل عنه فى الواقع تمام الاستقلال . ولعل أوضح الأدلة على حقيقة تلك الأحوال السياسية القائمة بفرنسا حينذاك ، أن لويس السادس جعل كل همّة فى تأمين الإقليم الصغير — الذى هو مملكته — من عادية المعتدين ، وأنه اعتبر الإقطاعية عدوه الأول . وهذا الملك الناشط هو كذلك المؤسس الأصلى لفكرة الاستناد فى الحكم إلى موظفين من الطبقة الوسطى ، وهى الطبقة التى برهنت على صلاحيتها لشئون الإدارة والحكم فى فرنسا ، برغم ما طرأ على الدولة الفرنسية من تقلبات سياسية ، خلال مختلف العصور حتّى العصر الحاضر. ومن تلك الطبقة الراهب سوجيه (Suger) كبير وزراء الملك لويس السادس ، وهو مؤرخ مغرور منتفخ الأوداج ، ولكنه دلّ على كثير من الأمانة والمقدرة والإخلاص فى جميع ما اضطلع به من أعمال فى خدمة الملكية الفرنسية فى العصور الوسطى .

غير أن الخطوات التى خطتها الملكية الفرنسية فى ميدان التقدم على عهد لويس السادس تعرّضت للزوال على عهد خلفه لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠ م) ، وهو الملك التقى الطيب المعروف بالدماثة وضعف الإرادة . وتزوج لويس السابع

من إلينور ابنة أحد كبار المقطعين الفرنسيين ، فكان مهرها من أبيها دوقية أقطانية ؛ أى أن تلك الدوقية الكبيرة أضحت بموجب ذلك الزواج الباهر تابعة تبعية فعلية للملكية الفرنسية .

غير أن اختلاف الطباع بين الزوجين أدى إلى التنافر ، فطلق لويس السابع زوجته إلينور سنة ١١٥٣ م بعد خمس عشرة سنة من الحياة الزوجية ، وارتكب بذلك غلطة سياسية فادحة ليس فى تاريخ فرنسا أفدح منها فى العصور الوسطى . ذلك أن إلينور تزوجت بعد طلاقها مباشرة من هنرى پلانتاچنت صاحب آنجو ، وعلى مقتضى القوانين الإقطاعية السائدة فى تلك العصور انتقلت مساحة شاسعة من جنوب غرب فرنسا — وهى مساحة تشمل جويين وأوفرن وأقطانية — من حوزة الزوج الأول إلى يد الزوج الثانى. ثم صار هنرى پلانتاجنت ملكاً على إنجلترا ودوقاً على نورمانديا سنة ١١٧٠ م ، فأمسى لويس السابع قبالة مملكة معادية تمتد من جبال الشفيوت شمالا إلى جبال البرانس جنوباً ، وتفوق مملكته فى القوة المادية . وضرب لويس السابع لتلك الحال مثلا حين قال مخاطباً والتر ماب (Walter Map) فى وصف هنرى الثانى پلانتاچنت : " إن مولاك الملك لا يعوزه شىء البتة ، فعنده الرجال والمال والخيل والحرير والماس ، وطيور الصيد وأنواع الفاكهة ، وكل ذلك فى وفرة وكثرة . أما نحن فى فرنسا فليس لدينا سوى الخبز والنبيذ والمرح " . ولم تزل روح المنافسة تعمل عملها بين إنجلترا وفرنسا حتى أنشبت بينهما حرباً متقطعة المراحل شأن الحروب فى العصور الوسطى ، وهى حرب المائة سنة[1]. لكن لويس السابع تحلى بمزية لم تتوفر لخصمه ، حتى إذا اضطرم النزاع بين الإمبراطور فردريك بارباروسا[2] والبابا إسكندر الثالث ، انضوى لويس إلى جانب البابا ، ورحّب بضيافته فى فرنسا أجمل ترحيب ، وأباح له الرواح والغدوّ فى البلاد ملء حريته كأنه ملك فرنسا ، فكافأه البابا على تخضعه وتقواه بوسام الوردة الذهبية . وبدت هالة لويس السابع لامعة النور بالقياس إلى الظلمة الحالكة — والكراهة الشديدة — التى نشرها قسس أوربا ورهبانها حول شخصية هنرى الثانى پلانتاجنت . ذلك أن الدوائر الكنسية رأت فى هنرى الثانى رمزاً للروح العلمانية الدنيوية فى السياسة ، ونذيراً بأشد الأخطار التى تهدد امتيازات رجال

---

(١) راجع الملحقين رقم ٦ و ٧ ، فى آخر هذا الكتاب . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٩٩ . زيادة .

الدين فى المجتمع . وكيف لا يكون ذلك وهو الملك الذى أحب العبث أحياناً بالكتابة وأحياناً بالمسامرة وسط الصلوات الدينية ، وقرر أنه إذا أدانت محكمة من المحاكم الكنسية متهماً من رجال الدين بالإجرام فيجب تسليمه للسلطات المدنية لتوقيع العقوبة اللازمة ، وقال إن استئناف القضايا إلى روما لا يكون إلا بعد الحصول على موافقته الشخصية . وكل ذلك فضلا عما انغمس فيه هنرى من عنيف النضال أعواماً طويلة ضد توماس بِكت (Thomas Becket) رئيس أساقفة كانتبرى ، واتهامه عند الكثيرين من الناس بأنه هو الذى دبر مقتل بِكت على مقربة من درج المذبح بكتدرائية كانتبرى. غير أن المقارنة بين لويس صاحب التقوى والورع والحظ العاثر . وهنرى الأثيم الذكى الهانئ الأحوال ، تجعل عدل الأقدار فوق إدراك الأفهام ، وتحمل الإنسان على أن يسأل كيف تكون تلك الأشياء فى الإمكان . وربما كانت الرغبة فى الإجابة على ذلك السؤال هى السبب فى نمو القصة التى ذاعت بين الناس ، حين طرد فيليب الثانى ملك فرنسا (١١٨٠ — — ١٢٢٣ م) الإنجليز من نورمنديا — وهذه القصة هى أن توماس بكت ظهر لأحد رجال الدين فى المنام ، وقال له إنه اختار فيليب الثانى لينتقم لمصرعه من هنرى بلانتاچنت .

وكيفما تكون القصة ، فالمعروف أن فيليب هذا الذى سماه التاريخ باسم فيليب أوجسطس امتاز بصفة قلّ أن توجد فى ملك من ملوك العصور الوسطى ، وهى التزام الممكن لا المستحيل فى السياسة ، لأنه فكر فيما حوله من واقع الأحوال لا الخيال ، وقرر ألا يدع مشكلة بالغة ما بلغت أن تصرفه عن تحقيق أعظم ما يهدف إليه ملك فرنسى فى العصور الوسطى من أغراض ، وهو طرد الإنجليز من فرنسا وتوسيع مملكته على حسابهم ، وحساب غيرهم من جيرانه . ولذا لم يكن عجباً أن يحمل شاهد القبر الذى يضم رفات هذا الرجل الذكى المتزن عبارة لاتينية قصيرة (Ampliavat fines regni) ، ومعناها صاحب الفضل فى امتداد أطراف المملكة. ذلك لأن فيليب هو صاحب الفضل ولا ريب فى امتداد المملكة الفرنسية إلى بحر المانش والمحيط الأطلسى ، حين ضم إليه ڤرماندوا بطريقة دبلوماسية ، واستولى على نورمنديا وأنچوومين وتورين بالحرب ، واستطاع أن يختم على ذلك كله بهزيمة جيش من الألمانيين والإنجليز فى وقعة بوڤين الشهيرة سنة ١٢١٤ م ، وهى الهزيمة التى لولاها ما بقيت تلك الفتوح فى يده .

ومن ثم بدأ تكوين فرنسا يسير قدماً — فى غير توقف أو عثرة — حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، حين تحدى إدوارد الثالث ملك إنجلترا إمعان التاج الفرنسى فى التوسع الإقليمى ، ونشبت بين الدولتين سنة ١٣٣٧ م حرب المائة سنة ، وجلا الإنجليز أثناءها عن كثير من البلاد الفرنسية ، ما عدا جسقونيا التى ظلوا فيها ثابتين . على أن فرنسا تعوّضت سابقاً عن بقاء الإنجليز فى ذلك الإقليم الجنوبى بضم إقليم لانجدوك نتيجة حملتها الصليبية ضد الألبيجنسيين سنة ١٢١٣ م ، وأقاليم شامبانيا ولامارش وأنجوليم بعد ذلك بقليل ، ثم مدينة ليون سنة ١٣١٢ م .

غير أن توحيد فرنسا على تلك الصورة بفضل ملوكها آل كابيه يختلف من نواحى كثيرة عن الصورة التى تمّ عليها توحيد إنجلترا حسب مشيئة وليم الفاتح . ذلك أن امتداد المملكة الفرنسية نحو الوحدة لم يؤدّ إلى شىء من النتائج الانقلابية التى أعقبت فتح إنجلترا على يد النورمانيين ، فلم تنتقل ملكية الأراضى إلى غير أصحابها ، ولم تتكون طبقة جديدة من النبلاء الغرباء ، ولم تنزل النوازل بالمزارعين والفلاحين أهل الريف ، بل سارت الأمور على حالها فى جميع الأقاليم الفرنسية — حتى الأقاليم التى تطلب انضواؤها إلى التاج الفرنسى حرباً وقتالا ، مثلما حدث حين طرد فيليب أجسطس الملك حنا من نورماندیا سنة ١٢٠٤ م . والواقع أن جميع المدن والقلاع الفرنسية التى سيطرت عليها القوات الإنجليزية انتقلت إلى ملوك فرنسا دون أن تغير مما بها شيئاً ، أو بعبارة أخرى دون أن يطرأ على روحها طارئ ، بل دون أن يحدث قتال فى أغلب الأحوال . والسرّ فى ذلك أن الفرنسيين على اختلاف أقاليمهم أدركوا أن الملك عنوان النظام والعدالة ، وملاذ الضعفاء والفقراء من بطش المسيئين والأقوياء ، وحامى الدين بأنحاء المملكة من بحر المانش إلى جبال البرانس ، فضلا عن شىء من الإحساس بأنه الملك صاحب التاج والسيادة فى فرنسا . وبرغم ما اتسم به ذلك الإحساس من الضآلة وقلة الوضوح ، فإن محبة الملكية بدت ظاهرة فى فرنسا على عهد الملك لويس السابع ، واستطاع فيليب أجسطس أن يتعهد ذلك النبت الجديد ، بفضل ما استقام له من توفيق فى حركاته الديبلوماسية وأعماله الحربية ، كما استطاع أن يوسع نفوذ التاج الفرنسى فى أراضى أفصاله (Vassals) الإقطاعيين ، اعتماداً على ما له من حقوق إقطاعية مقررة .

وثمة ناحية أخرى من نواحى الاختلاف بين فرنسا وإنجلترا . وهى أن ما حدث بفرنسا عن طريق النمو الإقليمى أعجزها عن أن تبلغ مبلغ إنجلترا من التوحيد فى

العصور الوسطى ، لأن الإقطاعات الفرنسية الكبيرة اختصت بخصائص إقليمية هى فى الواقع جزء من التراث الفرنسى العام ، ولم يكن باستطاعتها أن تخضع الخضوع كله بين عشية وضحاها ، أو ينقلب الحال فيها غير الحال تحت ضغط الاستبداد الشديد . ولذا احتفظت تلك الإقطاعات بالكثير من استقلالها السابق ، وتمتع أصحابها من كبار الإقطاعيين بسلطات إقليمية واسعة رغم تبعيتها الفعلية للتاج ، حتى إذا جعلها ملوك فرنسا ولايات مخصصة لأبنائهم غدت تلك الولايات مرة بعد مرة منابع الخطر على الملكية نفسها . ومما ترتب على سعة السلطات التى تمتع بها كبار الإقطاعيين أن فرنسا ضاقت عن أن تتكون بها طبقة متوسطة من الإقطاعيين الذين يستطيعون الاضطلاع بالمسئوليات العامة فى الأقاليم ، على غرار ما تمّ بإنجلترا فى العصور الوسطى من توزيع معظم أعمال الحكم المحلىّ على الفرسان ، وهم صغار الإقطاعيين الذين قاموا بتقديم المجرمين للمحاكمة أمام الدوائر الجنائية ، ورفعوا سجلات الأقاليم إلى وستمنستر لفحص أعمال المحاكم الإقليمية ، وجلسوا محلفين القضايا المدنية ، وصاروا نواباً عن أقاليمهم حين صار البرلمان ركناً من أركان الحياة السياسية . والخلاصة أن طبقة موازية لطبقة الفرسان الإقليميين فى إنجلترا لم تتكون فى فرنسا ، لتستمدّ منها الإقاليم الفرنسية ما حاجها من المحلفين والقضاة والموظفين المحليين ، كما لم تتكون بها أشباه المحاكم الإقليمية الإنجليزية التى اعتمد عليها ملوك إنجلترا فى تدبير شئون الأقاليم ، بل اعتمدت الملكية الفرنسية فى تدبير شئونها على طبقة من الموظفين المحترفين مثل الصنجيل (Senechal) ، وهو صاحب الوظيفة الإقليمية التى أنشأها فيليب أجسطس للسهر على مصالح التاج بمختلف الأقاليم .

ومن هنا تتضح أسرار التشابه والاختلاف الجوهرى بين فرنسا وإنجلترا فى التطور السياسى ، ففى كل من البلدين بدت الملكية أهم أداة إنشائية فى الدولة ، وفى كل البلدين نمت نظم برلمانية فى القرن الثالث عشر الميلادى من نواة مركزية هى مجلس الملك ، وفى كل من البلدين دانت تلك النظم بوجودها لا إلى معانٍ نظرية ، بل إلى عدد من أسباب مادية ، ومنها شدة حاجة الملوك للمال ، وسهولة تصريف أمور الدولة فى مجلسٍ مركزى جامع ، وضرورة مظاهرة الملكية فى ساعات الحرج . وفى كل من البلدين أصرّ الملوك على مبدأ أن يكون النائب فى المجلس مفوضاً عن إقليمه تمام التفويض . ثم ينتهى التشابه بين إنجلترا وفرنسا

عند هذا الحد ، لأن المجالس الإنجليزية التى انعقدت فى القرن الثالث عشر الميلادى – وهى التى صار اسمها البرلمانات منذ عهد هنرى الثالث (١٢١٦ – ١٢٧٤ م) – جمعت بين فرسان الأقاليم ونواب المدن وممثلى صغار رجال الدين ، إلى جانب البارونات وكبار الكنيسة ، لا فرق بين هؤلاء وأولئك إلا بصيغة الدعوة الموجهة إليهم ، لحضور تلك المجالس .

ثم إن مصدر القوه فى تلك المجالس ، ومنبع مكانتها فى الحكومة الإنجليزية ، هو أن معظم أعضائها أتوا من طبقة إجتماعية متوسطة ، قديمة الخبرة بالشئون العامة فى الأقاليم المختلفة ، بعكس المجالس الفرنسية (States General) التى لم يكن لأعضائها صلة بأعمال الحكم الإقليمى ، فضلا عن قلة الامتزاج بين أولئك الأعضاء لانعدام طبقة الإقليميين المتوسطين الذين أشبهوا النبلاء فى أذواقهم ومقاييسهم الريفية ، وحكوا نواب المدن فى طاقاتهم الاقتصادية . والحاصل أن المجالس الفرنسية عجزت عن أن تقوم بدور إنشائى واضح فى توجيه السياسة القومية فى فرنسا ، بسبب تكوينها من ثلاث طبقات متباينة ، وهى طبقة النبلاء ، وطبقة رجال الدين ، وطبقة أهل المدن . ولذا لم تصبح تلك المجالس عاملا من عوامل الرقابة على السلطات الاستبدادية والحكم المطلق ، بل لم تستطع أن تجتمع إلا نادراً وفى غير ميعاد ، حتى إذا اجتمعت اتخذ أعضاؤها مواقفهم فى المناقشة والاقتراع على قاعدة الطبقات .

ومن الدليل على ذلك كله أن عدد المجالس الفرنسية التى دعيت للاجتماع بين سنتى ١٣٠٠ ، ١٧٨٩ م لا تزيد إلا قليلا عن عدد البرلمانات التى انعقدت بإنجلترا فى عهد ملك واحد هو إدوارد الثالث (١٣٢٧ – ١٣٧٧ م) . ثم إنه لم يوجد فى فرنسا ما يصح أن يسمى القانون العام ، والوحدة القانونية التى نعمت بها إنجلترا بفضل الإصلاحات القضائية فى عهد هنرى الثانى (١١٥٤ – ١١٨٩ م) لم تحدث فى فرنسا إلا زمن نابليون ، مع أن أوائل الإصلاح القضائى فى فرنسا أخذت تبدو فى الأفق منذ صار لبرلمان باريس قسط كبير من القوة والاستمرار فى عهد القديس لويس (١٢٢٦ – ١٢٧٠ م) ، أى بعد سنوات قليلة من تأسيس دور حقوقية (Inns of Count) فى لندن . ولم يكن برلمان باريس هذا مجلساً نيابياً سياسياً كما يبدو من مدلول اللفظ ، بل كان هيئة من رجال القضاء) الذين أضحت مراكزهم فيما بعد قابلة للشراء أو الهبة عن طريق الإرث . وقامت

تلك الهيئة القضائية بدور عظيم فى القانون والسياسة ، واشتملت على كثير من الرءوس المفكرة ، وبقيت كما بقى غيرها من الهيئات الرسمية الحريصة على سلطاتها وإعفاءاتها ، حتى اجتاحتها الثورة الفرنسية . غير أن الدور الذى قامت به تلك الهيئة لم يشبه فى قليل أو كثير ما قام به رجال القانون العام بإنجلترا فى القرن السابع عشر الميلادى من مناصرة البرلمان ضد الملك ، وذلك لأن المحامى الفرنسى بباريس لم يعرف غير القانون الرومانى ، وهو قانون زعيم بتأييد التاج وحقوقه فى أية مناسبة من المناسبات . ثم إن نظام المحاكم العلنية ، وهو النظام التيوتونى الذى قام فى فرنسا زمناً ، وظل قائماً فى إنجلترا حتى العصر الحاضر ، لم يلق تشجيعاً فى الدوائر الفرنسية التى غلبت عليها محاكم التفتيش البابوية ، بل حلّ محله نظام المحاكمة السرية ، وهو ما يبدو أكثر ضماناً لكشف الجرائم وتوقيع العقوبات على المجرمين ، ولكنه لا يضمن للمتهمين شيئاً من الحماية فى مرحلة الاتهام ، وليس من العسير تحويله إلى أدنى ألوان الطغيان . والواقع أنه ليس فى الحوادث التى ساعدت على سعة الاختلاف بين تاريخ إنجلترا وفرنسا حادثة أعظم أهمية من محاكم التفتيش البابوية التى نشأت فى فرنسا ، ولم تستطع أن تصل إلى إنجلترا عبر المانش .

على أن موضوع الاختلاف بين تاريخ إنجلترا وفرنسا يتطلب العودة هنا إلى عهد الملك فيليب أجسطس الذى يعتبر المؤسس الثانى لمدينة باريس ، لأنه هو الذى رخص بقيام جامعتها ، وبنى كاتدرائية نوتردام (Notre Dame) ، وجعل لمدينة باريس شوارع ذوات أفاريز للمشاة، وهيأ لها المستشفيات والسقايات ، وأحاطها بدائرة واسعة من الاستحكامات الحربية ، ولم يبق شك فى أن باريس أضحت عاصمة للحكومة الفرنسية .

لكن ما طراز الحكومة التى ينبغى أن تقوم فى فرنسا بعد وفاة فيليب أجسطس سنة ١٢٢٣ م ، ووفاة ابنه لويس الثامن سنة ١٢٢٦ م ، وقيام قاصر هو لويس التاسع الذى لم يبلغ سنّ الرشد إلا سنة ١٢٣٦ م ؟ كان لويس هذا قديساً متصوفاً ، ولم يشبهه ملك من ملوك عصره فى التشبع بالأفكار الثيوقراطية المشيئية ، أو الجود بالنفس فى سبيل فرنسا والكنيسة ، أو الاهتمام بالمشاكل التى تشم منها رائحة الهرطقة والزيغ عن الدين ، أو الإنصات لصوت العدالة وتناصف الناس ، فضلا عن سمو شجاعته الشخصية ونقائها ، وثقابة آرائه وسدادها فى شئون الحكم ، بسبب خلوه من نزوات عصره . غير أن مبلغ الاحترام الذى تثيره هذه الصفات

نحو شخصية القديس لويس لا ينبغى أن تعمى المؤرخ المنصف عن أخطائه السياسية والحربية ، إذا آثر لويس الرحيل عن فرنسا مرتين وهى فى حال من الحرج السياسى ، للقيام على رأس حملتين صليبيتين ، هلك فى إحداهما جيش فرنسى كبير بين جداول دلتا النيل ، وفنى فى ثانيهما جيش آخر على شواطىء تونس وشمسها اللافحة . وذهبت مع الريح أعمال التقوى والجود بالنفس والحرص على توزيع العدالة بالقطساس تحت شجرة البلوط فى ڤانسن[١] (Vincennes) ولم يغن ذلك كله شيئاً عن مزايا قيامه بنفسه على أداة حكومة نظيمة صالحة فى فرنسا ، ولم يعصم رعيته من صنوف الإرهاق المالى وألوان البؤس . ثم عاد القديس لويس من حملته الصليبية على مصر ليرى بعينيه مدى القسوة التى قمعت بها السلطات الفرنسية فى غيبته ثورة الباستوروه (Pastoreaux) ، وهم قوم من بطن الريف الفرنسى أثار الفقر جنونهم ، وأحرق الحيف قلوبهم ، فصبوا جام كراهيتهم للنظام الاجتماعى المحيط بهم على طوائف القسس الناعمة البال . ومن سخرية التاريخ أن يقوم بناء كنيسة لاسانت شاپل (La Sainte Chapelle) قبيل تلك الفورة ببضع سنين ، وأن تسطع روعتها الفنية المعمارية فى أرض طافحة بشقاء اجتماعى ذميم .

والخلاصة أن المناقب الخلقية التى تحلى بها القديس لويس – وهى مناقب تصلح للفارس النجيد لا السياسى الداهى – تضفى على بيت كابيه البهاء والجلال ، لا القوة والقسوة . ثم شاءت المقادير أن تجمع فى الملك فيليب الجميل (١٢٨٥ – ١٣٠٤ م) كل صفات المضاء والجرأة والصراحة والإلغاز ، مما لم يتوفر لجدّه القديس لويس . فعلى حين عاش لويس ملكاً إقطاعياً بدا فيليب حاكماً قومياً ، إذ أصدر لويس أوامره لمملكته التى تصوّرها إقطاعاً له ، وأذاع فيليب مرسوماته على دولة هى فرنسا من المحيط الأطلسى إلى البحر الأبيض ، ما عدا جيين وجسقونيا التابعتين لإنجلترا . يضاف إلى ذلك أنه على حين تأصلت الروح الكنسية فى نفس لويس ، اصطبغت النظم المدنية التى طبقها فيليب على مملكته بروح علمانية ، بل روح مضادة للكنسية . وإذ جعل القديس لويس نصب عينيه تحقيق هدفين عظيمين ، وهما قداسته الشخصية وسعادة الرعية ، بقدر ما استطاع هو من تطويع وسائله لتحقيق ثانى هذين الهدفين ، جعل فيليب كل همه

---

(١) مقر ملوك فرنسا قبل باريس . زيادة .

تحقيق غرضين اثنين آخرين مهما كلفه الثمن ، وهما القوة والمال .

ومن ذلك يتضح أن ثمة شيئاً من العنف والقوة اقترن بسياسة ذلك الملك القوى الذى شهد عهده خروج بقايا الصليبيين من الشام على يد سلاطين مصر من المماليك سنة ١٢٩١ م ، كما شهد انهيار الآمال والأمانى التى ارتبطت بعظمة أيام البابوية ، وبالحملات الصليبية . ذلك أنه حل محل هذا وذاك استيلاء فردريك دوق سوابيا (الإمبراطور فردريك الثانى) على أحد المجامع الكنسية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وإلقاء فيليب الجميل القبض فى غير تردد سنة ١٣٠٣ م على البابا بونيفاس الثامن ، بتأييد رجال القانون المدنى من الفرنسيين ، لاعتراض البابا على ما للملك فى مملكته من حق فى فرض الضرائب على رجال الدين . والواقع أنه ليس أبلغ دلالة على ما حدث من تغير فى روح ذلك العصر من قصة التدخل البابوى فى مسألة الضرائب التى فرضها فيليب الجميل على رعيته من رجال الكنيسة ، وإعلان البابا بونيفاس الثامن حين اشتدت ثورة الجدال أن للبابوية السيادة على السلطة الزمنية — أى الملكية نفسها — ، ثم قيام فيليب الجميل بالقبض على ذات البابا عنوة دون إثارة شىء من الاحتجاج الدينى فى فرنسا ، وإحراقه القرارات البابوية على رءوس الأشهاد ، واستدعائه مجلس طبقات الأمة لمؤازرته ضد البابا الفضولى المتطفل الذى لا ينبغى أن يكون — على قول فيليب — سوى أسقف روما .

وامتلأ سلوك فيليب الجميل نحو هيئة الفرسان الداوية بمثل ما تقدم من روح علمانية صارمة لا تعرف الرحمة ، مع العلم بأنه لم يكن بينه وبين الفرسان سوى أن الملك فى حاجة مالية شديدة ، والفرسان فى وفرة عظيمة من المال . وهذا هو السبب الذى من أجله ارتكب فيليب من أصناف السرقة والقسوة ما يحكى — بل يفوق — ما اقترن به الإصلاح الدينى (Reformation) من أعمال اللصوصية ، وما اتسمت به المذابح اليهودية فى أوربا من ألوان الهوان . غير أن حاجة الملكية إلى المال لم تكن التهمة الوحيدة ضد تلك الهيئة الشهيرة التى عملت طويلا فى سبيل نصرة المسيحية تحت سماء الشام وجوها الحار ، وغدت بعد خروجها مع الصليبيين من الشرق مصرفاً مالياً (banker) يقترض منه ملك فرنسا أو غيره بالفائدة . وبذا جلبت الداوية على نفسها مقت الحاسدين الذين أوغر صدورهم استقرارها بفرنسا لشئون المال فحسب ، على حين

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٥٧ . زيادة .

بقيت هيئة الإسبتارية بالشرق فى خدمة الدين ، كما هالهم ما اقتنته الداوية من جيش خاص عدته ٢٠٠٠ جندى ، وما أضحت فيه هيئتها من مركز مالى ممتاز ، والملكية الفرنسية على شفا الإفلاس . وفى سنة ١٣٠٥ م قرر فيليب الجميل هدم تلك الهيئة ، فانطلقت الصيحة الملكية ضدها بأنواع التهم ، فقيل إنها خانت قضية المسيحية بالتآمر مع المسلمين ، وإن فرسانها هراطقة ملوثة أشخاصهم بما لا يوصف من الأدناس ، وهم يقيمون شعائر سرية تقشعر منها الأبدان ، ويبصقون على الصليب إمعاناً فى الكفر بالمسيحية . وإذ خلا الجو لتلك الاتهامات أخذ الناس يصبون على الداوية من أخيلتهم سيلا لا مثيل له من الغمز واللمز والتشهير ، على حين حرمهم فيليب الجميل من وسائل الدفاع عن أنفسهم ، بل عذّب فئة من فرسانهم تعذيباً جعلهم يعترفون اعترافات قهرية من شدة الألم ، كما أعدم فئة أخرى حرقاً بالنار ، وما زال حتى أمر بحل هذه الهيئة بموافقة البابوية سنة ١٣١٢ م ، وحوّل مواردها الهائلة من المال والعقار للتاج الفرنسى .

أما الحاجة المالية التى دعت إلى هدم الداوية ، كما دعت إلى غيرها من وسائل السلب الجائر فى عهد فيليب الجميل — وعلى الأخص غش النقود مرة بعد مرة — فهذه دلّت فى مجموعها على أن الملكية الفرنسية تريد أن تأخذ بأسباب الحكم الفعلى وأعبائه ببلادها . والواقع أن دراسة التشريعات المختلفة التى صدرت فى ذلك العهد توضح فى غير لبس جملة الأغراض التى استهدفها فيليب ، وهى ابتزاز الأموال من رجال الدين والإقطاعيين ، وإسناد شئون الحكم إلى موظفين من القانونيين الذين لا ينتمون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء . وبينما تضاعفت أعداد أولئك الموظفين الملكيين ، أخذت هيئات الحكومة المركزية فى شىء من التخصص ، كما حدث فى إنجلترا المعاصرة ، فاختص البرلمان بالقضاء [١] ، وديوان المحاسبة (Cour des Comptes) ، بالأمور المالية ، وغدا مجلس طبقات الأمة أواخر عهد فيليب الجميل أداة تشريعية استثنائية لإشراك الطبقات الثلاثة الكبرى فى الدولة فيما يصدر عن السياسة الملكية من قوانين ذات شأن عام خطير . غير أن حكومة هذا الملك اتسمت بالظلم والشذوذ ومقت الناس ، إذ جمعت معظم الضرائب عن طريق التضمين ، ولم يصل إلى خزانة الدولة عن الأموال المتحصلة من دافعى تلك الضرائب إلا نزر ضئيل ، ولم توجد رقابة نزيهة أو متصلة لمحاسبة الموظفين الملكيين . ومع

(١) انظر ما سبق هنا ص ٢٩٠ . زيادة .

هذا كله ، وعلى الرغم مما أعوز الملكية الفرنسية وغيرها من الملكيات فى العصور الوسطى من مراعاة الصالح العام ، ومراقبة الموظفين ، واستخدام العلوم الاقتصادية ، فإن حكومة فرنسية علمانية أوتوقراطية مركزة فى شخص الملك — بقدر ما سمحت به أحوال تلك العصور — بدت واضحة المعالم فى فرنسا على عهد فيليب الجميل .

وبينما اتجهت الملكية الفرنسية هكذا نحو طريق الحكم المطلق ، اتجهت إنجلترا عكس ذلك الطريق ، لأن النبلاء النورمانيين الذين أسهموا فى فتح تلك الجزيرة الغنية ، وأمعنوا فى نهبها ما استطاعوا إلى النهب سبيلا ، لم يظلوا طبقة أجنبية مترفعة على أهل البلاد إلا مدة قصيرة تصاهروا بعدها مع الأنجلو — سكسونيين . ثم إنهم امتزجوا بشعب عنى لا يرضى بالخضوع طويلا ، وغدوا بعد قرن واحد من الفتح النورمانى يعتبرون أنفسهم إنجليزاً لا نورمانيين ، حتى إذا أخمد هنرى الثانى آخر ثورة إقطاعية ضد الملكية سنة ١١٧١ م ، اضطر أولئك النبلاء اعتبار الحكومة الملكية حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، وأسهموا مع فرسان الأقاليم ونواب المدن بسهم فى الاضطلاع بشئونها . وبهذا التحول فى أحوال النبلاء النورمانيين ، من طبقة أجنبية منعزلة إلى طبقة ارستقراطية وطنية منسجمة مع سائر الطبقات ، زالت العقبة الكبرى فى سبيل تكوين أمة إنجليزية موحدة ، حتى إذا دفعت الحماقة أحد الملوك — وهو حنا (١١٩٩ — ١٢١٦ م) — إلى الاستبداد قامت ضده ثورة شملت رجال الكنيسة والبارونات وأهل المدن . أما العهد الأعظم (Magna Carta) ، الذى انتزعه زعماء تلك الثورة من الملك حنا فى يونيه سنة ١٢١٥ م ، فهو أول القوانين العامة فى الدستور الإنجليزى ، وهو بحق حجر الزاوية فى بناء الحريات الإنجليزية . غير أن ذلك العهد الأعظم على أهميته فى تطوّر المنازعات البرلمانية فى القرن السابع عشر الميلادى لم يكن وثيقة ثورية أو منشوراً فلسفياً ، بل كان تقريراً مصدقاً لما للكنيسة والنبلاء وأهل المدن بجميع المملكة من الحقوق الإقطاعية والامتيازات ، لأن البارونات الذين حرّروا ذلك العهد لم يتغيّوا وضع قانون جديد ، بل جعلوا غايتهم مَنْع الملك من انتهاك الحقوق الإقطاعية القائمة . ولم تكن الحرية عندهم على معناها فى العصر الحاضر ، بل كانت الحرية التى قاموا لحمايتها هى حرية الامتيازات الإقطاعية والكنسية والبلدية ، وكان العهد الأعظم هو السياج الذى بنوه من عرف قانون الإقطاع ضد جموح الملكية .

ثم تراءى لبعض البرلمانيين فى القرن السابع عشر الميلادى أن العهد الأعظم

أساس التمثيل النيابي ونظام المحلفين ، مع العلم بأنه لا يذكر كلمة "البرلمان" ألبتة ، وهى على كل حال كلمة لم تستعمل إلا زمن الملك هنرى الثالث[١] ، وإن كان من المعروف أن العهد الأعظم "نص" فى المادة الثانية عشرة منه على "ألا يجمع الملك إعانات أو بدل خدمات حربية — بالإضافة إلى الأموال الإقطاعية المقررة — إلا بموافقة المجلس العام المكون من كبار رجال الدين والبارونات وكبار الإقطاعيين[٢]". ولم يذكر العهد الأعظم كذلك لفظ "المحلفين" ، وإن كان من المعروف أنه ورد فى المادة التاسعة والثلاثين أن الرجل الحر لا يُقبض عليه، ولا يُسجن، ولا يجرد من ممتلكاته ، ولا يهدر دمه ، ولا ينفى ، ولا ينال بأى ضرب من ضروب الإيذاء ، إلا بناء على حكم صادر من أسويائه ، على مقتضى قوانين البلاد[٣] .

تلك ولا ريب مبادىء قانونية رفيعة ، وهى تدل استنتاجاً على استخدام نظام المحلفين فى القضايا الجنائية فى ذلك العصر ، بعد أن ثبت فساد الإجراءات القديمة فى تحقيق الجنايات ، وهى الامتحان بالنار والاحتكام إلى السيف والمبارزة[٤] ، وبعد أن أصدر مجمع اللاتران (أى المجمع البابوى) فى روما سنة ١٢١٥ م قراراً بتحريم هذه الإجراءات . وجدير بالإشارة هنا أن نظام المحلفين فى القضايا الجنائية يرجع أصله فيما يبدو إلى هيئة قديمة من العدول الذين يأخذون الأيمان على أنفسهم بألا يتهموا أحداً ظلماً وعدواناً، وكانوا بمثابة القضاة بمحاكم الملوك الأنجلوسكسونيين.

الخلاصة أن العهد الأعظم وثيقة إقطاعية تحصى مخالفات الموظفين الملكيين ، وتسجل ما يجب أن يكون عليه الحال حسب قانون الإقطاع . وليس لهذه الوثيقة فى العصر الحاضر سوى مالها من أهمية تاريخية ، فهى أول احتجاج قومى فى التاريخ الإنجليزى ضد حكومة فاسدة . أما مدى هذا الاحتجاج وتفصيله وطريقة تحريره،

---

(١) انظر ما يلى هنا ، ص ٢٩٨ . زيادة .

(٢) النص اللاتينى الأصلى لهذه المادة الثانية عشرة من العهد الأعظم هو :

Nullum scutagium et auxilium ponatur in regno nostro, nisi per commune consilium regni nostri.

(٣) النص اللاتينى الأصلى لهذه المادة التاسعة والثلاثين هو :

Nullus liber homo capiatur vel imprisonetur, aut disseisiatur, aut ultagetur, aut exuletur, aut aliquo modo destruatur .... nisi per legale judicium parium suorum vel per legem terre.

(٤) انظر بعض تفصيل ذلك فى كتاب التاريخ الإنجليزى تأليف "راوس ، ص ٤٢ — ٤٣ . (مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٤٦ م) . زيادة .

فلا وزن له بالقياس إلى ما سبق ذلك من تفاهم وتعاون بين ستيفن لانجتن رئيس أساقفة كانتبرى، وقادة الرأى السياسى من البارونات ، وعمدة لندن ، فى القيام بعمل مشترك لحساب الملك وإجباره على احترام القوانين ، والسهر على مصالح الرعية .ودل البارونات وشركاؤهم على عين الجد حين أعلنوا أن أية مخالفة لمواد العهد الأعظم سوف تؤدى بهم إلى معارضة الملك ، ولو أدت هذه المعارضة إلى حرب أهلية ، وبرهنوا على مبلغ ذلك الجد بالنص فى المادة الحادية والستين من العهد الاعظم على تعيين خمسة وعشرين منهم لمراقبة تنفيذ الشروط التى تعهد الملك بمراعاتها ، وإلزامه بتلك الشروط ولو انتهى الأمر إلى استخدام القوة ضده . ومن هذه المادة الطويلة التى اختتم بها هذا العهد الأعظم ما نصه على لسان الملك : "وإذا لم نقم بتصحيح ما عساه يقع من مخالفة ، أو إذا لم يقم قاضى القضاة بذلك فى حال غيابنا خارج المملكة ، وذلك فى مدة أربعين يوماً من تاريخ إبلاغ ما وقع من مخالفة إلينا ، أو إلى قاضى القضاة فى حالة غيابنا خارج المملكة . . . فمن حق البارونات الخمسة والعشرين ، وجميع الناس بالمملكة كذلك ، أن يحجزوا وأن يضيقوا علينا بكل الوسائل الممكنة ، وذلك بمصادرة جميع قصورنا وأراضينا وسائر ممتلكاتنا ، حتى يتم تصحيح ما وقع من مخالفة تصحيحاً يرضى عنه البارونات ، ولا يدخل فى ذلك إلحاق الأذى بشخصنا ، أو بشخص الملكة أو أولادنا . . .(١)"

على أن موضع الأهمية هنا أن إطاعة الدستور على الصورة التى تمخض عنها العهد الأعظم ظلت ماثلة فى العقل الإنجليزى جيلا بعد جيل ، وغدا العهد نفسه شعاراً تناوله الإنجليز بالتنقيح والتعديل ثلاث مرات ، فى السنوات العشر الأولى من عهد هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢ م) ، وجعل البارونات من المواد الثلاث الواردة فيه بصدد الغابات وثيقة مستقلة، لتخفيف ما نجم عن قوانين الغابات من مظالم ، وهى القوانين التى أرهقت سكان الريف بإنجلترا أشد الإرهاق ، بالقياس إلى غيرها من القوانين التى استحدثها الفتح النورمانى . وفى تلك السنوات

(١) النص اللاتينى الأصلى للجزء المترجم هنا من هذه المادة الجريئة هو :

Et si nos excessum non emendaverimus, vel, si fuerimus extra regnum justiciarius noster non emendaverit, infra tempus quadraginta dierum computandum a tempore quo monstratum fuerit nobis vel justiciaris nostro si extram regnum fuerimus, predicti ... viginti quinque barones cum communa tocius terre distringent et gravabant nos modis omnibus quibus poterunt, scilicet per capcionem castrorum, terrarum, possessionum, et aliis modus quibus poterunt, salva persona nostra et regine nostre et liberorum nostrorum..."

العشر الأولى من عهد هنرى الثالث، وهى سنوات الوصاية عليه قبل بلوغه سن الرشد، توخى أوصياؤه وليم مارشال وهيوبرت دى برِ (Hubert de Burgh) حكم البلاد بروح العهد الأعظم، على عكس هنرى الذى لم يكد يتقلد أزمة الحكم حتى دل على غفلة غريبة، وجهل لا يصدق بتطور العقلية الإنجليزية. ذلك أن هنرى الثالث الذى اشتهر بالورع والتقوى والرقة وسلامة الذوق، وهو صاحب الفضل فى بناء دير وستمنستر، كان فى ميدان السياسة العامة أعمى عنيداً، ناقضاً للوعود، شأنه فى ذلك شأن خلفه شارل الأول فى القرن السابع عشر الميلادى. وكره الناس فى هنرى الثالث دأبه على حشد البلاط الملكى بالأجانب من أبناء ساڤوا بإيطاليا، وپواتو بفرنسا، وإغداقه الوظائف ذات الجاه والثروة عليهم فى غير حساب، كما كرهوا خنوعه للبابا، ولم يروا فيما طمع إليه من تتويج ابنه الصغير إدمند ملكاً على صقلية منبعاً لفائدة كبيرة تمس الإنجليز، بل رأوا فيه منبعاً لمطالب مالية تبهظ جيوبهم. ثم تحول الكره إلى موجة من السخط، بسبب ما عكفت عليه الملكية والبابوية من استنزاف أموال رجال الدين، وتطور الأمر إلى مطالبة الإقطاعيين ورجال الدين معا بالإنصاف، قبل أن يقوموا بما عليهم من واجبات المساعدة للملكية، حتى إذا اجتمع البرلمان فى أكسفورد سنة ١٢٥٨ م أجبرت المعارضة هنرى الثالث على قبول حكومة تكون دفتها فى أيدى حزب البارونات، ونصت على قبوله ذلك النوع من الحكم فيما يسمى شروط أكسفورد (Provisions of Oxford)، فى التاريخ الدستورى الإنجليزى، بعد أن حصلت منه على قسم باحترام تلك الشروط.

ولو رعى هنرى الثالث نص شروط أكسفورد وروحها لما وقعت حرب البارونات على عهده، غير أنه لم يقصد احترامها ألبتة، بل اعتمد على البابا فى إحلاله من قسم أقسمه مكرهاً من أجل المصالح البابوية، فضلا عن مصالحه. ولذا لم يعتم هنرى حتى وجد نفسه قبالة معارضة تؤيدها طوائف متعددة، وتتزعمها شخصية بارعة. وقال معاصر من المعاصرين فى حولياته فى وصف تلك الحال إن رجال إنجلترا – يعنى بذلك طبقة المتوسطين من أهل الأقاليم – أضحوا ساخطين على البارونات وأساليبهم الفاترة، كما أضحوا على أهبة – فيما بعد – لإيقاف تذبذب الملك بين الوفاء والنكث بالوعود. وانضم كثير من رجال الدين، وطلاب جامعة أكسفورد، وأهل المدن الحرة[1]، إلى الحركة التى قامت بها تلك

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب، ص ٢٢٥. زيادة.

الطبقة لحماية البلاد من الحكم الاستبدادى مهما كان مصدره ، فحمل الفرنسسكانيون هذا اللواء إلى المدن والقرى . ثم تطوّر النزاع بين الملك والمعارضة إلى حرب أهلية ، وانبرى سيمون دى مونتفرت إيرل ليستر — وهو الأجنبي الفرنسى — لزعامة الحركة ، فهزم جيش الملك عند موضع شمالى بلدة لويس سنة ١٢٦٤ م ، وأسر الملك وولى عهده الأمير إدوارد . على أن هذا الانتصار الرائع لم يؤدّ إلى خلع الملك ، بل اقتصر على إلزامه أمام الأمة — مجتمعة فى البرلمان — بحكم البلاد وفقاً لما ينصح به مجلس من البارونات ، مما يدلّ على أن تلك الحرب الأهلية فى إنجلترا اتسمت بطابع الاعتدال . (١)

والواقع ليس فى التاريخ الإنجليزى حادثة استغلها رجالها — لإثارة الإعجاب العام — استغلال سيمون دى مونتفرت انتصاره على الملك هنرى الثالث وولى عهده الأمير إدوارد فى ميدان القتال ، مع العلم بأن البرلمان الذى عقده سيمون فى وستمنستر فى شهر يناير ، سنة ١٢٦٥ م ، غدا منقطع النظير بين البرلمانات الإنجليزية ، حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وهو لا ريب من الناحية الدستورية بداية عصر جديد . ذلك أن برلماناً سابقاً لم يجتمع لمثل الغرض الخطير الذى اجتمع له برلمان سيمون ، بل لم يستطع برلمان سابق أن يشبهه فى سعة النيابة عن الأمة الإنجليزية ، لأن سيمون استدعى لحضوره نائبين من كل إقليم وكل مدينة ، وذلك بالإضافة إلى الذين استدعاهم من رجال الدين والبارونات ؛ والراجح أن تمثيل المدن كان من مستحدثات سيمون . وشهد الأمير إدوارد ذلك البرلمان الشامل ، وأقسم مكرهاً كما أقسم أبوه أمام حزب الدستوريين أن يحترم الصلح الذى أعقب الهزيمة الملكية ، وارتسمت فى عقله الواعى صور ما تنطوى عليه الجماعات البرلمانية من معنى وقوة ، مما كان له أكبر الأثر فى التطور البرلمانى بإنجلترا أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . ذلك أنه بعد سقوط سيمون دى مونتفرت ومقتله فى معركة إيفشام (Evesham) ، سنة ١٢٦٦ م ، على يد الأمير إدوارد ، بدت الأعمال التى قام بها ذلك الزعيم لتأسيس الحكم البرلمانى كأنما ذهبت مع الريح ، فتلقفها إدوارد وأعادها سيرتها الأولى ، حين اعتلى عرش إنجلترا سنة ١٢٧٢ م . ثم تقدم

(١) تشير هذه العبارة إلى أول أزمة سياسية تطلب علاجها تطبيق المادة الأخيرة من العهد الأعظم . انظر ما سبق هنا ، ص ٢٩٦ . زيادة .

الملك إدوارد بالحكم البرلمانى خطوات واسعة ، فى كثير من الفطنة والروية والاطمئنان ، اعترافاً منه بأفضال سيمون الذى ظلت ذكراه فى عقول الإنجليز مثالا للبطولة والاستشهاد الخالص فى سبيل الحرية . والملك إدوارد الأول هذا (١٢٧٢ – ١٣٠٧ م) عند الإنجليز شبيه بالإمبراطور جستنيان فى الإمبراطورية البيزنطية ، إذ امتلأ عهده بنشاط تشريعى لم تشهد إنجلترا مثله فى تاريخها إلا مرتين ، إحداهما فى عهد هنرى الثامن ، والأخرى فى عصر كرمويل والكومنولث ، قبل صدور قانون الإصلاح النيابى المشهور سنة ١٨٣٢ م ، وهو القانون الذى فتح أبواب التشريعات النيابية على وسعها فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وأهم تشريعات هذا الملك الفطين الشغول قانون الشهر الإقطاعى (De Donis Conditionalibus) ، الذى يعتبر أساس القواعد المتبعة فى تنظيم انتقال الأراضى فى القانون الإنجليزى ، ثم قانون المواريث الحشرية (Act of Mortmain) الذى حرّم الكنيسة من كثير من أراضيها ، وقانون الإقطاع (Quia Emptores) الذى منع تثنية الإقطاع أى تجزئته إلى إقطاعات صغيرة ؛ وبذا قلل إدوارد من خطر الإقطاعات الكبرى . على أن أعظم ما جعل إدوارد جديراً باسمه العظيم أن البرلمان بلغ على عهده مرحلة النضج والتمام ، وغدا أداة ثابتة لتنظيم شئون الدولة . أما سبب هذا التغير المفاجئ فى سبيل الحكم ، فليس مرجعه انقلاباً إلى نظرية سياسية جديدة ، أو تطوراً فى التفكير السياسى ، أو ثورة فى الرأى العام ، بقدر ما لهذا التعبير الحديث من معنى فى العصور الوسطى ، بل مرجعه إحساس عملى فى نفس إدوارد الأول بفائدة السير على نمط قومى فى معالجة المسائل القومية ، فى جمع يشمل نواب الأمة . ولعل السرّ فى ذلك كله أن اتساع التجارة الإنجليزية ، والتبادل التجارى مع البلاد المجاورة ، وامتداد السياسة العامة إلى شئون مختلف الطبقات ، وازدياد المطالبة بتوفير وسائل العدل والأمن والإدارة بين الناس ، صيّر موارد الدخل الإقطاعى غير كافية ألبتة لأبواب الصرف التى أضحى سدّها لزاماً على الحكومة . والواقع أن الإيراد الذى جمعته الحكومة من الإعانة وأشباهها من الضرائب الإقطاعية ، وأهمها البدل والتقادم والحلوان (auxilium, scutagium, relevium) ، لم يعد كافياً فى عصر جعل إيراد التاجر الإنجليزى من تجارة النبيذ أو الصوف يزيد عن جميع ما يدخل خزانة البارون أو سيده الإيرل من الإيجارات الإقطاعية. ومعنى ذلك أن

حاجة الملك إدوارد الأول إلى إيراد قومى أرشدته إلى أهمية طوائف التجار ، كما أرشدته إلى ضرورة الحد من ضخامة المساحات الزراعية التى فى حوزة الكنيسة ، وهذه الحاجة هى التى ألجأته إلى دعوة البرلمانات على صورة قومية .

غير أن النظم التى سارت عليها هذه البرلمانات ظلت مائعة لا تستقر على حال ثابتة ، لأن كلمة برلمان مثلا — ومعناها الكلام والمناقشة وتبادل الآراء — انطلقت فى الأصل على أى اجتماع للمجلس الملكى الكبير ، سواء كان الاجتماع لشئون قضائية ، أو تنفيذية ، أو تشريعية ، أو مالية . ثم اقتصرت هذه التسمية على المجلس فى وظيفته التشريعية وهيئته المزيدة بنواب الأقاليم والمدن والبلاد ، وأول هذه المجالس ما يعرف باسم البرلمان النموذجى الذى انعقد سنة ١٢٩٥ م ، وحضره كبار رجال الدين والإيرلات والبارونات والقضاة ، بدعوة خاصة لكل واحد منهم باسمه ، كما حضره عن كل إقليم اثنان ، وعن كل مدينة وكل بلد (borough) اثنان ، بناء على دعوة عامة يقوم بتبليغها نواب الملك فى تلك الجهات ، وأولئك فضلا عن عدد من الممثلين لصغار رجال الدين الذين جرى العرف بدعوتهم ضمن الدعوة الموجهة لرئيس أساقفة كانتبرى ويورك . غير أن حضور الممثلين لصغار رجال الدين تضاءل رويداً رويداً ، بسبب توفر تلك الفئة على شئون الكنيسة ، حتى إذا كان الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر الميلادى لم يبق أحد من رجال الدين بمجلس النواب .

على أن موضع الأهمية هنا أن مجلس النواب المنفصل عن مجلس اللوردات بالمعنى البرلمانى الحديث ، لم يوجد على عهد إدوارد الأول ، كما لم توجد النظم البرلمانية التى تحتم تقديم مسألة من المسائل فى صورة مشروع قانون للمناقشة والتصويت فى كل من المجلسين ، ثم إعلان التصديق الملكى فى مجلس اللوردات ، حيث يتلو كاتب المجلس صيغة التصديق وهى " الملك يوافق " (Le Roy le veult) ، بحضرة رئيس مجلس النواب الماثل مع هيئة مكتب مجلسه أمام حاجز اللوردات ، حتى إذا سمع اللوردات هذه الجملة ، رفعوا جميعاً قبعاتهم العالية ، دليل الاستحسان والتأييد . أما انفصال البرلمان إلى مجلسين فيرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وأما نظام تقديم المسألة من المسائل فى صورة مشروع قانون ، فهو من مبتكرات القرن الخامس عشر الميلادى . ولذا كان معظم أعمال البرلمان على عهد إدوارد الأول ليس التشريع ، بل الموافقة على ما يطلب الملك من الاعتمادات المالية ، والنظر فى

العرائض المرفوعة إلى الملك .

وعن طريق هذه العرائض جاءت آلاف من المسائل الهامة وغير الهامة إلى ذلك المجلس العظيم الذى غدا اسمه " البرلمان " ، فما كان منها بحاجة إلى مشورة القانونيين أحيل إلى الأعضاء من القضاة ، كما أحيلت العرائض الخاصة بالمال إلى موظفى المالية ، أى أن اجتماع البرلمان هيأ الوسيلة لتصفية شئون المملكة ، مثل فحص الشكاوى المحلية ، وفض المنازعات القروية ، وتأدية الضرائب المتأخرة ، وإزالة الأحقاد بين العائلات الكبيرة ، واستقبال السفراء الأجانب ، وتحرير المعاهدات مع الدول ، وفحص الكثير من الدعاوى القضائية . ذلك لأن البرلمان لم يخرج عن كونه المجلس الملكى القديم فى صورة جديدة ، والمجلس الملكى هو المحكمة النهائية العليا فى المملكة . على أن الصفة القضائية التى لزمت البرلمان الإنجليزى أدت إلى نتائج تشريعية هامة ، وهى أنه لما كان البرلمان وقتذاك فى أول نشأته ، وعامة أعضائه يأتون إليه فى غير خبرة بالقانون ، ويحضرون جلساته إلى جانب القانونيين القائمين على شئون القضاء فى المملكة ، غدا أولئك القانونيون أصحاب النفوذ الأعظم فى جميع التشريعيات التى عاشت إنجلترا على مقتضاها فى العصور الوسطى . والدليل على ذلك ما تتسم به القوانين الإنجليزية فى تلك العصور من صفات الدقة والحرص والمحافظة ، مع الخلو من العبارات البلاغية الفارغة ، والأساليب الخطابية الجوفاء .

وفى أواخر عهد إدوارد الأول دلّت مواقف الناس من مطالب الملك ، كما دلّت مواقف الملك من مطالب الناس ، على عظيم احترام القانون والعرف الدستورى ، وهو ما أضحى متغلغلا فى صميم الحياة السياسية الإنجليزية . ذلك أن إدوارد الأول عاش ملكاً قوياً صريحاً محبوباً ، ولكنه ظلّ كذلك ملكاً صارماً طامعاً ، لا يحسب لوسائله أى حساب ، حتى إذا جاءت سنة ١٢٩٧ م ألفى إدوارد نفسه قبالة رفض رجال الدين تأدية ضريبة من الضرائب حتى توافق البابوية ، وقبالة احتجاج البلاد ضدّ قسوة الجباة فضلا عن امتناع بعض البارونات البارزين عن الخدمة الحربية خارج إنجلترا . وحينئذ أدرك الملك أن لحقوقه الملكية حدوداً إذا تعدّاها تعرّض للخطر ، واضطر إلى تعديل موقفه بإزاء تلك المسائل ، كما اضطر إلى التصديق على بعض العهود التى سبق له منحها للمدن ، والموافقة على إصلاح الإدارة الحكومية ، والإقرار بأنه لا يستطيع رفع المكوس المعينة على التاجر ، أو زيادة الإعانات والهبات الإقطاعية ، إلا برضى البرلمان مجتمعاً فى مجلسيه .

بعض المراجع لهذا الفصل

Davis, (H.W.C.) : England under the Normans and Angevins. 1905.
Hutton, (W.H.) : Philip Augustus. 1896.
Lavisse, (E.) : Histoire de France. 1903.
Luchaire, (A.) : Social France at the Time of Philip Augustus. Tr. E. Krebhiel. 1912.
Maitland, (F.W.) : Memoranda de Parliamento. (Rolls Series). 1893.
McKechnie : Magna Carta. 1905.
Perry, (F.) : Louis IX. 1901.
Petit - Du Taillis, (C.) : La Monarchie Féodale en France et en Angleterre. 1899.
Stubbs, (W.) : Constitutional History of England. 1880.
Tout, (T.F.) : Edward I. 1893.

الفصل التاسع عشر

بلاد الغال واسكتلندا وأيرلندا

مدى سلطان إنجلترا فى بلاد الغال زمن الملك إدوارد الأول ــ تسوية هنرى تيودُر النزاع بين إنجلترا والغال فى القرن الخامس عشر الميلادى ــ العوامل الفعالة فى تكوين اتحاد اسكتلندى ــ سياسة إدوارد الأول فى سبيل ذلك الاتحاد ــ نمو الشعور القومى فى اسكتلندا ــ عظمة اسكتلندا بعد اتحادها مع انجلترا ــ مأساة أيرلندا ــ أثر الحرب ضدّ اسكتلندا وفرنسا فى السياسة الإنجليزية بأيرلندا .

* * *

جعل إدوارد الأول ملك انجلترا (۱۲۷۲ ــ ۱۳۰۷ م) إخضاع الغال واسكتلندا أهم ركن من أركان سياسته ، وهو أول ملوك إنجلترا فى ذلك المضمار . ومن ثمّ ــ بل منذ ۱۲۵۹ م ــ أضحى توحيد الجزيرة البريطانية تحت التاج الإنجليزى موضع عناية متصلة ، أى من ۱۲۵۹ إلى ۱۳۳۸ م ، وهى المدة التى تفصل بين مرحلتين من مراحل الحروب الإنجليزية فى أرض الفرنسيين . ففى بلاد الغال امتازت العمليات الحربية التى قام بها إدواردالأول بالمهارة، كما تكللت بالفوز ، إذ استولى على إقليم سنودونيا الجبلى ، وأسس منه إمارة إنجليزية تكون دائماً لولى العهد فى إنجلترا ، بعد أن قسّم الغال كله إلى مقاطعات على نسق المقاطعات الإنجليزية ، وحصّن وديانه بسلسلة من القلاع المنيعة ؛ وبهذا هدم إدوارد الأول إمارة الغال الشمالية ، وهى إمارة خوينيد (Gwynnedd) التى كانت منذ أيام خلولين الكبير (Llewellyn) قلب الغال النابض ، ومركز القبلية والتقاليد الكلتية .

كذا استطاعت إنجلترا أن تبنى لنفسها سلطاناً سياسياً ممتازاً فى ناحية هامة من تلك البلاد ذات الوديان الضيقة والتلال الوعرة ، ولكنه ظلّ سلطاناً محدوداً بصورته الجغرافية ، فبقيت معظم القبائل الكلتية على حروبها القبلية فى صياصى الجبال وأفواه الدروب ، وامتدت حروبها بين حين وآخر إلى أطراف

الإمارة الإنجليزية ، فأشعلت النار وأعملت السيف فى الوديان التى بذل بارونات تلك الأطراف جهداً جهيداً فى فلاحتها ونشر اللسان الإنجليزى بين أهلها ، أملا فى الاستقرار بها والزواج من نساء بيوتها . وبرغم ما قام به أولئك البارونات بقى أهالى جبال الغال على حالهم ، كما وصفهم جيرالد الكامبرنسى (١) أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وهو من الذين جرت فى عروقهم دماء الغاليين والنورمانيين ، إذ قال إن " الغاليين شعب سريع التنقل ، ناشط الحركة ، قوى العزيمة لا البنية ، قديم الخبرة منذ حداثته بحمل السلاح ، لأن المران فى فنون القتال لم يكن وقفاً على النبلاء فحسب ، بل شمل جميع الناس ، حتى إذا نادى منادى الحرب هرع إليه الفلاح من مزرعته ، كما يهرع النبيل من قصره . والغاليون يعيشون على اللحم واللبن والجبن أكثر مما يعيشون على الخبز ، ولا يهتمون بالتجارة وركوب البحار والصناعة ، بل يهتمون بالصيد والقنص والدربة على القتال ، ويصرفون فى ذلك أوقات فراغهم ، مع الإقبال الشديد على معرفة وسائل الدفاع عن بلادهم وحريتهم ، وهما اللتان من أجلهما يحاربون ويتحملون الصعاب ، وفى سبيلهما يجودون بأرواحهم ، ويموتون عن طيب خاطر ، ويعتبرون الموت بين أهلهم عاراً كبيراً ، والتردّى فى حومة الوغى شرفاً عظيماً " .

لذا لم يكن عجباً أن تعجز انتصارات إدوارد عن أن تغيّر شيئاً من روح العناد المتغلغل فى نفوس الغاليين ، برغم ما أعقب تلك الانتصارات من تدابير كفيلة بتهدئة الخواطر وإقرار السلام ، إذ عاش الغالىّ فى صميم نفسه — كما وصفه جيرالد — ميالا للحروب فى كثير من الطيش ، غيور النفس ، بليغ اللسان ، شديد الإحساس بما يمسّ شرف عائلته ، سريع الغضب والانتقام لأية إهانة تلحقه ، غير مسرف فى طعامه أو شرابه ، خبيث السريرة ، طويل الباع فى الدسيسة ، عظيم الولع بالشعر والغناء . غير أنه مما لا شك فيه أن الحضارة الأنجلو — نورمانية التى امتدت إلى بلاد الغال من الأديرة الغالية الشهيرة ، ومن قصور بارونات الأطراف ، أثرت بعض الأثر فى أولئك القوم الذين امتلأت حياتهم بالحروب وأغانى الحروب ، ولا سيما بعد أن تزاوجت عائلات إنجليزية بعائلات غالية فى أقاليم الأطراف ، وحارب الرماة الغاليون والمزارعون الإنجليز جنباً إلى جنب ضدّ الفرنسيين فى القرن الرابع عشر الميلادى . وإلى الرماة الغاليين — وهم

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢١٤ . زيادة .

الذين اخترعوا القوس الطويل – يرجع معظم الفضل فى تحقيق الفوز لملوك إنجلترا، فى فرنسا . ثم التحق كثير من نبلاء الغال بجامعة أكسفورد ، كما درس بعضهم القانون فى دور الحقوق بلندن، مثل أوين جلندور . وهكذا أخذت بلاد الغال كل ما استطاعت إنجلترا أن تعطيه ، ومع ذلك ظلّت تلك البلاد مختلفة عن إنجلترا اختلاف الجبل عن السهل ، حتى إذا استقرت الحياة السياسية فى إنجلترا تمام الاستقرار ، بقيت الغال مرجلا يمور بالأحقاد القبلية فى غير انقطاع . وكان لتلك الحال من التأثير فى سياسة إنجلترا الداخلية مثلما كان للحزبية الأيرلندية فى السياسة الإنجليزية فى القرن التاسع عشر الميلادى ، حين كادت حوادث أيرلندا تؤدى بإنجلترا إلى حرب أهليه . والواقع أن الروح الحربية التى ملأت أقاليم الأطراف الغالية ، كما ملأت بلاد الغال نفسها ، هى التى أوقدت حرب الوردتين فى إنجلترا . ولم تزل تلك الحرب متأثرة بما بين إنجلترا والغال من الضغن حتى أنهاها وأنهى ضغنها انتصار أحد الغاليين ، وهو هنرى تيودُر فى وقعة بُوزورث، سنة ١٤٨٥ م . وبفضل ذلك الانتصار صارت الملكية فى إنجلترا إلى أسرة غالية – هى أسرة تيودُر – قرناً ونيفاً من الزمان ، وأضحت الغال جزءاً من النظام البرلمانى الإنجليزى ، كما أضحت إنجلترا ذاتها بفضل التيودُريين دولة بروتستانتية . ومن المعروف فى التاريخ المعاصر أن وزيراً غالياً – لويد چورچ – هو الذى قاد سفينة الإمبراطورية البريطانية إلى النصر فى الحرب العالمية الأولى، ١٩١٤ – ١٩١٨ م .

أما مشكلة اسكتلندا ، فاختلفت عن مشكلة الغال فى ناحية هامة ، وهى أن جميع اسكتلندا جنوبى المناطق الجبلية وشرقيها تعتبر جزءاً من نورثمبريا الإنجليزية، من حيث التكوين البشرى والنظام الحكومى والعادات المرعية ، إذ يتألف سكان نورثمبريا ومملكة اسكتلندا عامة من الأنجلو – سكسونيين والنورمانيين الذين امتزجوا بالجماعات الكلتية الأصلية امتزاج القوى بالضعيف ، بعد إخضاعهم تلك الجماعات شمالى تلال شقيوت وجنوبيها . وتملّك النبلاء من أولئك القوم الأنجلو – نورمانيين معظم الأراضى على جانبى التلال الفاصلة جغرافياً بين إنجلترا واسكتلندا ، وحظى القانون الأنجلو – نورمانى ومؤلفاته فى إدنبره بالاحترام الذى حظى به فى لندن . ومن الدليل على ذلك أن داڤيد الأول ، وهو من أذكى ملوك اسكتلندا – وهو كذلك ابن أميرة إنجليزية – ، عمل على تهذيب رعاياه بتلقينهم

شيئاً من مظاهر الحضارة الراقية التى اتصف بها أهل البلاد الواقعة جنوبى تلال شفيوت. ونجح داڤيد فى عمله هذا نجاحاً يدل عليه أن المسافر من يورك إلى إدنبره، منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، لا يلحظ بين أهل المدينتين من الفروق — فى اللهجة أو المظهر أو السلوك أو المعمار الحربى والدينى — ما يشعره أنه فى سفره يعبر إقليماً إلى إقليم بين أهلهما عداء مستحكم الحلقات .

ولذلك التشابه الكبير بين إنجلترا واسكتلندا بدا اتحادهما السياسى أمراً طبيعياً لازماً ، بل هو ألزم من اتحاد إنجلترا والغال ، أو إنجلترا وأيرلندا، أو إنجلترا وجسقونيا . واستهدف إدوارد الأول تحقيق هذا الاتحاد حين عقد مع الاسكتلنديين معاهدة بِرْجهام سنة ١٢٩٠م، على أن يتزوّج ابنه وولى عهده من الوارثة للعرش الاسكتلندى، وهى مارجريت النرويجية[1] ، وأن تنضوى المملكتان بعضهما إلى بعض، على أن تحتفظ كل منهما بحقوقها وتقاليدها . ومن الواضح هنا أن معاهدة من معاهدات العصور الوسطى لم تبلغ ما بلغت هذه المعاهدة من الحكمة والبصيرة ، ولو أنها تنفّذت لتجنبت إنجلترا أجيالا من الحروب على طول أطرافها الشمالية ، ولتخلّصت إسكتلندا من الفاقة الطاحنة التى ترتبت على التزامها سياسة الانفصال فى كبرياء وعناد . على أنه لم يكتب لتلك المعاهدة أن تتنفّذ ، إذ ماتت غادة النرويج غريقة فى عرض البحر، قبل أن تصل إلى عرشها الاسكتلندى أو إلى زوجها الإنجليزى ، وأضحت معاهدة برجهام ورقة مهملة ، واضطر إدوارد الأول أن يعمد إلى وسائل أخرى مريبة لتحقيق هدفه .

ودلّ ما حدث من الحوادث بين إنجلترا واسكتلندا بعد ذلك على ما اتّسمت به كل حكومات العصور الوسطى من ظواهر الضعف فى الحكم ، والعجز عن كبح الفساد ، وسوء الإدارة بين ولاة الأطراف النائية . وأول تلك الحوادث مطالبة ثلاثة عشر نبيلا من نبلاء الاسكتلنديين بالعرش الاسكتلندى ، بعد وفاة غادة النرويج ، ودعوتهم إدوارد الأول أن يقوم بمهمة التحكيم بينهم ، وهى مهمة لا يحسد

---

(١) العلاقة بين هذه الأميرة النرويجية والعرش الاسكتلندى أن ملك اسكتلندا إسكندر الثالث (١٢٤٩ — ١٢٨٦ م) لم يخلف سوى بنت واحدة اسمها مارجريت ، فصارت وريثة عرشه . وتزوجت هذه الابنة من ملك النرويج ، فأنجبت له بنتاً هى مارجريت النرويجية هذه . ثم ماتت ملكة النرويج ، وهى وريثة العرش الاسكتلندى كما تقدم؛ ومات بعدها أبوها إسكندر الثالث سنة ١٢٨٦ م ، وبذا صارت مارجريت النرويجية — أو غادة النرويج على قول المعاصرين — الوريثة الوحيدة للعرش الاسكتلندى . زيادة .

عليها أحد. وحكم إدوارد — فى غير سوء نية — أن حنا باليول أحق المطالبين بالعرش الاسكتلندى ، بما فيهم روبرت بروس الذى اشتهر بصداقته للإنجليز . وبناء على ذلك الحكم تتوّج باليول ملكاً على اسكتلندا ، بعد أن حلف يمين الإخلاص والتبعية الإقطاعية لإدوارد . غير أن باليول لم يلق من إدوارد ما يجعله يسبّح بحمد ولىّ نعمته ، إذ اعتبره إدوارد دُمية تجب عليها الطاعة للتاج الإنجليزى ، فثارت ثائرة باليول وأعلن العصيان ، وجاء إدوارد إلى اسكتلندا فى قوة كبيرة ، فأخمد الثائرة واستولى على البلاد ، وجعلها ولاية إنجليزية سنة ١٢٩٦ م .

وربما ظلت اسكتلندا على شىء من الولاء للتاج الإنجليزى بعد ذلك التاريخ ، لولا ظلم ولاة إدوارد واستبدادهم . ذلك أن أهل البلاد الاسكتلندية من رجال السياسة والدين لم يروا فى التبعية الإنجليزية شيئاً مجحفاً ، ولم يكن لاسكتلندا حتى ذلك الوقت أدبيات قومية ، كما لم يكن بين أهل إنجلترا وأهل جنوب اسكتلندا من الفروق ما يشبه ما بين أهل الجبال الاسكتلندية فى أرجايل وإنفرنس باسكتلندا نفسها من فروق. لكن ظلم ولاة إدوارد واستبدادهم ولّد روحاً تمردية ثورية جديدة بين الاسكتلنديين ، فهبّوا ضدّ غزاتهم الإنجليز ، ووجدوا فى وليم ولاس زعيما موهوباً لقيادة الثورة ، وهو رجل جديد لم يعرف الناس عنه إلا قليلا حتى سنة ١٣٠٥ م ، حين ألقت به الحوادث الصاخبة إلى مسارح التاريخ الاسكتلندى .

وفى وسط هذه الحوادث كان مولد الأمة الاسكتلندية التى أضحت حقيقة ذات أهمية كبيرة، فى تاريخ إنجلترا والإمبراطورية البريطانية ، ولا تزال ذكرى وليم ولاس زعيم حرب العصابات ضدّ الإنجليز ، وذكرى روبرت بروس ملك اسكتلندا (١٢٧٤ — ١٣٢٩ م)، ماثلة فى أذهان الاسكتلنديين حتى العصر الحاضر ؛ وهما ولا ريب أصحاب الفضل فى بناء استقلال اسكتلندا . لكن الباحث عن الفائدة التى عادت على اسكتلندا من ذلك الاستقلال الذى حصلت عليه بشجاعتها الرائعة ، وكسبته بانتصارها العظيم فى وقعة بانوكبِرْن سنة ١٣١٤ م ، لا يجد إجابة مقنعة لسؤاله ، لأن تاريخ اسكتلندا بعد استقلالها صفحة تموج بالشحناء والاضطراب ، ولأن عظمة اسكتلندا — إذا قيست بعدد ما أنتجت من عظماء السياسيين والعسكريين والمفكرين واللاهوتيين والفنانين والمؤلفين — ترجع لا إلى عهدها بالاستقلال والحرية والعزلة ، بل إلى العصر الذى أعقب اتحادها مع إنجلترا تحت حكم الإستوارتيين ، وشهد تقدم أهلها خطوات دائبة فى الفنون

والأعمال المؤدية للسلام ، منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى .

ننتقل هنا إلى التاريخ الأيرلندى ، وهو تاريخ مأساة خلاصته أن أيرلندا تعرّضت للغزو مرّة بعد مرّة ، دون أن يستطيع غازٍ من غزاتها أن يخضعها لحكمه مرّة واحدة . ولذا لم تستقم للإيرلنديين فرصة يبنون فيها حضارة مستمدة من وحى تفكيرهم وشعورهم ، ولم تحملهم حادثة من الحوادث على الرضوخ لأجنبي يكون أكثر منهم قوة وأحسن ثقافة . ولذا ظلّ الشعب الإيرلندى — وهو شعب على جانب من الذكاء وسوء الحظ — يطوى القرون تلو القرون من تاريخه ، والجزيرة الأيرلندية لا يقربها إلا أشباه الفاتحين ، بل وقفت الدولة الرومانية منها عند جزيرة أنجلسى بغرب الغال ، بعد أن رأى الرومان أنه ليس من الحكمة أن يعبروا البحر الأيرلندى . وهكذا كان من سوء حظ أيرلندا ألا تنعم بنعمة الطرق الرومانية ، أو تتذوّق طعم السلام الرومانى . ثم اعتنق الأيرلنديون المسيحية على يد القديس پاترك (٤٣٢ م) ، فأكسبتهم ديانتهم الجديدة حوافز روحية جعلت منهم — فى أظلم مراحل التاريخ الأوربى — أول أنوار الثقافة المسيحية . غير أن أيرلندا لم تظلّ طويلا مصدر النور والعرفان ، إذ أرخى ليل الجهالة سدوله عليها مرة أخرى حين غزاها الدانيون ، وعفّت الهمجية الدانية على كل ما اتسمت به حياة المجتمع الأيرلندى من نور وبهاء ، كما أضحت أيرلندا — عدا مدنها الساحلية — قفوراً موحشة .

ثم أتى على إيرلندا حادث شاءت المقادير أن يكون ذا أثر دائم فى مصاير الأيرلانديين ، وهو فتح النورمانيين إنجلترا ، ودلّ النورمانيون كما هو معروف على أنهم بالقياس إلى غيرهم أقدر الأجناس الفاتحة على تنظيم الفتوح وتحويلها إلى مراكز حضارية . لكن النورمانيين لم يلتفتوا إلى أيرلندا ، لاهتمامهم بصقلية ونورمانديا وأنجو وإنجلترا نفسها ، حتى إذا حوّلوا بعض جهودهم زمن الملك هنرى الثانى[1] إلى مشروع فتح أيرلندا ، بتشجيع رسمى من لدن البابا هدريان الرابع — وهو البابا الإنجليزى الوحيد فى تاريخ البابوية — لم يستطع هنرى القيام على ذلك المشروع لانصرافه إلى شؤون إمبراطوريته الأنچوية المترامية الأطراف . لذا قام على تنفيذ ذلك المشروع بعض المغامرين الشجعان من الأنجلو — نورمانيين ، إشباعاً لروح المغامرة والشجاعة ، أى أن الأمر لم يتعدّ المغامرة والقتال ؛ وهكذا ولمرّة أخرى كان فتح الجزيرة الأيرلندية ناقصاً كل النقصان .

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢٨٦ . زيادة .

غير أن الأنجلو ــ نورمانيين الذين ذهبوا إلى أيرلندا بقيادة أحد أولئك المغامرين ــ وهو رتشارد دى كلير ــ كانوا من خيرة الجنود ، فلم يستطع الأيرلنديون الذين أذهبت قوتهم الأحقاد القبلية ، وأضاعت مقاومتهم قلة الدروع الواقية للأجسام ، إلا أن يقعوا فريسة سهلة أمام فئات من الجند المدرعين المارنين على القتال فى أكبر ميادين الحرب فى ذلك العصر . ثم لم تلبث المدن الإستمانية[1] أن صارت إلى أيدى عصابات من المغامرين الأنجلو ــ نورمانيين ، ومنذئذ بدأت المتاعب الحقيقية للغالبين والمغلوبين ، إذ أضحى الغالبون أصحابَ الأراضى الأيرلندية ، وتزوّج كثير منهم نساء أيرلنديات ، كما تعلم معظمهم اللسان الأيرلندى . وانطبع أولئك الغالبون ــ آل بتلر ، وفتزجرالد ، ودى كورسيه ، ودى بره ــ بطابع ما حاطهم من مناظر أيرلاندا وأنغامها وبيئتها ، وأخذوا يصطبغون بصبغة الأيرلنديين ؛ وبذا تكررت القصة القديمة التى تقول بأن الغالب يغدو أحياناً أسيراً للمغلوب . أما أيرلندا القديمة وأهلها المغلوبون ، فظلت على حالها وقوانينها كما كانت قديماً ، من حيث العرف والعادات القبلية ؛ وبقى الأيرلنديون على لغتهم وأدبياتهم ، تحدوهم بقية بغيضة من الوحشية والهمجية ــ أى أنّ أيرلندا بقيت حية ، برغم ما ذهب عنها من عنجهيتها القديمة ، بعد أن أضحت خاضعة للأنجلو ــ نورمانيين .

غير أن أولئك الأنجلو ــ نورمانيين لم يستطيعوا أن يغيروا شيئاً من صفات الأيرلنديين ، بل كان أقصى ما استطاعوا أنهم أصبحوا فى أيرلندا طبقة أرستقراطية ، لا هى إنجليزية كأصلها ، ولا أيرلندية بحكم بيئتها ، بل خليط وسط فى صفاته ومكانته بين الاثنين . واشتهرت هذه الأرستقراطية الأيرلندية بكثرة الاضطراب الفكرى ، وكثرة التغيب عن أيرلندا ، كما اشتهر ملوك إنجلترا بعدم الاهتمام بهذه الجزيرة الخضراء ، ما عدا رتشارد الثانى الذى عزم على معالجة شؤونها فى شىء من الجدّ . ومنشأ ذلك الموقف الذى وقفه ملوك إنجلترا من أيرلندا وقتذاك أن سكانها من المتوطنين الإنجليز ، والتجار فى الثغور ، والأرستقراطيين الأنجلو ــ أيرلانديين أصحاب الأراضى ، والأيرلنديين الوطنيين القبليين ، عاشوا منفصلين بعضهم عن بعض تمام الانفصال ، ولم يكن باستطاعة أداة سياسية ــ بالغة ما تبلغ من الحكمة

---

(١) اسم هذه المدن فى الأصل الإنجليزى (Ostman Towns) ، وهى مجموعة من المدن الواقعة فى الجزء الشرقى والجنوبى الشرقى من أيرلندا ، وترجع تسميتها بذلك إلى اسم سكانها الأصليين من النرويجيين أو الدانيين . زيادة .

والسداد — أن تجعل من تلك العناصر المتنافرة مزيجاً قادراً على التآلف والاستقرار والانسجام .

ثم خلت إنجلترا من المشاكل الأوربية ، على عهد إدوارد الأول ، فاستطاعت أن تسهم فى تنمية التجارة الأيرلندية ، وتوسّعت فى تطبيق التنظيم الإقليمى بين قبائل الأيرلنديين ؛ وكان ذلك النظام فى الواقع أهمّ الصادرات السياسية الإنجليزية فى العصور الوسطى . ولو كان فى الإمكان أن تبقى الحال على ذلك المنوال الهادىء ، وأن يظلّ الإنجليز على توغلهم السلمى قرناً من الزمان ، لتحققت الوحدة بين إنجلترا وأيرلندا — أكبر الظن — أتم تحقيق . لكن سوء الحظ لحق أيرلندا مرّة أخرى ، ففى السنة الثالثة لمعركة بانوكبرن[1] — أى سنة ١٣١٥ م — غزا إدوارد بروس شقيق روبرت زعيم الاسكتلنديين جزيرة أيرلندا غزوة عنيفة ، إمعاناً فى مناوأة الإنجليز ، وتبعه روبرت إلى أيرلندا سنة ١٣١٦ م . وبذا نكبت الاثنان أيرلندا المنكوبة بحرب وحشية طاحنة ، فذوت بشائر التقدم الأيرلندى قبل أن يستوى عودها الرطيب ، وانحسر النفوذ الإنجليزى حتى أمسى قاصراً على إقليم ضيق بشرق أيرلندا ، وتعطّل فجأة ما جاء به قرن كامل من مقوّمات السلام . ثم لم تشأ المقادير أن تصلح شيئاً من تلك الكوارث ، إذ صرفت حرب المائة عام أنظار الحكومة الإنجليزية عن أيرلندا — وحاجاتها التى لا تنتهى — إلى الجرى وراء الحصول على التاج الفرنسى ، وما فى ذلك الجرى من مجد . واختفت أيرلندا فى لجة من ضبابها الغربى الكثيف ، حتى إذا كان القرن السادس عشر الميلادى ، وحاول التيودُريون فتح البلاد مرّة أخرى للحضارة الإنجليزية ، تعثّرت محاولتهم بعقبة هائلة جديدة فى ثنايا العقبات القديمة ، إذ غدت إنجلترا تدين بالمذهب البروتستنتى ، على حين ظلت أيرلندا ثابتة على الكاثوليكية .

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٠٨ . زيادة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Hume Brown, (P.) : History of Scotland. 1899-1909.

Green, (Mrs. J.R.) : The Making of Ireland and its Undoing. 1908.

Edwards (O) : Wales. 1901.

Lang. (A.) : History of Scotland. 1900-1907.

Little. (A.G.) : Mediaeval Wales.

Lloyd. (J.E.) : History of Wales. 2 vols. 1911.

Trevelyan (G.M.) : History of England. 1926.

الفصل العشرون

حرب المائة عام

موقف الإنجليز من الحرب مع فرنسا — الجيش الإنجليزى — مظاهر القوة والضعف فى فرنسا — حملة سنة ١٣٤٦ م — الوباء الأسود . السنوات العشر الحرجة — معاهدة كاليه — إفاقة فرنسا على عهد شارل الخامس — نكسة فرنسا مرة أخرى — البرجنديون والأرمنياك — رتشارد الثانى — أسرة لانكستر — هنرى الخامس ووقعة أجنكورت — معاهدة تروى — مساوىء برجنديا — چان دارك — انتهاء الحرب — روح الحرب ونتائجها — حروب الوردتين — العبقرية الإنجليزية .

* * *

تبدو حرب المائة عام للعقل الإنجليزى فى العصر الحاضر سلسلة من الحماقات الفاجعة ، على عكس ما بدت فى عيون أجدادهم ، وهم الذين شهدوا عصر الملك إدوارد الثالث وهنرى الخامس ، واعتقدوا أنه ليس من الغرابة فى شىء أن يطلب ملك من ملوك إنجلترا عرش فرنسا لنفسه ، أو أن يعمل على إخضاع البلاد الفرنسية لسيادته . ولم يغضب أولئك الأجداد لإثارة تلك الحرب ، ولم يطلبوا — حين تبدّدت الآمال فى الانتصار — أن يستبدل الملك بحكومته حكومة مسالمة ينتهى على يدها القتال ، بل غضبوا على الوزراء الذين حامت حولهم مسئولية الخيبة فى الحرب أو الإمعان فى ابتزاز الأموال ؛ وكان غضبهم واضحاً فى الثورتين الشعبيتين سنة ١٣٨١م وسنة ١٤٥٠ م . وفى أثناء تلك الحرب اجتمع البرلمان الإنجليزى فى مواعيده المقررة ، لأن الملك لا يستطيع بغير البرلمان أن يحصل على الضرائب التى تتغذى من حصيلتها جيوش المملكة . غير أن البرلمان لم يرفض الموافقة على تلك الضرائب ، ولم ينهض ناقد ليقول إن إنجلترا تهمل ما تحت يدها من المصالح فى الغال واسكتلندا وأيرلندا ، من أجل ضالة عقيمة فى فرنسا . كل ذلك لأن الحرب ضدّ الفرنسيين أضحت أساساً من الأسس القومية فى إنجلترا ، وغدت فى عقول الإنجليز كأنها من المقدور

المكتوب على الجبين ، برغم ما تخلل أدوارها من ضرائب مالية مضنية . وربما كان بعض السرّ فيما لقيت هذه الحرب من هوى فى النفوس أن الإنجليز — وهم البادئون بالعدوان — ظلوا يخرّبون فى أرض أجنبية . فبينا تحملت فرنسا كل رزايا الغزو ومصائبه ، تمتعت إنجلترا بجميع ما يجلب السلب والنهب من بلد غنى خصيب، لا يفصله عن السواحل الإنجليزية سوى بحر المانش . ثم إن الإنجليز تعوّضوا عن عبء الضرائب التى أثقلت كواهلهم، لا بنشوة الانتصار فى حرب خارجية فحسب ، بل بتغلغل الاعتقاد فى نفوسهم بأن الحرب تفيد التجارة ، إذ مكنت لإنجلترا بيع أصواف أغنامها بأسواق بروج وجنت ببلجيكا الحالية ، وسهلت عليها شراء الأنبذة التى تريدها من بوردو ، مع إيجاد أسواق بالقارة الأوربية لقصديرها وحديدها وجلودها . وزاد فى تلك الروح العامة المتحمسة للحرب ما اتصفت به الجيوش الإنجليزية من صفات جديدة، بعد أن حلّت النظم المستندة إلى الخدمة الحربية فى جيش ملكى ثابت محلّ النظم الإقطاعية القديمة القائمة على العهد الإقطاعى وشروطه ، وبعد أن باتت كتائب المشاة مكونة من المزارعين الإنجليز والرماة من أهل الغال . ومعنى ذلك أن الجيش الإنجليزى فى القرن الرابع عشر الميلادى غدا ممثلا للأمة ، لا لطبقة من الطبقات ، كما كان الحال فى الجيش الفرنسى الإقطاعى ، وأن فئات الخيالة الثقيلة لم تعدْ السلاح الوحيد أو الأكثر أهمية فى الجيش . ولأول مرة فى تاريخ الحروب الأوربية فى العصور الوسطى ظهرت كتائب المشاة البريطانية التى تكونت من أواسط طبقات المجتمع ، وأفسدت حساب أمهر القادة فى ميادين القتال ، إذا استخدمت جنود هذه الكتائب سلاحاً فاق نظائره من الأسلحة فى الرمى والمتانة ، وأكسبها سابق مرانها على استخدامه فى مروج القرى الإنجليزية زمن السلم مهارة ليس بعدها مهارة . وذلك السلاح هو القوس الطويل (Longbow) الذى انتصر به أولئك الجنود فى وقعتى كريسى سنة ١٣٤٦ م ، وأجنكورت سنة ١٤١٥ م ، حين حصدت السهام الإنجليزية خيل الفرسان الفرنسيين ، وهم يزحفون إلى ساحة المعركة فى زرودهم وأسلحتهم الثقيلة ، فلم تكن إلا هنيهة حتى توقّفَ الزحف دون قتال، وتقطّر الفرسان الفرنسيون عن خيلهم، وهاموا على وجوههم ، لا يستطيعون إلا أن يكونوا غنيمة سائغة للإنجليز .

هذه خلاصة عاجلة لحرب المائة عام ؛ غير أن فرنسا التى لزمها الخذلان

فى تلك الحرب بدت أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أمة ينبىء كل شىء فيها عن مستقبل باهر عظيم ، فأرضها خصبة وزراعاتها متنوعة ، وأهلها من الفلاحين وأبناء المدن مدبّرون فى معايشهم ،مجدّون فى أعمالهم . وباستثناء جمهورية البندقية ، لم يوجد بأوربا فى العصور الوسطى بلد عرف أهله فنون الحياة المتمدنية أحسن معرفة ، وسار على هدى تلك المعرفة أعدل سير ، مثل فرنسا والفرنسيين الذين أضحوا ولا ريب أرق حاشية من الإنجليز ، وأرحب صدراً من الألمان ، وأكثر قبولا للمؤثرات الخارجية من الإسبان ، وأقل ميلا إلى النزاع الداخلى والعنف من الإيطاليين. ولمدة قرنين من الزمن — وهما الثانى عشر والثالث عشر الميلادى — لم تنبت أرض أوربية نماذج للفكر الأوربى مثل الأرض الفرنسية التى أنبتت أبيلارد ، والقديس برنارد ، والحروب الصيابية ، والفروسية ، والفلسفة المدرسية . على أن فرنسا تدين بكثير من هذه العظمة إلى حسن الحظ والتوفيق ، إذ جعلتها أسرتها الملكية — أسرة كابيه — بنجوة من شرور الثورات والمنازعات حول التاج ، لثلاثة قرون حسوماً متتابعة ، بفضل ما أنجبت لوراثة العرش من ذكور متعاقبة . ثم إن فرنسا أمدّت إنجلترا وصقلية بأسرات ملكية ، كما أمدّت المجر ونابلى بعدهما بملوك من أمراء أسرة آنجو . وبلغ من إعجاب ملك بوهيميا بكل ماهو فرنسى مبلغ الاعتقاد بأنه ليس فى الدنيا مدنية تحكى باريس فى جمالها ، بل غدت البابوية فرنسية منذ استقرّ كرسيهافى أفينيون — وهى التى لا يفصلها عن أرض فرنسا سوى مجرى نهر الرون ، وأضحى البابا فرنسياً تحوطه هيئة من الكرادلة معظمها من الفرنسيين .

غير أن تلك العظمة شابتها ثلاثة عيوب هامة ، أولها أن الاستقرار الذى تمتعت به فرنسا على عهد أسرة كابيه لم يكتب له الدوام ، إذ مات الملك لويس العاشر ابن فيليب الجميل سنة ١٣١٦ م عن ابنة واحدة ، دون أن يعقب وارثاً ذكراً ، فخلفه على العرش أخواه فيليب الخامس ، وشارل الرابع ، بعد أن أفتى القانونيون الفرنسيون بحرمان الإناث من وراثة العرش الفرنسى ، عملا بقانون الفرنجة الساليين الذين حكموافرنسا أوائل العصور الوسطى[١] . فلما مات شارل الرابع سنة ١٣٢٨ م ، دون أن يعقب هو كذلك ذكراً ، خلفه ابن عمه فيليب ڤالوا (Valois) . لكن أحقية أسرة ڤالوا فى العرش لم تلق قبولا لدى إدوارد الثالث ملك إنجلترا ، لأن أمه إيزابلا بنت فيليب الجميل ؛ وأعلن إدوارد أنه إذا لم يكن للأنثى حق فى

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٣٥ — ٣٦ . زيادة .

عرش فرنسا بحكم القانون ، فالقانون لا يحرمها من نقل حقها فى العرش إلى أبنائها الذكور ؛ ولأول مرة فى تاريخ فرنسا — منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى — تعرّضت أحقية الجالس على العرش الفرنسى للشك الكثير .

أما العيب الثانى فكان أعظم شأناً ، وهو أن نبلاء فرنسا أمسوا بعد انتهاء الحروب الصليبية يعيشون فى عافية إقطاعية ، فطلع عليهم القرن الرابع عشر الميلادى دون أن يتعلموا شيئاً أو ينسوا شيئاً ، أو تصبو نفوسهم إلى شىء . وانغمسوا فى حروب محلية ، كأن لم تكن الدولة الفرنسية فى خطر ، وأخذوا يسومون الفلاحين أقنانهم ألوان الخسف والظلم ، كأن لم يكن المعروف لديهم أن حياة فرنسا تعتمد كل الاعتماد على عرق الفلاحين . والعجيب كذلك أنهم غفلوا عما صار إليه أعداؤهم الإنجليز من التماسك بفضل التخليط الاجتماعى الذى حدث بين الطبقات فى إنجلترا ، وسوّى بين أغنى البارونات وأفقر المزارعين الإنجليز فى التعرض لأخطار الحياة الجندية فى ميادين القتال . ولم يفقه أولئك السادة الفرنسيون هذا الدرس ، برغم تغلب المشاة الإنجليز مرة بعد مرة على أروع الفرسان الفرنسيين ، كما حدث فى وقعة كورتريه سنة ١٣٠٢ م ، ثم وقعة كريسى سنة ١٣٤٦ م ، وما كان لهم أن يفقهوا شيئاً ألبتة إلا بعد أن رأوا ملك فرنسا يروح أسيراً إلى لندن ، وبعد أن شهدوا ملك إنجلترا يضع تاج فرنسا على رأسه فى باريس .

ومن العجيب الدال على عجز الأرستقراطية الفرنسية عن إدراك ذلك الدرس ، وغيره من الدروس الحربية الناتجة عن التجربة المريرة ، أنه برغم استخدام الإنجليز نوعاً من مدفعية المجانيق فى واقعة كريسى سنة ١٣٤٦ م ، لم يعمد الفرنسيون إلى استخدام ذلك السلاح إلا سنة ١٤٥٥ م ، فى وقعة فورمنى (Formigny) ، حيث فاقت رمية المجانيق الفرنسية رمية السهام الإنجليزية .

أما العيب الثالث فكان عيباً عضالا ، ظل مستعصى العلاج خلال القرون حتى شفته انفجارات الثورة الفرنسية ، فى القرن الثامن عشر الميلادى . ذلك أن الفرنسيين — على نباهتهم المعروفة — لم يقبلوا يوماً من الأيام أن تفرض عليهم حكوماتهم ضريبة طيبة ، أو أن يؤدوا لحكومتهم ضريبة رديئة . وبقى النظام المالى الفرنسى فاسداً كلّ الفساد طوال العصور الوسطى ، إذ جُمعت الضرائب بطريق التضمين ، فابتزّ الضمان من دافعيها أموالا أكثر مما حملوا هم إلى خزائن الدولة ، وناءت كواهل الفقراء بضريبة الملح المعروفة باسم الجابيل (Gabelle) ، وضاق التجار

بمختلف المكوس على المبيعات ، وألوان العبث بأسعار النقود ؛ وزاد فى ضيق الفرنسيين ما فرضه الملك شارل الخامس وخلفاؤه من ضرائب جمركية محلية . ثم إن شارل الخامس أحيا النظام البغيض الذى ابتكره فيليب الجميل لبيع الوظائف ، فاشتعل بذلك داء الإعفاءات المالية ، ولم يلبث خبث الإعفاءات والمحسوبيات أن سرى فى النظام المالى الفرنسى كله سريان العفن فى جسم الإنسان . ومن أوضح الأدلة على ما أمست المالية الفرنسية فيه من الضعف ، أن الحكومة الفرنسية لم تجد وسيلة لأداء الفدية الكبيرة التى طلبتها إنجلترا ، مقابل إطلاق سراح حنا ملك فرنسا من أسره فى وقعة بواتييه ، سوى الرضا بزواج أميرة فرنسية من غنى وضيع حديث النعمة ، هو جالياتزو ڤسكونتى الإيطالى ، دوق ميلان .

أما الحرب بين فرنسا وإنجلترا فلم تنشب نتيجة اصطدام بين البحارة الفرنسيين والإنجليز فى ميناء من موانى بحر المانش ، أو بسبب إغارة فرنسية على أطراف أقطانيا ، أو مساعدة فرنسا بجنودها علناً (١٣٣٦ م) لحزب داڤيد بروس وقضية الاستقلال الاسكتلندى ، أو إغارة الجنود الفرنسيين الملحقين بالجيوش الاسكتلندية على أطراف إنجلترا الشمالية . وإنما نشبت هذه الحرب نتيجة حادث وقع فى بلاد الفلاندرز التابعة للتاج الفرنسى تبعية إقطاعية ، ففى ١٣٣٦ م ألقى الكونت لويس صاحب الفلاندرز القبض على جميع المقيمين ببلاده أو العابرين عليها من الإنجليز ، وزجّ بهم فى السجون ، بناء على تعليمات صدرت إليه من باريس . وردّت إنجلترا على ذلك الاعتداء الشنيع رداً كفيلا بهدم صناعة فلاندرز الزاهرة رأساً على عقب ، إذ منعت تصدير الأصواف الإنجليزية إلى بلاد فلاندرز ، كما منعت الأسواق الإنجليزية من استيراد الأقمشة الفلمنكية . وفى غضون هذا الموقف الحرج استطاع تاجر فلمنكى حازم بصير — وهو يعقوب فان أرتفلد صاحب التجارة الواسعة فى المنسوجات بمدينة جنت — أن يرسم خيوط السياسة فى غرب أوربا لعدة أجيال . ذلك أنه فضّل رخاءاً اقتصادياً فى ظلّ تحالف حرّ — مع إدوارد الثالث ملك إنجلترا — على خراب اقتصادى فى ظلّ تبعية إقطاعية لفيليب ملك فرنسا . وما زال يعقوب فان أرتفلد يعمل حتى طرد الكونت لويس والسيادة الفرنسية عن الفلاندرز ، وأقنع الملك إدوارد الثالث بوجوب المطالبة بالتاج الفرنسى ، بعد أن عقد معه معاهدة لعودة تصدير الأصواف الإنجليزية إلى جنت ، تهدئة لخواطر الفلمنكيين عامة ؛ وبذا نشبت حرب المائة سنة بين فرنسا وإنجلترا .

وكان أول الوقائع الكبيرة فى تلك الحرب وقعة بحرية سنة ١٣٤٠ م، عند سلويز شرقى أوستند الحالية ، حيث انتصر الإنجليز انتصاراً جعلهم وتجارتهم سادة بحر المانش مدى ثلاثين عاماً . غير أن إنجلترا لم تحاول أن تستغل ذلك النصر لبضع سنين ، لأنها لم تجد ما يدعو إلى غزو فرنسا بعد زوال الخطر الذى يهدد التجارة الإنجليزية مع الفلاندرز ، وبعد أن أمست فرنسا نفسها عاجزة — ولو إلى حين — عن غزو إنجلترا . على أن ما بين فرنسا وإنجلترا من ضغن لم يقتصر على مشكلة الفلاندرز وتجارة الأصواف ، بل تعدّاه إلى مشاكل كثيرة فى جهات مختلفة ، فلم تلبث جذوة العداء التى انطفأت فى مياه سلويز أن اشتعلت فى جهة أخرى ، وهى دوقية بريتانى . ذلك أن التنافس على الدوقية أدى إلى اصطدام إنجلترا وفرنسا من جديد ، بسبب تأييد كل منهما لأحد المتنافسين ، إذ وقف فيليب السادس ملك فرنسا إلى جانب شارل بلوا (Charles Blois) ، ووقف إدوارد الثالث ملك إنجلترا إلى جانب حنا منتفرت ، وهو زعيم القسم الذى تسوده اللغة الكلتية والسكان الكلتيين من الدوقية ، أى القسم الكاره للنفوذ الفرنسى وعدوانه الجائر .

وهكذا وضحت ميادين الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا ، ففى بلاد الفلاندرز وبريتانى ، وفى أقطانيا واسكتلندا كذلك ، وقفت جيوش الدولتين وجهاً لوجه . وإذ بدت حركات الجيوش الإنجليزية من نورماندیا وبريتانى وأقطانيا كأنها حركات تجمعية غرضها وسط فرنسا ، فى غير خطة مرسومة أو اهتمام سابق بالتفاصيل ، شأنها فى ذلك شأن الخطط الحربية فى العصور الوسطى ، فإن هذه الحركات كشفت عن توفيقات حربية جعلت سنة ١٣٤٦ م عام العجائب (annus mirabilis) فى تاريخ إنجلترا ، حين نهب الإنجليز بواتييه ، وكسبوا معركة كريسى ، وحاصروا كاليه ، وسحقوا الاسكتلنديين عند نفلز كروس، فى يوركشير الحالية . ومع هذا لم تجن إنجلترا من هذه التوفيقات الحربية المتراصة فائدة ذات قيمة كبيرة، ماعدا كاليه التى أضحت مدينة إنجليزية منذ ١٣٤٧ م ، وظلت كذلك حتى عهد الملكة مارى التيودُرية فى القرن السادس عشر الميلادى ، حين استردها الفرنسيون نهائيا من إنجلترا .

غير أن السنة التى شهدت سقوط كاليه فى يد الإنجليز ، شهدت كذلك حلول كارثة أوربية عامة حصدت من الناس أكثر مما أفنته مائة سنة من الحروب فى العصور الوسطى ، إذ امتد " الموت الأسود " — وهو طاعون دُمّلى — من أحد

مواطنه بالشرق الأقصى عَبْر طرق التجارة الدولية فى تلك العصور إلى أوربا ، فانتقل من آسيا الصغرى[1] إلى إيطاليا وإسبانيا ، ثم زحف إلى فرنسا عن طريق مرسيليا ، ودخل إنجلترا عن طريق مقاطعة دورستشر ، ثم تحوّل شرقاً فاجتاز ألمانيا وبلاد شبه جزيرة اسكنديناوة ، ومنها اشتعل فى بولندا والنمسا وروسيا . أما الأرقام التى بنى عليها مؤرخ حديث أن ربع سكان أوربا فنى بسبب ذلك الطاعون ، فهى من أرقام العصور الوسطى ، وهى على أية حال بعيدة كل البعد عن التصديق . ثم إنه ليس لدينا من الوسائل ما يكفل تحقيق نص الروايات المعاصرة أن مائة ألف نسمة فى كل من البندقية وفلورنسا ولندن ، وستين ألفاً فى أڤنيون ، وسبعاً وخمسين ألفاً فى نرتْش بإنجلترا ، ماتوا بسبب ذلك الوباء ، وأن عدد الوفيات فى ألمانيا بلغ مليوناً وربع مليون ، مع العلم بأنها قاست أقل من كل من فرنسا وإيطاليا . على أن الأمر الذى لا يتطرق إليه الشك أن الوفيات بلغت مقياساً هائلا كفيلا بأن يخلف وراءه فوضى أخلاقية خطيرة ، واضطرابات اجتماعية مستطيرة ، مما يحدث دائماً حين تنزل بالبشر نقمة طبيعية شاملة ، مما لا يستطيع البشر التنبؤ به أو تقديره ، أو العمل على تخفيف ويلاته .

ومما شهد المعاصرون أن ذلك الطاعون عكف على اختيار الشباب والأقوياء ، دون غيرهم من الناس ، وأنه أشفق بضحاياه فأخذهم أخذاً سريعاً بعض الأحيان ، ولكنه كثيراً ما أردى فريسته فى جحيم من الأوجاع بضع ساعات فحسب . وفى أڤنيون — حيث عصف الطاعون بالسكان سبعة أشهر متوالية — حاول بعض أرباب الطب محاولة جريئة فريدة — فى ذلك العصر — لتشخيص أسباب الطاعون ، فنبشت قبور وأخرجت جثث للفحص بأمر البابا ، لكن فى غير جدوى . وظلّ الطاعون يزحف زحفه الذريع المريع ، وبيده منجل الفناء ، ليحصد ما شاء من حارات العصور الوسطى وقذرها ، ومن ظهور السفن التى حملتها الأمواج على غير هدى بعد اشتعال الوجع بين بحارتها ، ومن جوانب الحقول التى أضحت خالية من الأيدى العاملة اللازمة للحرث وجمع المحاصيل ورعى الماشية .

ومن أسوأ النتائج الاجتماعية التى نجمت عن هذه الكارثة البشرية الطامة قيام

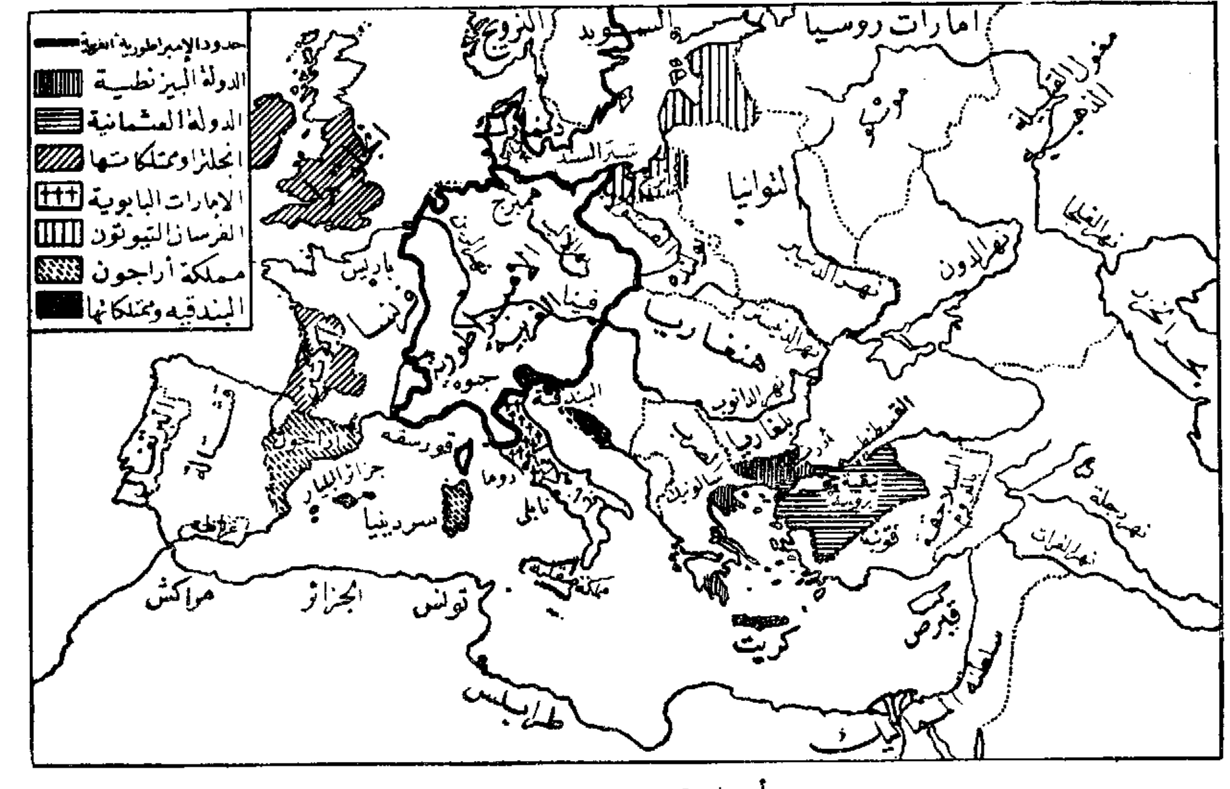
---

(١) وصل هذا الطاعون إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط ، واشتعل بالبلاد اشتعالا وصف المؤرخون المعاصرون مداه فى حولياتهم المعروفة ، وهو غير الفناء الكبير على أواخر عهد الفاطميين فى مصر . زيادة .

كثير من المدن الأوربية بسلسلة من الفظائع ضدّ سكانها من اليهود ، إذ أحرق الدهماء فى ما ينز وغيرها من المدن الألمانية المئات والألوف من اليهود ، اعتقاداً منهم بأن الطاعون مكيدة خبيثة من الجنس السامى للقضاء على المسيحية الكاثوليكية . وترتب على هذه الوحشية الأوربية الغربية أمرٌ على جانب من الأهمية فى التاريخ الأوربى ، إذ وجد اليهود الذين اضطهدتهم مدن الرين من مملكة بولندا ملجأ وقت ذاك ، كما وجدوا منها فى أحوال سابقة ، وانتهز ملكها كازيمير (١٣٣٣ — ١٣٧٠ م) الفرصة ليجدد الحماية التى منحها لطائفة اليهود سلفٌ له سنة ١٢٦٠ م . وإلى هذه السياسة — حين لم يكن أحد من اليهود فى غرب أوربا بنجوة من غضب الدهماء الكاثوليكيين — يُعزى وجود الأعداد الكبيرة من اليهود فى بولندا الحالية .

ولكارثة الطاعون نتائج أخرى أقل بشاعة من حوادث إحراق اليهود ، ففى فلورنسا — نقلا عن الوصف المعروف الذى كتبه بوكاشيو فى الطاعون بتلك المدينة — أسلم البعض أنفسهم لأنواع الملذات ، واستولى على البعض طوف دينى ، وأولئك هم السياطيون (Flagellants) الذين ساروا جماعات فى طرقات المدينة يضربون أنفسهم بسياط من حديد ، تكفيراً عن ذنوب المذنبين من الناس ، على حين اتخذ فريق لم يكونوا من هؤلاء ولا هؤلاء حياة اللصوصية وقطع الطرق سبيلا للعيش . غير أن نتائج الطاعون لم تقتصر على هذه الظواهر العابرة التى انتهت بانتهاء أسبابها المثيرة ، بل تعدّتها إلى نتائج ثابتة معروفة ، حتى إذا انقشع الوباء سنة ١٣٥٠ م إلى غير رجعة ، ما عدا فينات قصيرة على مقياس أصغر ، وعاد الناس إلى الحياة العادية ، بدا المجتمع الأوربى فى حال غير حاله السابقة .

على أن الحال الجديدة لم تأت بانقلابات مفاجئة للمجتمع الأوربى ، إذ الأقرب للحقيقة والواقع هو أن الفناء الذى تعرّضت له البشرية ، ولا سيا فى الأديرة ، حرّك سلسلة من التغيرات التى بلغت فى مجموعتها ونتائجها مبلغ الانقلاب العام . وربما وضحت هذه التغيرات فى إنجلترا عن غيرها من البلاد ؛ ففى الأديرة الإنجليزية اضمحلّ النشاط الأدبى ، وفسد النظام الديرى ؛ وفى المقاطعات الإنجليزية التى أبادالوباءمعظم أهلها أقفرت كنائس الأبرشيات من القسس ، والمصلين كذلك ؛ وفى المدارس كذلك حلّت الإنجليزية محلّ الفرنسية ، وقام على التعليم طبقة جديدة من المعلمين ؛ وفى العمارة وهندسة البناء غلب الطراز المتعامد على



أوربا سنة ١٣٨٠ م

الطراز القوطى القديم ، لبساطة التعامد وسهولة أشكاله وملاءمته لطاقات المعماريين ، لأنهم غدوا فئة قليلة بعد الطاعون حتى اضطروا إلى التنقل بين البلاد[١] . وفى مزارع إنجلترا كذلك خطت حركة استبدال الأجور بالخدمة فى الحقول خطوات بالغة السرعة ، وهى الحركة التى أدّت أخيراً إلى اختفاء القنّية من القرى ، وتحطيم نظام فلاحة الأرض فى العصور الوسطى .

أما الفضل فى هذه الحركة التى لم تقتصر على إنجلترا ، فمرجعه قلة الأيدى العاملة فى الزراعة بسبب الطاعون ، ومطالبة الفلاح بأجر أحسن أكثر إغراء من من الخدمة فى الأرض ثمناً لعرق جبينه ، مما جعل اللوردات أصحاب الضياع غير قادرين على فلاحة أراضيهم إلا بتأجير الفلاحين ، من مختلف الجهات الخارجة عن حيازتهم الإقطاعية . وتراءت هذه الحال الجديدة للطبقة الحاكمة فى إنجلترا وفرنسا ، وأفزعهم ما سوف يترتب عليها من نتائج ثورية ، فسنّت فرنسا قوانين حرّمت على الفلاحين وسائر العمال أن يأخذوا أكثر من الثلث فوق أجورهم .

قبل الطاعون ، وقرّر البرلمان فى إنجلترا عودة الفلاحين وأرباب الحرف إلى أجورهم القديمة ، كما حرّم عليهم الانتقال من جهة إلى أخرى . غير أن نواميس الاقتصاد كنواميس الطبيعة ، لا بد أن ترجع يوماً إلى شيمتها من النشاط ، وإن كان من المستطاع تعطيلها إلى حين . ولذا عجزت التشريعات التى سنّتها برلمانات الإدواردين فى إنجلترا عن تعويق حركة أنشطتها الأحوال الاقتصادية المعاصرة ، بل بقدر ما قلّت الفلاحة خدمةً فى أرض اللوردات ، بقدر ما وضحت فائدة استخدام الفلاحين من مختلف الجهات على قاعدة الأجور النقدية . وهكذا أخذت العوامل الاقتصادية الجديدة تقوّض من دعائم النظم الإقطاعية شيئاً فشيئاً ، حتى إذا تحلل الفلاح القنّ مما يربطه بالأرض من قيود ، وغدا حرًّا فى تسعير خدماته فى سوق العمل ، ارتفعت الأصوات متحدية النظام الاجتماعى القائم ، وأخذت الجماعات تسأل السؤال الذى طالما سأله أنصار العدالة الاجتماعية على مرّ الأجيال فى صيغ نثرية أو نظمية متنوعة الألفاظ لا المعانى ، وهى فى الأدب الإنجليزى

---

(١) هذه ملحوظة جديرة بالتفات المعنيين بدراسة الآثار والفنون الإسلامية ، فى أطوارها ومراحلها المختلفة ، فى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط . زيادة .

فى العصور الوسطى كالآتى بعد تعريبها[1] .

إذا ما آدم زرع الأراضى وعاشت أمّنا حواء تغزلْ
فمن ذا يا تُرى ربّ الديار ؟

ومع هذا كله لم تكبح كارثة الطاعون شيئاً من طيش الأرستقراطيتين الفرنسية والإنجليزية ، أو تخفف من حدة المنافسات بينهما ، فلم تلبث الحرب أن نشبت بين الدولتين فى صورة وحشية قاصية ، على حساب الفلاحين الفرنسيين البؤساء . ولذا كُتبت حوادث السنوات العشر (١٣٥٠ – ١٣٦٠ م) التى تلت قيام الملك حنا الكريم على عرش فرنسا بسطور من الدماء والنيران ، مصداقها قول پترارك الذى زار فرنسا بعد أربع سنوات أو خمس من وقعة پواتييه ، بأن البلاد الفرنسية أضحت من الخراب والدمار – على يد الجيوش الإنجليزية – ما خيل إليه أنه يرى بلاداً غير البلاد التى عرف ربوعها الباسمة قبلا . والواقع أن آثار الحرائق وأعمال النهب والقتل والسبى ، فضلا عن إبادة المحاصيل والماشية ، هى كلّ ما خلفت الجيوش الإنجليزية وتوابعها فى أرض فرنسا ؛ وفى هذه الحوادث المتبربرة أحرز الأمير الأسود – وهو إدوارد[2] بن رتشارد الثالث ملك إنجلترا – من قصب السبق ما جعل له بغرب فرنسا اسماً لا تمحوه الأيام .

ودلت حوادث تلك السنوات العشر أوضح دلالة للقارة الأوربية أن سكان إنجلترا الذين بقيت هزيمتهم على يد الاسكتلنديين فى معركة بانوكبرن ماثلة فى الأذهان ، غدوا أمة حربية عظيمة فى جيل أو بعض جيل من هذه المعركة . ففى سلسلة من الانتصارات التى لم يتوقع أحد حدوثها ، قضى أولئك الإنجليز على مجد فرنسا الحربى التليد ، وتمّ انتصارهم أحياناً – كما حدث فى پواتييه – على جيوش تفوقهم فى العدد والعدة ؛ وفى پواتييه كان أسر الملك حنا الثانى . ثم إن جيشاً إنجليزياً بقيادة الملك رتشارد الثالث استطاع أن يتقدّم نحو أسوار ريمس وپاريس ، كما استطاع جيش إنجليزى آخر أن يزحف من بوردو شرقاً ،

---

(١) النص الإنجليزى بيت واحد من الشعر ،

When Adam delved, and Eve span,
Who was then the gentleman ?

وهو بيت مشهور يجرى على ألسنة الإنجليز حتى العصر الحاضر . زيادة .

(٢) اشتهر إدوارد بهذه التسمية لدأبه على لبس لامة حربية سوداء . زيادة .

وأن يُعمل السيف والنار فى أحراش الزيتون وبساتين الكروم فى أقاليم لانجدوك ، أى أقاليم فرنسا الوسطى وحدائقها ومزارعها . وبهذا خربت أغنى منابع الإيراد فى فرنسا ، وأمست الملكية الفرنسية فى أشد حالات الحرج والإعسار والبؤس العام .

والخلاصة أنه يصعب على الباحث أن يتصوّر من ألوان الذلة لوناً لم تذق الأمة الفرنسية طعمه تلك السنوات المريرة — وهى الأمة التى بدت أعز الأمم الأوربية قبل ذلك بجيل واحد — ، إذ غدا ملك فرنسا أسيراً فى إنجلترا ، وفرض الإنجليز على الشعب الفرنسى جزية باهظة لأداء الفدية المقررة لإطلاق سراحه ، وأخذ المسرّحون من جند المملكتين يؤلفون عصابات ومناسر تنهب البلاد ، وتبلغ بها الجرأة أن تستدفع البابا إنوسنت السادس الأموال ثمناً لرفع حصارها عن المدينة البابوية أفنيون . وقام الفلاحون الفرنسيون أهل الصبر والاستكانة ، والنصيب الأكبر من ويلات هذه الحروب الغاشمة ، بثورة كاسحة فى وجه النبلاء الذين أضاعوا فرنسا للإنجليز ؛ وهذه هى ثورة الجاكيرى[1] (١٣٥٨ م) التى اتصفت بكل صفات العنف والوحشية ، شأن ثورات البؤساء اليائسين . ومع أن هذه الثورة أخمدت فى سهولة وسرعة ، لم تجن البلاد شيئاً من وراء نصر النبلاء على الفلاحين ، أو من وراء ما تخلف عن ذلك النصر الرخيص من هوة اجتماعية هائلة . بعبارة أخرى بدت فرنسا جثة هامدة بسبب الحروب وأعقابها ، ولم يخفف من حالها سوى أن باريس نجت من مخالب العدو ، وما دامت باريس فى أيدى الفرنسيين فلن تكون فرنسا طعمة سائغة للإنجليز . غير أن ثورة شعبية فى باريس نفسها كادت تنجح فى عزل ولى عهد المملكة الفرنسية ، وتولية شارل ملك نافار ملكاً على فرنسا ، وهو الدساس الداهية الخائن الذى عكف على خدمة الإنجليز ، بعد أن أخذ على نفسه عهداً سرياً مكتوباً أن يعتلى العرش الفرنسى على قاعدة التبعية لملك إنجلترا .

ثم أدرك الفرنسيون أن تجنب الاشتباك مع الإنجليز فى معارك فاصلة هو السبيل إلى إرهاق الجيوش الإنجليزية فى فرنسا ، فظلت الحرب بين الطرفين على ذلك النمط حتى أدرك الإنجليز بدورهم أن الحكمة تقتضى عقد صلح مع الفرنسيين . ولذا تمت معاهدة كاليه سنة ١٣٦٠ م ، وبمقتضاها أخذت فرنسا نورمانديا ،

---

(١) أطلق النبلاء الفرنسيون هذا الاسم على هذه الثورة من باب السخرية بالفلاحين الهلافيت الصعاليك (Jacques Bonhommes) ، على قول النبلاء الفرنسيين أنفسهم ، وأبقى التاريخ هذه التسمية الساخرة . زيادة .

على حين بقيت إنجلترا فى أكويتانيا وكاليه وبونتيو . ومن الواضح أن هذه المعاهدة نالت من عزّة فرنسا ، لكنها أتاحت لها بضع سنوات تستعيد أنفاسها ، حتى إذا عاد الفريقان إلى النضال لم تعد كفة انجلترا هى الراجحة كل الرجحان ، إذ كان شارل الخامس ملك فرنسا وقتئذ (١٣٦٤—١٣٨٠) رجلا يختلف تمام الاختلاف عن أبيه المسرفه المتلاف . وإذا جاز لملك قليل المعرفة بشئون المالية أن يرتفع الى مرتبـــة الملوك الصالحين للحكم ، فإن شارل الخامس — وهو المعروف بالرشيد — ممن يستحق أن يرقى إلى ذلك المستوى . ذلك أنه شهد من تسلط الغوغاء فى الأيام السود التى تلت كارثة پواتييه ما جعله يمقت أى نوع من أنواع الحكومة الشعبية ، ولذا ترسّمت سياسته لإنهاض فرنسا طريقاً غير مجلس طبقات الأمة الذى لم ينعقد — مدة حكمه كله — سوى مرة واحدة . وسرّ نجاح شارل الخامس أنه زكن الوسائل التى تكفل له الفوز على الإنجليز ، وهى أسطول ينازع إنجلترا سيادة البحار فى غرب أوربا ، وجيش يلحق الخسائر بالجيش الإنجليزى دون أن يشتبك معه فى المعامع ، وأمة تؤازر الملكية بما فيها من عائد الولاء والأمل .

دلّ شارل الخامس على أنه يستطيع ذلك كله ، بل هو أول ملك فرنسى عمل على تحبيب الفرنسيين فى ركوب البحار ، حين دأب على زيارة الموانى وأحواض السفن ، وحضّ أعيان المملكة على القيام بذلك نيابة عنه ، ليحصل منهم على الأموال اللازمة لبناء السفن . ثم إنه عكف على منح الامتيازات للمدن ، وعلى إغداق الألقاب لأغنياء المدن ، كما عكف على الاقتصاد فى مصاريف الحكم والإدارة ، وبذا أرضى الناس جميعاً . يضاف إلى ذلك أن البلاد تخلصت من الوباء الأسود على أيامه ، ومن جماعات الجنود المسرّحين المفسدين ، إذ أغراهم الملك شارل الخامس بالذهاب إلى إسبانيا للاندماج فى الحرب الأهلية الناشبة بين القطلانيين ، فلقوا فيها حتفهم بعيدين عن فرنسا . أما الجيش ، فأسند شارل قيادته إلى برتران دى جوسكلان الذى حذق الأساليب الفابيوسية [١] فى الحروب ، فأجلى جوسكلان جيوش إنجلترا بهذه الأساليب عن جميع ممتلكاتها فى فرنسا — عدا بايون وبوردو وكاليه — فى الحملة التى قام عليها بين ١٣٦٩ و ١٣٧٥ م .

---

(١) تنسب الأساليب الفابيوسية فى الحروب إلى القائد الرومانى فابيوس ، وهى تقوم على خطة اجتناب المعارك فى ميادين القتال ، مع الدأب على إلحاق الخسائر بمؤخرة العدو . انظر راوس : التاريخ الإنجليزى ، ص ٥٥ . (مكتبة النهضة المصرية . القاهرة) . زيادة .

واستطاعت سفن فرنسية ــ وشارل الخامس على قيد الحياة ــ أن تغير على طول الساحل الإنجليزى ، كما استطاعت سفن قشتالية حليفة لفرنسا أن تلقى مراسيها فى نهر التيمز . وكل ذلك بعد وفاة الأمير الأسود سنة ١٣٧٦ م ، وكذلك إدوارد الثالث فى السنة التالية . ثم تولى عرش إنجلترا رتشارد الثانى سنة ١٣٨٠ م ، وكان صبياً فى الثالثة عشرة من عمره ، وشئون المملكة بيد أوصياء ضعفاء . فبدا طالع الملكية الفرنسية فى الصعود ، ولولا ما هو معروف من قيام شارل الخامس بحملة للاستيلاء على بريتانى حليفة إنجلترا ، وتصفية ما بين الفرنسيين والإنجليز نهائياً ، لتراءى للناظر فى التاريخ الفرنسى ــ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ــ أن فرنسا أضحت خالية من الاحتلال الأجنبى على عهد هذا الملك الرشيد الذى كانت وفاته سنة ١٣٨٠ م .

غير أن عهداً من أفجع العهود فى تاريخ فرنسا أعقب وفاة شارل الخامس ، فذهبت جميع المكاسب التى كسبها الفرنسيون أواخر حكمه مع الريح ، وتعرض كيان الأمة الفرنسية للخطر مرة أخرى . ويتضح مصدر هذا الانتكاس المريع فى مجموعة من البلايا لم تكن فى الحسبان ، وهى وصاية طويلة على ملك قاصر هو شـــارل السادس ، ثم ملك مجنون هو شارل السادس هذا ، ثم تنافس شديد وحــزبية بين أبناء البيت المالك والتابعين لهم من النبلاء ، واطمئنان إنجلترا وقتذاك إلى معونة أقوى شخصية فى فرنسا مدة ست عشرة سنة متتابعة .

وتفصيل هذه البلوى الأخيرة أن ملوك فرنسا اعتادوا أن يمنحوا أمراء العائلة المالكة أخبازاً[١] (Appanages) ــ أى إقطاعات كبيرة من الأراضى ــ رغبة فى شىء من اللامركزية ، وللتخفف من أعباء الحكم فى مملكة واسعة ، وهى رغبة لا تخلو غالباً من الفائدة ، كما لا تخلو من الخطر بعض الأحيان . ومن هذه الإقطاعات أقطع الملك حنا الكريم (١٣٥٠ ــ ١٣٦٤ م) أصغر أبنائه فيليب دوقية برجنديا (١٣٦٣ ــ ١٤٠٤ م) ، فى سلامة نيه وقلة بصيرة ؛ وفيليب هذا هو الذى أكسبته شجاعته فى وقعة بواتييه لقب الجسور (The Bold) . أما دوقية برجنديا فكانت إقطاعاً جليلا فى ذاته ، شهيراً بأنبذته وألوان أطعمته ،

(١) هذا اللفظ من مصطلح الإقطاع فى مصر العصور الوسطى ، ومرادفه الإقطاعى الإنجليزى المثبت بالمتن مشتق من أصل لاتينى (panis) معناه الخبز كذلك ، ومصدره فى لاتينى العصور الوسطى (appanare) ، ومعناه إعطاء الخبز . انظر المقريزى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥ ، حاشية ١ . زيادة .

فرنسياً صميم الفرنسية من أقصاه إلى أقصاه . لكن شاءت المقادير أن تؤدى ثلاث زيجات شهيرة إلى انضمام إقليم برجنديا الفرنسى الصميم إلى أقاليم أكثر منه غنى وعمراناً ، ومعظمها يختلف عن برجنديا من حيث الجنس واللغة ، ومن حيث الصلات التجارية والسياسية . بعبارة أوضح تزوّج فيليب الجسور سنة ١٣٦٩ م من وريثة بلاد فلاندرز (بلجيكا الحالية) ، كما زوّج ابنه وابنته سنة ١٣٨٥ م من بيت وتلسباخ ،أصحاب الجزء الأكبر من البلاد التى هى مملكة هولندة فى العصر الحاضر . غير أن المحالفات التى نتجت عن هذه الزيجات غدت شؤماً على فرنسا ، وإن تراءى للملك شارل الخامس أن زواج أخيه دوق برجنديا من وريثة فلاندرز سوف يجتذب المدن الفلمنكية الغنية إلى دائرة النفوذ الفرنسى . ذلك أن الذى حدث كان نقيض ذلك ، إذ برهنت بلاد فلاندرز بغناها الوفير على أنها أحسن مكاناً ورئيا من برجنديا ، وأن بروكسل أكثر بهاء وجاذبية من ديچون الفرنسية ، وأن الاحتفاظ بود إنجلترا أعظم أهمية من صداقة فرنسا . ثم لم يلبث دوقات برجنديا أن استجابوا إلى بيئتهم الفلمنكية الجديدة ، فغدوا فلمنكيين أكثر منهم فرنسيين ، وسلكوا مسلك السادة فى دولة مستقلة عن فرنسا ، مناهضة لها على طول أطرافها الشرقية .

فلو أن رجلا حازماً جاء إلى عرش فرنسا بعد شارل الخامس ، لما ترتب على قيام هذه الدولة البرجندية الجديدة أى خطر كبير . لكن خليفة شارل الخامس على العرش الفرنسى سنة ١٣٨٠ م كان طفلا ناقص العقل أثيما ،وهو شارل السادس الذى لم يكد يصل إلى سن ّ البلوغ حتى انقلب إلى حال من الجنون الشديد ، فباتت الحكومة وشئون الحكم فى فرنسا آخر الأمر بسبب هذه الحال مجالا للتنازع بين لويس دوق أورليان أصغر أخوة الملك ، وحنا المقدام (The Fearless) دوق برجنديا ابن عمه . وكان لويس شاباً وسيم الطلعة ، ممتلئاً بروح النهضة الأوربية الجديدة عن طريق زوجته الإيطالية ڤالنتينا ڤيسكونتى ، على حين كان حنا المقدام (١٠٤٤ — ١٤١٩م) عنيفاً غليظ القلب. وحبّذ لويس سياسة العمل الجدى ضد ّ إنجلترا عدوة فرنسا ، على حين أدرك حنا مدى الترابط الاقتصادى بين فلاندرز وإنجلترا . ووقف هذان الزعيمان على طرفى نقيض كلما ظهرت مشكلة من المشاكل على مسرح السياسة الفرنسية ، مثل مشكلة الانقسام البابوى ، بسبب انتخاب اثنين من البابوات المتنافسين . لذا وقف لويس إلى جانب البابا الفرنسى بندكت المقيم فى

أڤنيون ، على حين لزم حنا المقدام سياسة الحياد ، مجاراة لرغبات العاصمة الفرنسية ، فأرضى بذلك علماء باريس وطلابها وغوغائها ، ودلّ على بصيرة نافذة ، مع ما هو معروف عنه من عنف شديد .

وفى ليلة من ليالى سنة ١٤٠٧ م ، وقعت جريمة من الجرائم السياسية المروعة التى تدلّ فى أوقات الحرج على نفاذ الصبر بين الناس ، إذ اغتيل دوق أورليان فى شارع من شوارع باريس . ولم يكن ثمة شك فى مصدر هذه الجريمة ، لأن الدوق حنا اعترف بصدورها عنه ، ولأن عالماً من علماء اللاهوت بجامعة باريس انبرى لتبريرها ، كما أنه ليس ثمة شك فى أهميتها ، بالنظر إلى ما ترتب عليها من انقسام فرنسا قسمين بلغ من شدة التناحر بينهما أن شمال فرنسا بما فى ذلك باريس بات فى قبضة هنرى الخامس ملك إنجلترا ، سنة ١٤٢٠ م .

ومن الحقائق المتكررة فى ثنايا التاريخ الفرنسى أنّ باريس شهدت من مظاهر العنف والتطاحن الحزبى تلك السنوات ما لم تشهده مدينة أخرى فى فرنسا ، أى أن العاصمة التى ينبغى لها أن تبدو موطن الأمن والنظام والاتزان بدت على العكس بؤرة العاصفة والصخب والفوضى . تلك كانت شيمة باريس بعد وقعة پواتييه ، حين قضت حوادث الإرهاب والخيانة على الإصلاحات الدستورية التى شرعها مجلس طبقات الأمة ، مدة أسر الملك حنا الكريم ؛ وتلك كانت شيمتها بعد مقتل دوق أورليان ، حين حالفت طوائف الطلاب بجامعة باريس نقابة الجزارين ، وهبّ الكل ومن ورائهم دوق برجنديا ، فحاصروا الباستيل ، وحاولوا القبض على أفراد الأسرة المالكة ، وقاموا بمظاهرات ثورية شبيه بها فى كثير من تفاصيلها حوادث الثورة الفرنسية فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وحوادث الثورة الإسبانية فى العصر الحاضر [١] .

ولم تكن إنجلترا أحسن حالا من ذلك منذ وفاة إدوارد الثالث ، ولئن مضى عهد رتشارد الثانى (١٣٧٧ — ١٣٩٩ م) ابن الأمير الأسود فى أمان ، لا لسبب سوى الصلح بين فرنسا وإنجلترا والمحافظة على شروطه من الجانبين ، فإن ذلك العهد امتلأ بالقلق الشديد والحزبية العنيفة ؛ فضلا عن التقلب السياسى فى غير تمهيد أو إنذار ، مع السخط الاجتماعى المنتشر بأرجاء البلاد ، والهرطقة الدينية التى أخذت تتحدى النظام البابوى والكنيسة البابوية . على أن المشكلة التى هددت

---

(١) يشير المؤلف إلى الثورة الإسبانية التى سبقت الحرب العالمية الثانية . زيادة .

السلام الداخلى فى إنجلترا وقت ذاك هى مشكلة الحريات الدستورية وما اعترضها من أخطار فى السنتين الأخيرتين من عهد رتشارد ، حين تجلى من نيات الملك أنه يريد تعطيل الحكم البرلمانى . وربما كان مرجع ذلك زواج رتشارد من كاترين الفرنسية ، وتأثره بما حدث فى فرنسا على عهد شارل الخامس من عدم انعقاد مجلس طبقات الأمة إلا مرة واحدة فى ذلك العهد ، كما تقدم[١] ؛ أو ربما كان مرجعه ما استولى على رتشارد من ملل وغيظ ، مما يصيب ذوى الأمزجة المتقلبة كثيراً من الأحيان . غير أن رتشارد أخطأ على أية حال فى تقدير طباع الإنجليز فى موقفه هذا ، بعد أن اعتاد البرلمان الإنجليزى الاجتماع للموافقة على إمداد الملكية بالأموال اللازمة لمواصلة الحرب فى فرنسا ، وبعد أن صار البرلمان مجلسين منفصلين منذ أيام إدوارد الثالث ، فغدا البارونات والأساقفة فى مجلس اللوردات ، وممثلو المدن وفرسان المقاطعات فى مجلس العموم ، وكل من المجلسين صاحب حق مقرر فى إدارة شئون البلاد. بعبارة أخرى لم يكن فى استطاعة رتشارد أن يلغى هذه التقاليد وأدواتها التى أضحت جزءاً هاماً من الحياة الإنجليزية ؛ وإذ عُزل إدوارد الثانى ثم قتل سنة ١٣٢٧م ، لتفريطه فى شؤون الحكم ، فلا أقل من عزل رتشارد الثانى وقتله كذلك ، لاستئثاره بدفة الأمور . هكذا لقى رتشارد الثانى حتفه على يد هنرى دوق لانكستر سنة ١٤٠٠م ، جزاء إفراطه فى النيل من الحريات الدستورية ، وهو الذى عاش وحيداً يحدوه الإقدام والإسراف ، مع الإنسانية والمروءة ، بالقياس إلى الكارهين فرنسا من النبلاء المحيطين به .

وحلّ هنرى الرابع لانكستر محلّ رتشارد الثانى على عرش إنجلترا ، وكان بيت لانكستر رمز المحافظة الدينية والحكومة الدستورية ، وهما القاعدتان اللتان تمنى الإنجليز مراعاتهما وقت ذاك . ولذا استبدل اللانكستريون سياسة الاضطهاد بسياسة التسامح التى أذنت قبلهم لهرطيق من الهراطقة — هو حنا وكلف — أن يظلّ على هرطقته حتى وفاته سنة ١٣٧٤ م ، بين أهله لا بين أحطاب مشتعلة النيران . ولم تلبث سياسة الاضطهاد التى لزمها اللانكستريون أن أبعدت أهل العلم وأصحاب الحياة الهادئة عن اللولارديين وحركتهم ، فأخذت اللولاردية[٢] تهوى إلى مهاوى الضآلة

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٢٤ . زيادة .

(٢) اللولاردية اسم للحركة الإصلاحية الدينية فى إنجلترا فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ومن رجالها حنا وكلف المذكور هنا بالمتن . والمبادىء اللولاردية أصل من أصول الإصلاح الدينى الكبير فى إنجلترا ، فى القرن السادس عشر الميلادى . انظر كذلك ما يلى هنا فى الفصل الذى عنوانه النقاد والمصلحون . زيادة .

والجهل . غير أنه على حين أدّت هذه السياسة إلى كبت الحرية الفكرية فى إنجلترا على عهد اللانكستريين ، انتهزت البرلمانات اللانكسترية قيام هذا البيت فى الملك لتجعل الإشراف على التشريع والمال ركناً من أركان الدستور الإنجليزى . لكن التقدم الدستورى الذى يرجع إلى اللانكستريين لم يستمرّ بعدهم ، لأن الحرية تعتمد على حبّ النظام ، ولأن سوء النظام هى الصفة التى اتصفت بها الحكومات الإنجليزية فى القرن الخامس عشر الميلادى ، بسبب عجزها عن تطبيق القانون على جميع طبقات الناس . ومع هذا فمما لا شك فيه أن السوابق التى أقرّتها البرلمانات اللانكسترية لم يعتورها النسيان ، بدليل أن هذه السوابق هى التى استند إليها رجال القانون أثناء الصراع الشهير بين التاج والبرلمان فى إنجلترا، فى القرن السابع عشر الميلادى .

ومهما قيل فى هذا الصدد ، فالمعروف أن إنجلترا لم تكن يوماً من الأيام بلاداً تسلس حكومتها لأحد ، إذ قال عنها رتشارد الثانى وهو فى غياهب السجن ببرج لندن : "هذه بلاد عجيبة لا تستقرّ على قرار ، وطالما نفت أو قتلت أو أفقرت الكثيرين من الملوك والحكام والعظماء ، وهى على الدوام والغة فى المنازعات والاختلافات والأحقاد" . وكذلك ألفاها هنرى الرابع (١٣٩٩ — ١٤١٣ م) ، بعد أن تبين له أن حكمها ليس أمراً سهلا ، وهو الجندى العبوس الهادئ الذى أنهكته حروبه فى بروسيا والمجر ، وأتعبته أمراضه المستعصية أواخر حياته . وكيف يرى هنرى الرابع غير ذلك، وهو قبالة مشاكل اللولارديين والاسكتلنديين، والغاليين الثائرين بزعامة أوين جلندور ، فضلا عن آل پرسى الذين أحدثوا بشمال إنجلترا من الاضطراب ما حمل هنرى على التنكيل بهم فى وقعة حربية حاسمة عند شروزبرى . ولو أن سياسياً رزيناً خلَف هنرى الرابع على عرش إنجلترا ، لوضح له أن أهم ما يدعم الأسرة الجديدة هو مسالمة الدول الأجنبية . غير أن هنرى الخامس (١٤١٣ — ١٤٢٢ م) لم يكن من الرزانة فى شىء ، بل كان كله شعلة وحماسة حربية ، على قول شكسبير فى إحدى دراماته ، وهو ما حَمِد الإنجليز لملكهم الجديد من الصفات . ولئن بدت إنجلترا وقتذاك بلاداً عسيرة الحكم والقياد ، فإنها كانت أمة متحدة على عكس الأمة الفرنسية المنقسمة على نفسها أسوأ الانقسام . ففى إنجلترا نعمت الملكية بتأييد البارونات ورجال الدين ، ولم يؤدّ الانفصال البابوى فى إنجلترا مثلما أدى إليه فى فرنسا ، برغم طمع جماعة من البارونات فى الأملاك

الكنسية ؛ ولم يوجد فى إنجلترا مشكلة من المشاكل الداخلية إلا زالت أمام الأمل فى تجديد الحرب ضدّ فرنسا . ودلّ هنرى بإعلانه أحقيته فى عرش فرنسا استناداً إلى حق"[1] جدّه إدوارد الثالث أن الأمل فى تجديد الحرب وشيك التحقيق . وفاوض هنرى كلاً من البرجنديين والأورليانيين (الأرمنياك[2]) فى وقت واحد ، فدلّ على استعداده لمعاونة أحسن الفريقين شروطاً ، ولم يتشكك لحظة واحدة فى الانتصار ، نظراً لما امتلأت به فرنسا من الانقسام .

ثم عبر هنرى إلى فرنسا ، فكان استيلاؤه على هارفلير . وانتصاره عند أجنكورت . سنة ١٤١٥م . باكورة لما استقرّ عليه عزم الملك الشاب من إعادة مجد كريسى وپواتييه ، فضلا عن التدليل على أن أبيت لانكستر من البسالة الحربية ما يجعله قمينا باعتلاء العرش الإنجليزى ؛ ولم يكن لدى الفرنسيين جيش أو أسطول لدفع الغزاة . وفى أجنكورت بذلت فئة من النبلاء الفرنسيين الأورليانيين أرواحها دون جدوى ، كما بذل إخوانهم أرواحهم من قبل فى كريسى وپواتييه ، وفى نيقوپولس الكبرى ضدّ الأتراك العثمانيين سنة ١٣٩٦ م . غير أن ما أحرزه هنرى الخامس من ظفر ، وما تمّ له بعدئذ من فتح نورمانديا ، لم يكن يغنى عنه شيئاً لولا ما استمرّ من روح الانتقام بين الأحزاب المتناحرة فى فرنسا نفسها . فالبرجنديون الذين وقفوا من حملة أجنكورت وقفة المبتعد عن القتال ، وشهدوا سقوط روان فى يد الإنجليز شهود المحايد ، انحازوا أخيرا إلى الجانب الإنجليزى بسبب جريمة سياسية خطيرة ، وهى اغتيال تانيجوى دى شاستيل صديق ولى العهد فى المملكة الفرنسية دوقَ برجنديا حنا المقدام ، عند جسر مونترو سنة ١٤١٩ م ، فاندلع بذلك لهيب الحرب الأهلية من جديد . ومن ثم غدا ولى العهد بغيضاً لدى البرجنديين وأهل پاريس ، فأقسموا على حرمانه من اعتلاء العرش . وجعلوا لهنرى الخامس ملك إنجلترا حق الوصاية والوراثة فى عرش فرنسا . بمقتضى معاهدة تروا سنة ١٤٢٠م ، على أن يتزوج من أميرة فرنسية ؛ أما برجنديا فقام على دوقيتها فيليب الطيب (The Good) ، بعد أبيه حنا المقدام .

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣١٥ . زيادة .

(٢) سرى اسم الأرمنياك على حزب الأورليانيين ، بعد أن تزوج دوق أورليان سنة ١٤١١ م من ابنة كونت أرمنياك ، وصار هذا الكونت بشخصيته زعيم الأورليانيين . زيادة .

ومن المعلوم أن معظم الفضل فى انتصار الإنجليز خلال جميع حروبهم فى فرنسا يرجع إلى حلفائهم من طوائف الفرنسيين ، والبريتانيين ، والفلمنكيين ، وغيرهم . فالجيش الشهير الذى انتصر به الأمير الأسود فى پواتييه جاء معظمه من جسقونيا ، وكان نبيل جسقونى أحد البارزين بين قادة ذلك الجيش . وعندما أحيا هنرى الخامس مشروع توحيد إنجلترا وفرنسا فى تاج مشترك ، كان العامل المسيطر على الموقف مرة أخرى صداقة حزب من الأحزاب الفرنسية البرجندية لإنجلترا ، فضلا عن صداقة الفلمنكيين ، بل اعتمد كل شيء على استمرار صداقة ذلك الحزب الفرنسى الذى تصوّر أن الإنجليز لن يكونوا أبغض إليه من الأرمنياك .

ولما وجد فيليب الطيب مصلحته فى تأييد هنرى الخامس بقيت الحاميات الإنجليزية المرابطة بشمال فرنسا كأنها طوائف تابعة لحزب البرجنديين ، لا جيوشاً أجنبية تسند ملكاً اغتصبت له الوصاية والوارثة فى عرش فرنسا . غير أن الموقف تغير تماماً حين غيّر البرجنديون رأيهم نتيجة معاهدة أراس سنة ١٤٣٥ م ، فمنذئذ لم يعد محور المسألة استطاعة إنجلترا أن تحفظ مركزها فى فرنسا ، لأنه لم يكن فى استطاعتها شيء ألبتة بغير تأييد البرجنديين ، ما عدا تقرير انسحابها الاضطرارى من الأراضى الفرنسية .

على أن هذا كله من سبق الحوادث ، والحوادث هنا تَطلّب الرجوع إلى أصل من أصول التاريخ الفرنسى . ففى كتدرائية ريمس حيث مقبرة القديس ريمى خلف المذبح الكبير ، يوجد سفط يشبه شكل يمامة ، به وعاء بللورى ، وبالوعاء زيت مقدس نزلت به يمامة من السماء لمسح كلوفس يوم تتويجه أول ملك مسيحى على الفرنجة . وبهذا الزيت المقدس الذى حفظت كميته المقدسة معجزة خارقة ، مُسحت رءوس شارلمان ولويس التاسع وغيرهما من ملوك فرنسا الذين لم يبلغوا مبلغ هذين الملكين من القداسة فى التاريخ الفرنسى ، وأقسم كل منهم يوم تتويجه أن يحكم قومه بالعدل والرحمة . هكذا أضحى الملك من ملوك فرنسا لا يُعدّ ملكاً شرعياً فى نظر الفرنسيين إذا هو لم يُحتفل به على هذا النمط بكتدرائية ريمس ، وهنرى الخامس ملك إنجلترا وصاحب مشروع توحيد إنجلترا وفرنسا فى تاج مشترك لم يُحتفل به على هذا النمط ، بل وافته منيته ، فمات مسموماً بسحر تعاويذ الأرمنياك ، على قول الجند الإنجليز . ولم يخلف هنرى الخامس وريثاً سوى ابن عمره تسعة أشهر ، وسوف يظل هذا الصغير طويلا دون أن يستطيع احتمال المراسيم اللازمة لتنصيبه

ملكاً جديداً على فرنسا . وبذا خلا الجوّ للأمير الفرنسى شارل زعيم الأرمنياك ، وهو ولى العهد ، لأنه الحادى عشر من أبناء الملك المجنون شارل السادس الذى أدركته منيته كذلك سنة ١٤٢٢ م . وكان شارل هذا شاباً عليلا حيياً تقياً ، يخشى بطش الإنجليز ، ويسهده عنف الأهواء التى ملأت بلاطه المضطرب بين بورج وپواتييه وشينون ، ولكنه على أية حال زعيم بيت ڤالوا ، وسليل آل كاپيه ملوك فرنسا الأقدمين .

وأنبأت الفتاة الفرنسية چان دارك أن شارل سوف يُتَوّج فى ريمس ، ما من ذلك بدّ ، إذ نادتها أصوات من السماء وهى تغدو بين أعمالها المنزلية ورعى أغنام أبيها بقرية دومرى باللورين ، وأوحت إليها أن تبرح قريتها إلى فرنسا لتخليص مدينة أورليان التى ضرب الإنجليز عليها الحصار ، وأن تصحب ولى العهد شارل بعدئذ إلى ريمس حتى تتوّجه ملكاً بكتدرائيتها . وحققت چان دارك هاتين الرسالتين فى عزيمة ساذجة رفيعة ، فخلصت أورليان بعد تسعة أيام على وصولها الأسوار (مايو سنة ١٤٢٩ م) ، وهى التى ظلّ الإنجليز على حصارها نيفاً وسبعة أشهر ، وألقت من روح الثقة بالنفس فى نفس ولى العهد الذى تشكك فى كل شىء حتى شرعية بنوته ، وصحبته إلى حفلة التتويج التى بها اكتملت أحقيته فى العرش الفرنسى ؛ وبها جعلته شارل السابع . غير أنه من الغباوة أن يدعى أحد بأن هذه الفتاة التى لم تجاوز الثامنة عشرة من العمر كانت خبيرة بفن الحرب ، إذ الحقيقة أن فئة من خيرة الفرنسيين العسكريين التفوا حولها ، وأن أساليبها كانت روحية بحتة ، وأن حماستها وعزيمتها الخالية من التردد خلقت بين الجند من صفات الشجاعة والتضحية والابتهاج ما أحيا الأمل فى قضية يائسة .

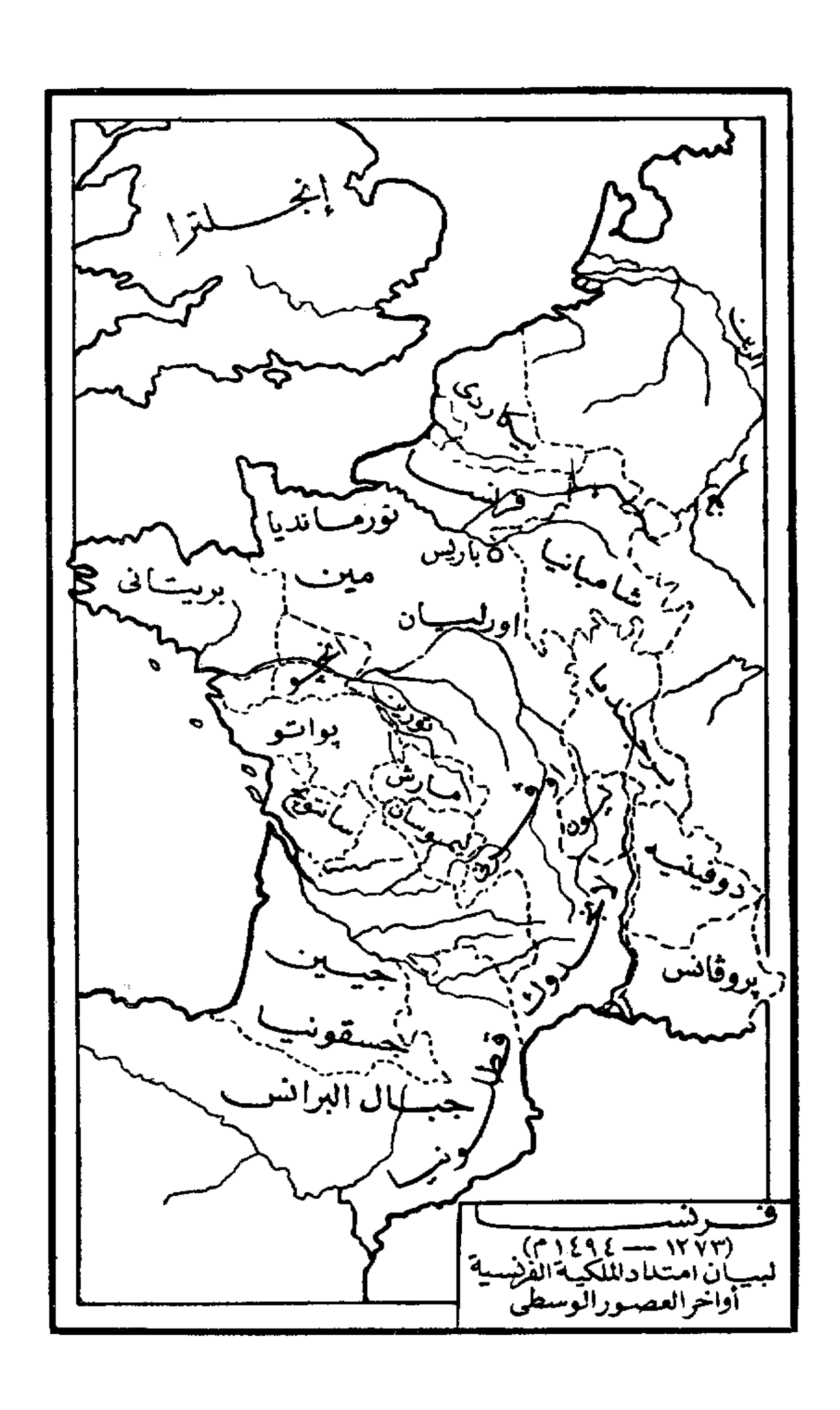
ويتجلى نجاح چان دارك فى مقدار ما أثارته فى نفوس خصومها من رعب وكراهية ، فبينما اعتبرها الأرمنياك بطلة قديسة ، قال البرجنديون والإنجليز بأنها ساحرة بالغة السحر ، وهرطيقة دون جدال . وإلا ، فكيف يفسرون ما طرأ على الحرب كلها من تغير فجائى نَجَم عنه تخليص مدينة أورليان ، وهزيمة وقعة پاتاى ، واسترجاع مدينة تروا ، وتتويج الملك شارل السابع فى ريمس ، وتهديد پاريس ، فضلا عن حلول الثقة والأمل محل الاكتئاب والقنوط فى صفوف الأرمنياك ؟ . وقال البرجنديون والإنجليز كذلك إن فتاة لا تستطيع أن تجلب النصر والفتح لفئة خاسرة ، إلا أن تكون الفتاة مخلوقة من الشيطان الرجيم . واعتقدت جامعة پاريس

البرجندية قلباً وقالباً أن چان دارك ساحرة ، وهى الجامعة التى لم تحجم عن محالفة الجزارين ونقابتهم للدفاع عن الآراء البرجندية .

كذا انتهت رسالة چان دارك بتنصيب شارل السابع ملكاً على فرنسا ، وغدا من المستطاع بدونها أن تسير أعمال التحرير القومى التى بثت فيها من روحها القوية . ثم وقعت چان دارك أسيرة فى يد أعدائها البرجنديين عند بلدة كومپيين ، فسلموها إلى قادة الحملة الإنجليزية ، واستطاع هؤلاء بفضل المساعدة الناشطة التى تلقوها من صنيعهم بطرس كوشون أسقف بوڤيه ، ومن أساتذة جامعة پاريس ، ومن آخرين من أقطاب الدينيين الفرنسيين ، أن يعدموا چان دارك الساحرة المارقة عن الدين حرقاً بالنار علناً ، وسط السوق بمدينة روان ، يوم الثامن والعشرين من مايو سنة ١٤٣١ م . ومما يوجب الالتفات أن شارل السابع الذى يدين بكل شىء لتلك الفتاة لم يحرك ساكناً للأخذ بيدها فى محنتها ، لأن شاباً من فلاحى بلدة چيڤودان ادعى أنه كذلك من أهل الكشف والحياة التبتلية الطاهرة ، ووعد شارل النصر حيثما حلّ ، فغدا من الممكن لديه أن يستغنى عن مساعدات چان دارك . وكيفما كان الأمر تراءت چان دارك لأعدائها الإنجليز (كما صورها شكسبير فى درامته هنرى السادس) ساحرة آثمة ، استخدمتها فئة من الأشرار لإثارة المتاعب لإنجلترا وجنودها الأخيار ، الأمناء الشجعان ، الذين قارعوا السيف بالسيف دائماً فى الحرب ، ولكنهم لم يتصفوا يوماً من الأيام بصفة تجعلهم قادرين على مقابلة السحر بالسحر .

أما استشهاد چان دارك فإنه خلق بين الفرنسيين روحاً من الوحدة لم تعرفها فرنسا قبلا ، فما لبثت إنجلترا أن فقدت جميع المزايا التى اعتمدت عليها أوائل مراحل الحرب فى الأراضى الفرنسية ، إذ سوّى البرجنديون مشاكلهم مع فرنسا سنة ١٤٣٥ م ، ورجعت پاريس إلى أهلها سنة ١٤٣٦ م ، واستطاع شارل السابع أن يبنى لفرنسا أداة حكومية رشيدة بفطنته التى أنضجتها السنون ، وبفضل الكفايات التى التفت حوله ، ومنها چاك كير المالى الكبير ، وچان بورو المهندس الخبير باستخدام المدفعية فى الحروب ، وهو السلاح الذى أرعب به نابليون أنحاء أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وأصدر شارل السابع قانون الجيش سنة ١٤٣٩ م ، وبمقتضاه جعل لفرنسا جيشاً نظامياً يقوده ضباط معينون من قبل الملك ، لا فرسان من الإقطاعيين . وخصّص شارل للإنفاق على الجيش ضريبة ملكية من ضرائب الدخل اسمها التاى (Taille) ،



فرنسا
(١٢٧٣ — ١٤٩٤م)
لبيان امتداد المملكة الفرنسية
أواخر العصور الوسطى

كما عمد إلى النيل من النبلاء الذين طالما أوضعوا فى الفتنة والخروج على القانون ، فحرّم عليهم فرض الضرائب فى إقطاعاتهم ، أو تكوين الجيوش دون براءة ملكية ، أو إثارة الحروب الإقطاعية الخاصة . ولم يكن عجباً أن يثور كبار النبلاء فى فرنسا سنة ١٤٤٠م ضدّ هذه الإصلاحات اللازمة لنهضة الأمة الفرنسية ،وسلامتها ؛ على أن ثورتهم هذه ،وهى المعروفة باسم البراجيرى [١] لم تلبث أن تهدمت ، إذ انبرى الجيش الملكى الفرنسى لحربهم بوحداته من الفرسان والمشاة والمدفعية التى أنشأها شارل السابع ، تحدياً لتقاليد الإقطاعية القديمة . ودلّ شارل السابع بانتصاره فى آخر معركة من معارك هذه الحرب الطويلة ، أن عصر البارود والمدفعية آن أوانه ، فسقطت روان وبايون وبوردو ، واحدة بعد أخرى ، أمام القوى النظامية التى أنجبتها فرنسا الوطنية . ولم يبق لإنجلترا من جميع ممتلكاتها سوى كاليه ، بعد إبرام الصلح بين الإنجليز والفرنسيين سنة ١٤٥٣ م .

هذا ما كان من أمر حرب المائة سنة ومراحلها ،وبعض ظواهرها . وثمة ظاهرة من بعض ظواهر هذه الحرب الطويلة ، أن روح المباراة الفردية بقيت بين المتحاربين رغم الفظائع الوحشية التى ملأت ميادين القتال . ذلك أن الحرب فى العصور الوسطى — وإن ظلت من الناحية العملية مجال النضال والنيران والأسلاب والأنهاب — ظلت فى نظر المجتمع ملهاة الملوك ، ومجمع الأبطال ، وسبيل الله فى امتحان الأمم . فنازل إدوارد الثالث فيليب الرابع ، ونازل هنرى الخامس لويس ولى العهد ، لتسوية ما بين إنجلترا وفرنسا من حرب عامة ، فى مبارزة فردية خاصة . ومعنى ذلك أن إظهار الشجاعة الشخصية ، ومراعاة تقاليد الفروسية ، كان أعظم أهمية للزمالة الحربية الأنجلو — فرنسية من فضائل الرحمة أو النظام ، لأن هذه الفضائل من القيمة الثانوية فى الحروب على أية حال . ومن الأمثلة على ذلك أن الأمير الأسود الذى لم يتردّد فى قتل أهالى ليموج ذبحاً — دون اعتبار الجنس أو السنّ — ليلة معركة بواتييه ، قام على خدمة الطعام لأسيره حنا الكريم ملك فرنسا ، واحتفى به أكبر الحفاوة .

والواقع أن الزمالة الرفيعة بين نبلاء تشابهت ألسنتهم وملاهيهم ، فضلا عن شعائرهم الدينية وقوانينهم السلوكية فى المجتمع ، خففت من حدة الحرب بين

---

(١) سرت هذه التسمية على ثورة النبلاء الفرنسيين سنة ١٤٤٠م ، لمشابهتها ثورة سابقة قام بها نبلاء بوهيميا بمدينة براج . زيادة .

الإنجليز والفرنسيين فى ساحات القتال ، باستثناء معارك البحار التى لم تعرف أمواجها شيئاً من لزوميات الفروسية فى العصور الوسطى ، أو غيرها من العصور .

ومن الأمثلة الدالة على روح تلك العصور كذلك أن أرمل إيرل آيمر يمبروك — وهى الفرنسية الأصل — أسست فى السنة التالية لمقتل زوجها بمعركة كريسى كلية فى جامعة كمبردج ، يكون للطلبة الفرنسيين فيها الأفضلية فى الدراسة والسكنى ، ولا تزال هذه الكليه تحمل إسم يمبروك حتى العصر الحاضر . ومن الأمثلة كذلك أن شارل السادس ملك فرنسا أمر بالصلاة على روح إدوارد الثالث ملك إنجلترا بكنيسة سانت شابيل ، غداة وصول الخبر إلى باريس بوفاته ، تخليداً لذكرى بطل عظيم كان فى حياته ألد أعدائه ، وأشدهم خطراً على مملكته .

غير أنه نتج عن حرب المائة عام أن وقفت عملية التبادل الحضارى التى ساعدت على تكوين إنجلترا منذ الفتح النورمانى ، كما ساعدت على تنظيم الإدارة الفرنسية عن طريق الإمبراطورية الأنجوية ، وجلبت على كل من إنجلترا وفرنسا كثيراً من الخير والشرّ والقابلية فى الناحيتين . ففى إنجلترا أخذت اللغة القومية تحلّ محلّ اللغة الفرنسية فى المؤلفات الأدبية ، والمحاكم ، والبرلمان ، والكنيسة ، وفى مراسلات الملوك ومكاتبات الطبقة المثقفة . وانتهت كذلك آثار الكتاب الإنجليز فى الآداب النورمانية الفرنسية التى كانت شركة بين فرنسا وإنجلترا ، وأخذ كلّ من الكتاب الفرنسيين والإنجليز ينهج منهجه الخاص ، فلم يلتزم الإنجليز رنين النماذج الفرنسية وجرسها اللفظى فحسب ، كما كانت عادتهم منذ الفتح النورمانى ، بل أخذوا يستمعون بفضل تشوسر — ولأول مرّة — إلى صليل دانتى والآداب الإيطالية . ثم إنه سرى بين الأمتين شعور بالمرارة والتباعد ، بدلا مما كان بينهما من التقارب القديم الذى انعكست أنواره فى الحوليات الممتعة التى كتبها المؤرخ فرواسار . وكل ذلك وغيره لأن العصر الإقطاعى بلغ مرحلة الأفول ، ولم يبق منه إلا طرف من غسق العشاء الآخرة ، يتراءى للقارىء فى المنثورة الرائعة التى ألفها سير توماس مالورى سنة ١٤٧٠م ، وعنوانها " وفاة الملك آرثر " . وفى ذلك الغسق آذنت بوادر عصر جديد مزاجه التصادم بين الدول .

غير أن حرباً من الحروب الكبرى لا يمكن أن تمرّ دون أن تخلّف وراءها نتائج ذات آثار بعيدة المدى فى الحياة الإنسانية ، لأنه ليس أقوى على تحطيم التقاليد والعادات المتأصلة فى النفوس من الحروب وما يتلوها من التضخم المفاجىء فى

مصروفات الدولة ، حين تخلق الحاجة إلى المال مشاكل متعددة ، وتفتح آفاقاً جديدة ، وتثير حقوقاً لم تكن فى الحسبان ، وتقذف برجال جدد إلى أعلى مراتب الحكم ، وتقلب أوضاع التوزيع الاقتصادى بين الطبقات .

مثال ذلك أن حاجة إدوارد الثالث إلى اقتراض المال أفسحت مجال الربح للماليين الإيطاليين فى لندن ، كما أفسحت مجال المطالبة الدستورية للبرلمان الإنجليزى فى وستمنستر ، وأن الخوف من أخطار النقل البحرى أثناء الحرب جعل الإنجليز يعمدون إلى صنع أصواف أغنامهم أقمشة فى إنجلترا ، بدل تصديرها خاماً إلى أسواق أوربا ، وبذا أسسوا الصناعة الأولى بين صناعاتهم الرأسمالية الكبيرة . وبسبب الضغط المالى الناشىء عن الحرب عمد ملوك فرنسا إلى سياسة نقدية خاسرة ، إذ خفضوا قيمة النقود بالتزييف وغيره من وسائل الغش ، فارتفعت أسعار الحاجيات والمتاجر قياساً على ذلك الخفض ، وأدى الأمر — لا فى فرنسا فقط — إلى جميع الارتباكات المالية التى يجرّها التضخم حتما فى أذياله . وحين باتت الحصيلة من الضرائب القائمة غير كافية — لسدّ حاجات الحرب — لجأ ملوك فرنسا كذلك إلى منابع جديدة للمال ، مثل " الجابل " ، وهى ضريبة احتكار الملح التى تقررت سنة ١٣٤١م ، وغدت ركناً من أركان الدخل الملكى فى فرنسا حتى زمن الثورة الفرنسية .

على أن غرب أوربا كله تأثر بتلك الحال ، فكلما ارتفعت الأسعار كلما أضحت العلاقات مريرة شاقة بين صاحب العمل والعامل ، وبين التاجر والمستهلك ، وبين المالك والفلاح . ولذا انتشرت بغرب أوربا موجة من السخط العام فى السنوات العشر الواقعة بين سنة ١٣٧٥ ، ١٣٨٥ م ، فأصاب رذاذها بلاد فلاندرز ، وشمال فرنسا ، ومدنية جنت ، وإنجلترا ، حيث قامت ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ م . والحاصل أن طبقات الحكام وأرباب السلطان غدت فى حال من الفزع الشديد بأنحاء أوربا ، لأن قوات جديدة بدأت تظهر فى المجتمع ، وترمى جمود بنيانه الطبقى بشرر ؛ ولم يعد باستطاعة الأرستقراطية الحربية أن تغفل الطبقات الدنيا ومطامحها التى أخذت تعمل منذئذ فى تشكيل المجتمع تشكيلا جديداً . ولعل أوضح دليل على هذه الحال أن الحكومة الإنجليزية حين اقترحت ضريبة الرءوس على البرلمان سنة ١٣٨١ م ، ظنت أنها تفتح بهذه الضريبة مغاليق الثروة الأهلية التى أضحت كلها فى أيدى أهل الحرف والصناعات والفلاحين .

وثمة نتائج أخرى لم تكن على بال بسبب هذه الاضطرابات الاقتصادية ،

ومنها أن التضخم النقدى خلق لبابوات أڤنيون مسألة على جانب من الصعوبة ، وهى كيف يكون الحصول على الأموال اللازمة للقيام على شئون البابوية التى أمدت أوربا بروح النظام فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وظلت فى نظر العالم المسيحى بغرب أوربا لازمة من لوازم الحياة المتحضرة . وابتدع البابا حنا الثانى والعشرون لذلك — وهو الفرنسى الذى يرجع أصله إلى قرية كاورسان — ضريبة السنة الأولى من دخل الوظائف الكنسية (Annates) ، وبذا استولى هذا المالى اللاهوتى البارع على أول إيراد سنوى من جميع التعيينات الكنسية الجديدة . وتوسلت البابوية بوسائل استغلالية أخرى ، مثل مقرّر البابوات (Papal Provisions) لمساعدة ميزانية الكرسى البابوى ، فأحدثت بذلك من السخط العميق والمعارضة من جانب الملوك — ولا سيما فى إنجلترا — ما أثر أبلغ الآثار فى الحياة الأوربية . ذلك أن شناعة الوسائل التى استخدمت فى جمع هذا المقرر المالى أساءت إلى سمعة الحكومة البابوية بغرب أوربا أكبر الإساءة ، وذلك قبل أن يطرأ على المجتمع الأوربى من التطور الفكرى ما جعل الرجل العادى يتحدّى البابوية أو يجرؤ على النيل من مركزها العام .

ثم اختتم الإنجليز قصة حرب المائة سنة فى فرنسا بحرب الوردتين فى إنجلترا نفسها ، حيث انتحر النبلاء الإقطاعيون الإنجليز انتحاراً عاماً . ذلك أن أولئك النبلاء ضاقوا بالحياة الوادعة فى ظلال السلم ، لأن الحرب فى سهول فرنسا أو بين جبال الغال احتلّت من نفوسهم المحلّ الأول ، ولأن الخروج للحرب أضحى عندهم كالخروج لصيد الغزلان والثعالب . ولذا اقتنى الكثيرون منهم فئات عسكرية جنّدوها من أتباعهم ، وألبسوها ملابس تحمل رنوك (شارات) بيوتهم الإقطاعية ، واستخدموها فى إرهاب المحلفين فى قضاياهم ، كما استخدموها فى اغتيال أعدائهم ، فضلا عن قيام هذه الجيوش بالسطو على المسافرين العابرين أو النهب فى أرض الجيران ، ممن يكونون أقل قوة ونفراً ؛ ومن شرّ هذه الفئات الباغية لم يستطع هنرى السادس أو حكومته الضعيفة إنقاذ البلاد .

وكان من هذه الفئات فئتان يتزعمهما نبيلان متنافسان على عرش إنجلترا ، فظل كلّ من الفئتين يحارب حروبه الخاصة والعامة وسط أناس هم بعيدون كل

البعد عن شئون المتحاربين ، وفى حيرة من أمرهم ، هل ينضمون إلى فئة اللانكستريين أصحاب الوردة الحمراء ، أم إلى فئة اليوركيين أصحاب الوردة البيضاء . ومن حسن حظ إنجلترا أن هدف الفئتين أصحاب الوردتين لم يخرج عن هذا المجال الضيق ، وأن حركة من الحركات الجديرة بإثارة الأمة الإنجليزية لم تكن سبباً من أسباب الحجامة السياسية المميتة التى اختارتها الأرستقراطية الإنجليزية لنفسها وقتذاك . أما الحركتان اللتان كان لهما أكبر الأثر فى رَفَه الأمة الإنجليزية منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، فلم تتأثر بما وقع بين أصحاب الوردتين من حروب ، وهاتان الحركتان هما نمو الثروة الصناعية والتجارة ، وازدياد تحرير الفلاحين من القيود الإقطاعية . ولذا انتهت حرب الوردتين وخمدت العاصفة دون أن تخسر إنجلترا أو المجتمع الإنجليزى إلا قليلا ، بل كسب كل منهما كثيراً بذهاب القوات التى طالما عرقلت سير الحكومة واحترام القانون . وكانت حرب المائة سنة مصدر مكاسب أخرى للدولة والمجتمع فى إنجلترا ، فعلى الرغم مما تخلف فى حلوق الإنجليز من مرارة بسبب ضياع ممتلكاتهم فى فرنسا ، لم تشعر الأمة الإنجليزية — ولم يوجد من الأسباب ما يجعلها تشعر — بأنها أقل شأناً من جارتها الفرنسية . وظلّ الإنجليز يعللون النفس بأن مجد أيام كريسى وأچنكورت سوف يعود ، وأن من حقهم أن يهنئوا بما ورثوه من دستور حرّ ، وأن يقرنوا بين رخاء أهل القرى فى إنجلترا وبؤس الفلاحين فى فرنسا تحت نير النبلاء الفرنسيين .

ولئن خسر الإنجليز الحرب ، فإنهم خرجوا منها أمة مرفوعة الرأس ، ظامئة إلى العمل ، يحدوها قلق منتشر فى طول البلاد وعرضها . ثم إن الإنجليز تقدموا خطوات واسعة فى فنون الحرب ، ولم يقتصر تقدمهم على ذلك فحسب ، بل دلوا على تفوق وبراعة فى نواح أجدى وأبقى مما أظهره رماتهم من ضروب الشجاعة والثبات فى كريسى وأچنكورت ، إذ أودعوا لغتهم من الخصب والليونة وحسن التمازج — بين عناصرها اللاتينية والتيوتونية — ما جعلها قادرة كل القدرة على التعبير فى سهولة واضحة عن الأفكار والأخيلة التى اتصف بها قوم شاعريون على جانب من سعة الخيال والفكاهة ، وهم أهل الشاعرين العبقريين تشوسر ولانجلاند . وللإنجليز فى ذلك العصر من روائع المعمار كنيسة ونشستر ، وكلية نيوكلدج بمدينة أكسفورد ، ومن أعمال التطريز وزخرفة المخطوطات وصياغة الحلى والنقش ما يشهد على ما اتصفوا

به من الدقة الفنية والذوق ، فضلا عما هو معروف عنهم من صفات القوة والشهامة .
ولم يتخلف الإنجليز وراء غيرهم من الأمم فى مضمار التفكير الفلسفى المتصل ، بل كان ما كتبه حنا وكلف فى غير خشية زمن الملك رتشارد الثانى ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، طليعة مبكرة لجميع ما أنتجت البروتستانتية من الأسس العقلية والعقائدية ، فى القرن السادس عشر الميلادى .

بعض المراجع لهذا الفصل

Armitage-Smith, (S.A.) : John of Gaunt 1908.

Bainville : Histoire de France.

Fortescue, (Sir John) : The Governance of England. (Ed. C. Plumme, 1885).

France, (Anatole) : Vie de Jeanne d'Arc. 1908.

Froissart : Chronicles. (Everyman's).

Oman (Sir Charles) : The Great Revolt of 1380. (London 1906).

,, ,, : A History of the Art of War in the Middle Ages, 1924

,, ,, : Warwick the Kingmaker. 1890.

Lavisse, (E) : Histoire de France. 1903.

Luchaire, (A) : Manuel des Institutions Françaises.

Shakespeare, (W) : Richard II.

,, (W) : Henry VI.

Shaw (G Bernard) : Saint Joan 1923.

Stubbs, (W : Constitutional History of England. 1880.

Valois, (N) : La France et le Grand Schisme d'Occident. 1896.

Vickers, (K H) : England in the Later Middle Ages. 1915.

الفصل الحادى والعشرون

الألمانيون والسويسريون

مصادر القوة فى أسرة هابسبرج – لويس ملك باڤاريا – نمو المدن الإيطالية – تدهور الحركة الأدبية الألمانية – تحرير السويسريين – نزول الهابسبرجيين عن سويسرا لألمانيا، وكسبهم الإمبراطورية لأنفسهم – قلة قيمة الأباطرة الهابسبرجيين بعد استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية .

* * *

شهدت أوربا مطلع عصر جديد حين تمّ انتخاب رودلف هابسبرج ملكاً على الرومانيين، أى إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية سنة ١٢٧٣م. ذلك أن مقتل آخر سليل من سلائل الأسر الإمبراطورية الكبرى سنة ١٢٦٨ م، وهو كنرادين[١] حفيد فردريك الثانى، ختم على قصة المحاولات الإمبراطورية الطويلة لتوحيد بلدين كبيرين مختلفين بعضهما عن بعض تمام الاختلاف، وهما إيطاليا وألمانيا، فى تاج واحد نافذ السلطان. ولم يخالج النبيل السويسرى المحدَث، وهو رودلف هابسبرج الذى قذفت به المقادير طفرة إلى أرفع منصب فى أوربا، أى اعتبار عاطفى أو تاريخى حين تخلى للبابوية عن إقليمى رُمانية (Romagna) والأرخونية البيزنطية فى إيطاليا، فضلا عن الحقوق الإمبراطورية فى تسكانيا والسيادة الإمبراطورية فى صقلية. الواقع أن رودلف لم يهتم أىّ اهتمام بإيطاليا، بل صرف جهود عهده الحافل بالحوادث الطوال فى انتزاع النمسا من منافسه الإمبراطورى أوتوكار ملك بوهيميا (وقعة مارشفيلد سنة ١٢٧٨ م)، وتدعيم سلطة بيت هابسبرج فى وادي الدانوب، حيث ظلّ ذلك البيت منبع الهيبة والهيلمة والهيلمان حتى الحرب العالمية الأولى.

على أن العصر الجديد لم يغير شيئاً فى ألمانيا التى بقيت على حالها من الانقسام السياسى الغالب على الحياة الألمانية، معظم العصور الوسطى. والسبب فى ذلك أن

(١) راجع ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب، ص ٢٦٠ . زيادة .

العنصر التيوتونى العفىّ الذكىّ الماضى العزيمة — وهو العنصر الذى جرف الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وخلق الدول الجرمانية الحاكمة فى إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا وروسيا[١] — أصابه شلل قلبى أفقده كل صفاته من الرجحان والإقدام فى مناكب القارة الأوربية . ووضح ذلك الشلل تمام الوضوح فى ألمانيا ذاتها ، حيث انطمست معظم التقاليد الألمانية الدافقة بالوطنية القبلية القديمة ، وهى التقاليد التى بدت كفيلة بشىء غير قليل من التجانس الخلقى القومى بين الألمانيين أوائل العصور الوسطى . ولا عجب فى ذلك كله والألمانيون أنفسهم هم الذين جلبوا على ألمانيا هذه الحال السياسية اليائسة ، وبرهان ذلك أن سكسونيا وباڤاريا انفصلتا بعضهما عن بعض تمام الانفصال بسبب ما طفح به صدر الإمبراطور فردريك بربروسا من عداء ضد قريبه هنرى الأسد ، وأن دوقيه سوابيا تمزقت واستحالت أشلاء مبعثرة مدة الحروب الداخلية التى سبقت بلوغ الإمبراطور فردريك الثانى سنّ الرشد[٢] . وحدَثَ هذا وذاك وغيره من الحوادث حتى غدت ألمانيا العصور الوسطى لا دولة بل حلبة سياسية تبارى فيها كبار النبلاء والأساقفة والمدن الإمبراطورية ، فضلا عن آلاف من صغار النبلاء الذين لم يعترفوا بسلطان عليهم سوى سلطان الإمبراطورية الخاوية على عروشها . وكانت مباريات أولئك وهؤلاء كلها لتحقيق أطماع متباينة يحدوها شىء من الاتحاد السياسى بين بعض هذه الفئات ضدّ بعضها الآخر ، مما صبغ هذه المباريات بصبغة من العظمة القومية ، كما يحدوها شىء من الضنّ بالمصالح الخاصة ، مما جعل هذه الصبغة القومية بعيدة كل البعد عن الحقيقة الكائنة . والخلاصة أن كل جهة عملت لنفسها فى ألمانيا وقتذاك ، وأمست روح الوطنية الألمانية فى خمود ، فلم يحرّكها عَرْض تاج ألمانيا على إدوارد الثالث ملك إنجلترا (والمعروف أن البرلمان الإنجليزى هو الذى منعه من قبول هذا العرض) ، وبات الشعب الألمانى قانعاً بتصريف شئونه منذ ١٣٤٦م ، ولخمسين سنة بعدها ، من مدينة پراج (براها) عاصمة بوهيميا .

أما مصدر المصادر لهذه الرزايا كلها فهو سياسة الأنانية التى لزمتها هيئة النـاخبين (College of Electors) الألمـانيين فى جميع الانتخابات

---

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١١٥ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٠٢ وما بعدها ، وكذلك ص ٢٥٥ . زيادة .

الإمبراطورية، إذ خالوا الانتخاب الإمبراطورى فرصة من ذهب لإشباع الأطماع، ونسج المؤامرات ذوات النتائج الوبيلة والذيول المؤدية للفتنة. فإذا وضح لهم أن المرشح الراغب فى المنصب الإمبراطورى رجل قليل الصولة والسلطان، ولا تربطه بالإمبراطور المتوفى رابطة بنوة أو أخوة، مما يجعل له حق المطالبة بالعرش الإمبراطورى عن طريق الإرث، وهو بالإضافة إلى ذلك ليس من أرباب الأراضى الإقطاعية الواسعة فى ألمانيا، ولكنه من أرباب اليد السخية بالوعود المغرية، إذا وضح لهم ذلك فهو فى رأى هيئة الناخبين يستأهل الانتخاب، ويستحقّ العرش الإمبراطورى كل الاستحقاق. لذا لم يكن عجباً والحال هذه أن ينخفض منصب الإمبراطور — وهو أعلى المناصب السياسية فى أوربا — انخفاضاً مستمرا، وأن يبلغ الحضيض أو يكاد من حيث الهيبة والسمعة والجلال، فى القرن الرابع عشر الميلادى.

غير أن إمبراطوراً فرداً شذّ عن هذه القواعد العامة التى ظلت معمولا بها حتى سنة ١٧٤٢ م، لمنع انتخاب أحد من ذوى النفوذ الإقطاعى الكبير فى ألمانيا للمنصب الإمبراطورى. ذلك هو لويس وتلسباخ دوق باڤاريا — أى لويس الرابع — الذى صار إمبراطوراً من سنة ١٣١٤ م إلى سنة ١٣٤٧ م، وهو الذى أحاطت بانتخابه طعون كثيرة، وامتلأ عهده بحروب داخلية مريرة، فضلا عن منازعات طويلة مع بابوات أڤنيون، وإذعانات على طول الخط لأطماع فرنسا فى بعض الأراضى الألمانية. ولم يكن الإمبراطور لويس الباڤارى خاواً من جليل الصفات والمزايا المؤهلة لمنصبه العظيم، وهذه بالإضافة إلى نفوذه الإقطاعى الشامل لأراضى الراين وكونتيات هولندا، وهينولت والتيرول، وبراندنبرج ودوقية باڤاريا. ومع هذا توفى لويس سنة ١٣٤٦ م مقطوعاً من رحمة الكنيسة، معزولا عن المنصب الإمبراطورى بأمر البابا لهيئة الناخبين. ولعدة قرون بعد لويس تولى عرش الإمبراطورية رجال ليس فيهم أحد ممن اقتصرت إقطاعاته على ألمانيا، فكان شارل الرابع وابنه ونْتزِل ملوكاً لبوهيميا قبل كل شىء، على حين كان ماكسمليان أصغر إخوة ونْتزِل ملكاً على المجر قبل أن يكون ملكاً على الرومانيين، أى إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية. أما سلسلة الأباطرة الهابسبرجيين من سنة ١٤٣٨م فصاعداً فكانوا ملوكاً على ألمانيا، وهى جزء صغير من ممتلكاتهم بالقياس إلى

ممتلكاتهم الأخرى ، إذ عملت هيئة الناخبين على إقصاء الإمبراطور إلى أطراف الإمبراطورية لتحقيق أطماع توسعية غير ألمانية ، لأنهم لم يريدوا لألمانيا ملكاً قومياً، وإنما أرادوا لها رئيسا لمجلس عام (Diet) يستمدّ منهم الوحي والإرشاد .

ومن هذا كله يتضح أن المرآة الحقيقية لتاريخ ألمانيا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ليست أعمال الحكومة الإمبراطورية المركزية التى قلما استطاعت أن تضطلع داخل ألمانيا نفسها بأبسط الواجبات الإدارية ، من تحصيل الضرائب وحفظ الأمن ، بل هى حياة المجتمع الألمانى وما فيه من غناء وتنوع ، ونمو الإمارات الإقطاعية ، ونشاط المدن الكبرى مثل نورمبرج وأوجزبرج ، وحركة التجارة فى وادى الرين ومدن العصبة الهنسية[1] ، واستعمار الفرسان التيوتونيين بروسيا ثم فتحها وإدماجها فى الإمبراطورية الألمانية . على أن ما اتصف به ذلك العصر من فقدان النظام السياسى تمشى تمشياً ملحوظاً مع ما امتلأت به ألمانيا وقتذاك من مظاهر الثروة والنمو الاقتصادى المتصل ، ومصداق هذه المظاهر ما رواه إنياس سيلڤيوس— وهو البابا پيوس الثانى — غداة زيارته ألمانيا سنة ١٤٥٨م، إذ قال إنه لم ير فى أوربا من آيات الجلال والجمال مثلما رأى فى كولونيا وكنائسها الرائعة ودورها العامة وضواحيها المونقة وقصورها البديعة ، وإن ما فى بعض بيوت أهل ستراسبورج من الشموخ والفخامة يجعلها صالحة كل الصلاحية لسكنى الملوك ، وإن ملوك اسكتلندا الذين شهد سيلڤيوس بلادهم فى إحدى رحلاته ليطيرون فرحاً لو صارت قصورهم الحقيرة شبيهة ببيوت المتوسطين من أغنياء نورمبرج ، وإن أية مدينة من المدن لا تدانى مدينة أوجزبرج فى الثراء ، وإن ڤينا تضم قصوراً وكنائس تحسدها عليها إيطاليا ذات البدائع المعمارية الخالدة .

ومما يجعل هذه الأوصاف موضع الدهشة والالتفاف أن ألمانيا طفحت بالحروب الأهلية وقتذاك ، وأن ركبان المتاجر لم يكن من المستطاع سيرها فى أمن دون حراسة مسلحة ، وأن مدن الإمبراطورية لم تحافظ على مصالحها إلا بسهر الجيوش المجندة من أبنائها . وفى مثل هذه الأحوال تنمو فى كل مدينة من المدن — وفى كل إقليم من الأقاليم — روح من الوطنية المحلية الشديدة ، وهذا هو ما حدث بألمانيا فى القرن الخامس عشر ، إذ قل اهتمام المواطن من أهل

---

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٢٥ — ٢٢٩ . زيادة .

أوجزبرج ، أوكولونيا ، أو لوبيك ، أو مجدبرج ، بشئون التوسع الإمبراطورى فى أطراف أوربا ، على حين اهتم كل الاهتمام بكل ما من شأنه أن يزيد فى عظمة مدينته ، لأنه ربما ضحى فى سبيل هذه العظمة بقريب من أو بائه ، وهو نفسه على استعداد لتكرار التضحية إذا استلزم الأمر ذلك . أما إخلاص هذا المواطن للإمبراطورية الألمانية الواسعة فكان ضيئلا ضيقاً، بالقياس إلى إخلاصه اللازب لحياته وطمأنينة مدينته التى عاش فيها .

وفى هذه المرحلة من تاريخ ألمانيا ، كما فى أشباهها من مراحل العنف الفادح والثروة الدافقة فى مختلف الأمم ، اصطبغت حضارة الألمانيين فى القرن الرابع عشر الميلادى بصبغة مادية ناشطة . ودلّل ديلنجر على ذلك — وهو أستاذ التاريخ الكنسى والقانون بجامعة ميونخ بألمانيا أوائل القرن التاسع عشر الميلادى — بقوله إن الإمبراطور لويس الرابع الباڤارى[١] حين اشتبك مع البابوية فى مسألة جدلية[٢] طويلة ، واحتاج إلى معونة فقهاء القانون وعلماء الدين لم يجد ألمانياً واحداً من هؤلاء أو أولئك بأية جامعة من الجامعات الألمانية ، بل اضطر إلى الاستعانة بالقانونيين من الإيطاليين والإنجليز للدعاية لقضيته وتوجيه نظريته ضدّ البابويين . ثم إن ألمانيا لم تنجب ذلك العصر شاعراً فى حلاوة تشوسر الإنجليزى وفكاهته ، أو فرانسوا ڤيللون الفرنسى وعاطفيته ، أو بترارك الإيطالى ولطافته ، أو أحداً ممن هو دون هؤلاء من النظامين (Minnesingers) السابقين فى عصر الفروسية والحروب الإقطاعية ، بل سطعت المادية الألمانية فى شمس الأدب بنثر ثقيل الظل والخيال والرنين ، وحمد الناس نسيانه بعد قليل . والواقع أن مستويات عالية من الحسن والإبداع لم تكن مما يظهر فى بلد محطم مزعزع الأركان ، لكن التربة الإنسانية الألمانية ظلت برغم ذلك غنية بإمكانياتها وطاقاتها ، ولم يخل زرعها البطىء المضطرب فى ذلك العصر من ثمار نادرة باهرة مبعثرة ، فمتصوّف أو مخترع هنا ، ومعمارى

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٤٣ . زيادة .

(٢) ثارت هذه المسألة حول موقف البابوية من انتخاب الإمبراطور لويس الرابع ، إذ أعلن البابا حنا الثانى والعشرون أن الإمبراطورية إقطاع من لدن الكرسى البابوى ، ولا يصح الانتخاب الإمبراطورى إلا بعد تصديق البابا . ورأى الإمبراطور لويس الرابع أن يستمد من القانونيين سنداً يدحض به هذه الدعوى ، فوجد من مارسيليو البادوى الإيطالى وغيره مساعداً كبيراً ، إذ قال مارسيليو فى مؤلفه الذى عنوانه دفاع عن السلام (Defensor Pacis) أن الدولة المدنية هى السلطة الأعلى ، وأن الثيوقراطية البابوية لا تقوم على أساس تاريخى . زيادة .

أو صانع حاذق هناك ، وهكذا . ثم إن المجتمع الألمانى لم يفقد مباهجه الخاصة ، فبقيت البيرة الألمانية على حالها من الجودة ، كما بقيت الموسيقى الشعبية على حالها من الرقة واللطف ، ومن هذه الأرض الألمانية التى خفت ثمارها فى موازين السياسة والأدب نبت الاكتشافان اللذان غيرا معالم المجتمع الإنسانى كله تمام التغير ، وهما البارود والطباعة ، على حين ظلت الإمبراطورية سائرة فى طريقها من الانحلال .

وإذا احتاج الباحث بعد ذلك كله دليلا على ضعف الإمبراطورية الألمانية وسوء سياستها ، أواخر العصور الوسطى ، فليس أقرب إليه من تاريخ السويسريين فى ذلك العصر ، وهم شعب جبلى خالص النيات . ذلك أن السويسريين لم يفكروا فى الانفصال عن الإمبراطورية يوماً من الأيام ، ولم تكن ثورتهم ضد الإمبراطور ، بل – على العكس من ذلك – رغبوا فى أن تكون تبعيتهم له مباشرة ، وأن يزيلوا الطغيان الإقطاعى الذى حجز بينهم وبينه ، وحرمهم من الوصول إلى عدالته ، ونغص عليهم حياتهم تنغيصاً غير قليل . وفى تاريخ تكوين سويسرا منذ اتحاد الولايات الثلاث سنة ١٣٠٧ م – وهى ولايات أونتر ڤالدن وشفتز [١] وأودى المشهورة بغاباتها الكثيفة – إلى معاهدة بازل التى اختتمت بها حرب التحرير السويسرى فى ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٩ ، لم ينل أحد حقوق الإمبراطور والإمبراطورية بشىء ، بل روعى النص فى وضوح على هذه الحقوق فى كل مناسبة من المناسبات . غير أن سياسة الإمبراطورية الألمانية عجزت عن أن تفيد من ولاء هذا الشعب الباسل أو تستغله لمصلحتها ، حتى إذا دل الرماة والزراقون السويسريون فى وقائع مورجارتن سنة ١٣١٥ م ، وسمباخ سنة ١٣٨٦ م ، ونيفلتز سنة ١٣٨٨ م ، على أنهم أصلب المحاربين الأوربيين عوداً فى ميادين القتال ، كما دلوا على أنهم أنداد للفرنسيين وأساتذة للبرجنديين وملكهم شارل الجسور فى الحروب ، وأنهم زبدة القوة الحربية فى الإمبراطورية الألمانية ، أهملتهم الإمبراطورية إهمالا عامداً . حدث ذلك بدلاً من أن تسند إليهم الإمبراطورية قسطاً كبيراً فى حكومة الاتحاد السويسرى ، وتجعل منهم أداة لها لا عليها ، وهو ما يبدو من أبسط القواعد السياسية عند السياسى البصير . ومعنى هذا الإهمال أن أقوى شعب بين شعوب الإمبراطورية

---

(١) اشتقت سويسرا اسمها (Shweize) عند السويسريين أنفسهم من اسم هذا الإقليم ، ويتضح الاشتقاق تماماً من مقارنة لفظ (Swisse) ، أى سويسرا فى الفرنسية ، بلفظ شفتز (Schwiz) ، وهو اسم هذا الإقليم . زيادة

سويسرا فى القرن الرابع عشر الميلادى

لم يكن ذا صوت مسموع فى تدبير شئونها ؛ وربما ظلّ السويسريون بعيدين عن مسرح التاريخ لو أنهم التزموا ما كتبه عليهم الدستور الإمبراطورى من هوان وقلة احترام . ومن الدليل على ذلك ، وهو دليل على انعدام البصيرة والحكمة فى السياسة الإمبراطورية كذلك ، أن مجلس ڤورمز الذى اجتمع سنة ١٤٩٥ م لإصلاح الدستور الإمبراطورى إصلاحاً جدياً ضرورياً بإدخال نظام عام للضرائب ، وإنشاء مجلس أعلى للإمبراطورية (Reichs Kammergerecht) لم يحسب للسويسريين أى حساب ، بل نسيهم كأنهم من سقط المتاع . وأدرك السويسريون عند ذاك أن سوف يكون عليهم أن يدفعوا من الضرائب العامة ما هو مطلوب منهم ، وأن يرضخوا للمراسيم التى يصدرها الإمبراطور من بلاطه البعيد ، لأنهم أعضاء فى اتحاد إمبراطورى ليس لهم فى حكومته نصيب . ورأى السويسريون كذلك أن التفسير الطبيعى لهذه المقترحات الجائرة الصادرة عن هيئة أجنبية ليسوا منها ، هو أن الإمبراطورية تبتغى تعيين حاكم عليهم ، كما رأوا أن تنعقد نياتهم على رفض هذا الحاكم ومقاومته بكل ما أوتوا من قوة . ثم نشبت بين الاتحاد السويسرى والعصبة السوابية الألمانية حرب سنة ١٤٩٩ م ، بسبب اعتداء العصبة على بعض مدن الاتحاد ، فانتصر السويسريون على أعدائهم انتصارات منقطعة النظير ، وهذه الحرب هى فى الواقع أول الحروب الاستقلالية السويسرية ، وإن لم تشتهر بهذا الوصف ، لأن تحرير سويسرا أضحى بعدها أمراً قريب المنال[1] .

أما سبب العداء الذى أدى إلى هذه النتيجة ، فمرجعه اختلافات اجتماعية متأصلة بين السويسريين والألمانيين . فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى أثار السويسريون فى الهابسبرجيين شيئاً من الخوف والكراهة المتصلفة التى تشبه ما يشعر به المحافظون من أهل فرنسا وإنجلترا نحو الروسيين الشيوعيين ، فى العصر الحاضر . ذلك أن حركات السويسريين لم تهدف إلى طرد عمال الاستبداد الهابسبورجى الإمبراطورى فحسب ، بل هدفت إلى هدم سلطان الإقطاعيين المحليين الذين كانوا أشد استبداداً بهم من الإمبراطوريين . ووضحت معالم هذه

---

(١) تخفى هذه العبارات القليلة بين سطورها تفصيلات كثيرة معقدة ، وهى ذات أهمية فى التاريخ الأوربى أواخر العصور الوسطى ، ولا سبيل إلى توضيحها هنا إلا بالإضافة الكثيرة إلى المتن ، أو بإحالة القارئ إلى المطولات ليتزود منها حسبما يشاء . انظر (Camb. Med. Hist. Vol. VII pp. 182-215) . زيادة .

الروح الديموقراطية الجديدة فى كثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية الدالة على نيات السويسريين نحو الإقطاعية وحقوقها ، وامتيازاتها وإعفاءاتها القديمة . وجزع الإقطاعيون الألمانيون أشد الجزع من هذه الديموقراطية التى تغيّت إزالة الأرستقراطية السويسرية من ميدانها العتيد ، وخشوا أن ينتقل الوباء إلى غير سويسرا من البلاد ، فيحاول الفلاحون الألمانيون أن ينهجوا منهج السويسريين ، بأن يكوّنوا لأنفسهم اتحادات راغبة فى الفتنة ، لينازعوا بها سادتهم الإقطاعيين امتيازاتهم الموروثة من سالف الأزمان . والخلاصة أن الإقطاعى الألمانى أحس بأن طبقته أصبحت مهددة بأولئك الرغام السويسريين ، وهم رعاة البقر وأرباب الحرف والصناعات والمتاجر ، لأنهم دلوا بما قاموا به من بيع أراضيهم أو رهنها رغبة فى الحصول على المال اللازم لتحرير بلادهم ، وبما أدوا من خدمات فى ميادين القتال ابتغاء الوصول إلى ذلك الغرض ، أن سويسرا لم تعد مكاناً آمناً للأرستقراطية الإقطاعية . وشارك الإمبراطور مكسمليان طبقة الإقطاعيين الألمانيين فى أحاسيسهم هذه ، حين أشار إلى السويسريين فى إحدى خطبه العامة بقوله : " إنهم شعب من الفلاحين المناحيس الأشرار ، لأنهم تجردوا من الفضيلة والنبالة والاعتدال ، وليس لديهم من الصفات سوى عدم الإخلاص وشدة الكراهية للأمة الألمانية " .

غير أن تحرير السويسريين — أواخر العصور الوسطى — وهو أول نصر للديموقراطية فى أرض أوربية أوسع مساحة من أية مدينة من المدن اليونانية التى تحققت لها ديموقراطيتها فى العصور القديمة ، كان مما يوجب الالتفات ، نظراً لجنوح التطوّر السياسى ، أواخر العصور الوسطى فى أوربا ، نحو الإمرات المستبدة ذات السلطان العريض . على أن السويسريين لم يسهموا بجديد فى حلبة التقدم البشرى ، ولم تصل مدنيتهم إلى ما يقرب من مدنية إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا ، بل لم يضيفوا غداة تحريرهم شيئاً إلى تراث أوربا فى العلم والثقافة ، وليس ينسب إليهم من هذا التراث حتى العصر الحاضر إلا قليل . ومع هذا ليس بين الأحداث التاريخية ما أفاد أوربا مثلما أفادت من تحرير سويسرا ، بفضل البسالة والشجاعة والعزيمة التى استعان بها السويسريون على تغيير حالهم من تبعية إلى استقلال ، ومن اختلاف إلى اتفاق عام .

ولم تقتصر خدمات السويسريين على ما تعلمته الجيوش الأوربية من جيوشهم فى الفنون الحربية فحسب ، بل تعدتها إلى خدمات أخرى خلاصتها إحياء فكرة الحرية السياسية فى أوربا ، بعد أن برهنوا على أن للحرية السياسية روحاً

تكفل توحيد شعب مهما اختلفت أجزاؤه فى اللغة والجنس والدين . ولهذا بدت سويسرا طوال عصور الإمرات المستبدة ذات السلطان العريض نموذجاً للدولة العصامية المحدثة (Parvenu State) ، تدير شئونها بنفسها دون نبلاء أو ملوك ، وتذكّر أوربا بأن فى ميدان التجارب السياسية متسعاً لغير نماذج العصور الوسطى فى تكوين الدول . وفى سويسرا هذه تمتع الناس بأوفر قسط من حرية الفكر ، وحرية المناقشة فى المسائل الشائكة ، دون خشية . وقبل أن تصبح جبال سويسرا هذه وثلوجها الجميلة موئلا لعشاق التسلق والانزلاق والمرح البرىء ، غدت المدن السويسرية موئلا للطريد السياسى والمضطهد الفكرى فى بلاده ، أى أنها قامت — على مقياس صغير — بمثل ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد ، مع العلم بأن ما قامت به سويسرا فى هذه السبيل كان له أكبر الأثر فى التطورات الدينية بأوربا فى العصور الحديثة .

ومن الواضح أن أسرة هابسبرج هى العدوّ الذى انترع السويسريون منه أوائل حريتهم وأواخرها ، فإن وحشية ألبرت الأول هابسبرج ، فضلا عن تعاسيف عماله ، هى التى خلقت عصبة الوديان الثلاثة . غير أن هذه العصبة السويسرية هى التى طأطأت كبرياء الهابسبرجيين فى وقائع مورجارتن وسنباخ ونيفلز ، وفى حروب العصبة السوابية بعد ذلك بقرن من الزمان . والواقع أن الاتحاد السويسرى وطّد نفسه فى كل مراحل تكوينه على عداوة هذه الأسرة التى وقفت منه موقفاً بالغ الإمعان فى النقمة ، وذلك لأنها أسرة نبتت من أصل سويسرى ، ونقمت على الأحرار السويسريين أن يكونوا مصدراً لفشلها .

ومن هذا يتبين لنا أنه إذا كانت أسرة هابسبرج هى التى جعلت للنمسا مكاناً فى هيئة الدول الأوربية ، فهى التى أضاعت سويسرا على الإمبراطورية الألمانية ، وتلك هى الصدمة العظمى فى تاريخ هذه الأسرة التى بلغت ممتلكاتها من السعة — وزيجاتها الإمبراطورية من النجح السياسى — مبلغ الأمثال . وفيما عدا هذه الصدمة جرَت المقادير فى أعنتها خدمة لأولئك السادة الذين تواصوا بالإلحاح والمثابرة ، واتصفوا بقسط غير قليل من البلادة ، وأحبوا التوسع الإقليمى كلما استطاعوا إليه سبيلا . وصفوة القول أن الهابسبرجيين بدوا كأنهم حالفوا الحظ فى كل شىء ، حتى إن إخفاقهم فى الحصول على التاج الإمبراطورى ، بين وفاة رودلف الهابسبورجى سنة ١٢٩١ م إلى إعلان ألبرت الخامس إمبراطوراً سنة ١٤٣٧ م ،

لم يكن سوى نعمة مستترة ، لأنهم ظلوا هذه المدة البالغة قرناً ونصف قرن بعيدين عن مشاغل الإمبراطورية ومطالب واجباتها ، واستطاعوا بذلك أن يجعلوا أنفسهم أكبر المالكين للأراضي فى ألمانيا ، حتى إذا عادت إليهم الإمبراطورية بتولية ألبرت الخامس سنة ١٤٣٧ م ، استطاعوا أن يبقوا متربعين على عرشها إلى النهاية ، أى سنة ١٩١٨ ، ما عدا السنوات الواقعة بين سنة ١٧٤٢ و ١٧٤٤ م .

وربما تراءى للباحث الحديث كأنّ ثمة صفات بشرية وجغرافية بوادى الدانوب هى التى تطلبت قيام هذا البيت الهابسبرجى ، بل كأنما تطلبت هذه الصفات البشرية والجغرافية ما اتصف به الهابسبرجيون من صلابة فى مثابرة ، ومثابرة فى قلة ذكاء . ومثال ذلك كله فردريك الثالث (١٤٤٠ — ١٤٩٣ م) — وهو أول إمبراطور زيّنت الشفاه الهابسبرجية الشهيرة شواربه ، وآخر إمبراطور توّجته البابوية فى روما — إذ قام فردريك هذا مقام أكبر دمية عديمة القيمة فى أكبر دور من أدوار التاريخ . والواقع أن فردريك لم يكن يصلح للإمبراطورية الألمانية إلا بقدر ما كان إدوارد الثانى صالحا للملكية الإنجليزية وتصريف شئونها ، والمعروف أنّ إدوارد هذا كان أضعف ملوك إنجلترا ، وأبلدهم وأقلهم قدرة على تصريف شئون الدولة ، مع العلم بأن فردريك لم يتصف بشىء من الصفات التى جعلت لشخصية إدوارد بعض الجاذبية[1] . والخلاصة أن فردريك بلغ من البساطة والغباء ما جعل فى استطاعة دبلوماسى إيطالى حاذق مثل إنياس سيلڤيوس[2] أن يطويه طوع بنانه ؛ ومع ذلك تربع هذا الغبى العنيد عرش الإمبراطورية فى ڤينا ، وأربى حكمه على خمسين عاماً ، دون أن يخلف أثراً من عقله أو إرادته فى تدبير أمور الإمبراطورية . وفى تلك الأثناء استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية ، وفتحوا بلاد المجر ، وغدت النمسا بين عشية وضحاها آخر معقل للمسيحية ضدّ الزحف العثمانى ، وأمست تنوء بعبء لا يخفى على أدنى الناس بصيرة . غير أن فردريك لم يكن من أولئك الذين تقلق بالهم الحوادث مهما بلغت خطورتها ، أو من أولئك الذين تحرك أذهانهم المشاكل مهما اشتد أمرها ، أو من أولئك الذين يثير خيالهم المستقبل وما فيه من المخاوف ، لأنه اتخذ الركود والجمود والكسل مبادىء حياته ، أى أن رجلا غبياً متحجر العقل استطاع أن يقتعد أكبر مناصب أوربا أهمية ، فى أشد مراحل التاريخ الأوربى حرجاً .

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٢٩ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٤٤ . زيادة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Aeneas Sylvius Piccolomini : De rebus et gestis Fredrici III. Ed. A.F. Koller.

Bryce, (J.) : Holy Roman Empire. 1904.

Coxe : History of the House of Austria. 1874.

Dandliker : Short History of Switzerland. Tr. Salisbury 1899.

Kirk. (J.F.) : History of Charles the Bold. 3 vols. 1863-1868.

Waugh. (W.T.) : A History of Europe, 1378-1494. Methuen. 1932.

الفصل الثانى والعشرون

الناقدون والمصلحون

آراء دانتى السياسية – إزدياد الاهتمام بالعلوم – البابوية فى أفنيون – الانقسام الدينى الكبير (١٣٧٨ – ١٤١٧ م) – الجامعات – فكرة المجامع الكنيسة – حركات التصوف فى القرن الرابع عشر الميلادى – حنا وكلف – بقاء اللولاردية بإنجلترا بعده – أثر وكلف وتعاليمه فى مملكة بوهيميا – تقدم مملكة بوهيميا على عهد ملوكها من أسرة لوكسمبرج – شارل الرابع ومرسومه الإمبراطورى – تأسيس جامعة براج وظهور حنا هس – حركة المتطهرين فى بوهيميا – الحروب الهسية الدينية (١٤١٧ – ١٤٣١ م) – اتفاقية إجلاو سنة ١٤٣٦ م – اختلاط العداوات العنصرية بالعداوات الدينية فى الحركة الهسية – المحاولات الداخلية لإصلاح الكنيسة – حركة المجامع الدينية – فشلها – انتصار البابوية على منتقديها سنة ١٤٥٠ م .

* * *

أمسى قيام مجتمع مسيحى يهيمن عليه كل من البابا والإمبراطور هيمنة مشتركة راضية أمراً بعيداً عن حيز الممكنات السياسية فى الحياة الأوربية ، منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، برغم ما ظل يختلج – فى بعض العقول – من الاعتقاد بأن مجتمعاً يقوم على هذه القاعدة هو المجتمع الذى أراده الله للناس . ذلك أن سلطان الإمبراطورية بات فى خبر كان ، على حين بات البابوات بعد رحيلهم عن روما إلى أفنيون ، وانغماسهم فى مباهجها الفرنسية ، موضع ريبة الدول الأوربية التى غدت واحدة بعد أخرى عدوّة لفرنسا وحكومتها المسيطرة على البابوية . وسرّ ذلك أن عصر الدولة الأوربية الجامعة غدا فى الأفول ، على حين أشرقت مطالع عصر جديد مزاجه الدولة القومية ، بدليل الإجابات العنيفة التى أجابت بها إنجلترا وفرنسا بعدها على البابا بونيفاس الثامن وتدخله البابوى فى شئون كل منهما[1] ،

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢٩٣ ، ٣٠٢ . زيادة .

وبدليل حروب المائة سنة التي كانت فاتحة الحروب القومية فى أوربا[١] . ومن هذه الحروب التي تعدّ فى مجموعها أكبر أحداث القرن الرابع عشر الميلادى تولّدت أعظم دولتين فى غرب أوربا ، أى إنجلترا وفرنسا اللتين وقفتا تتيه كلّ منهما بتفوقها على صاحبتها ، وتحصى عليها عيوبها ، مع الإصرار على مبادلتها عداء راسخاً بعداء مثله . وفى أثناء هذه الحروب الطويلة المريرة قامت البابوية بدور لم يخل من فائدة ، وإن خلا من نتيجة ، إذ طفقت تدعو إلى السلم وتأمر به دون جدوى ، لأنها ظلت دائماً موضع الاتهام بميلها إلى الفرنسيين .

ولم تقتصر هذه الروح الجديدة على القومية ونهوضها فحسب ، بل تعدّتها إلى مختلف الميادين الحيوية فى المجتمع الأوربى . ففى القرن الثالث عشر الميلادى كتب الشاعر دانتى فى الكوميديا الإلهية ، وفى رسالته الملكية التى ألفها باللغة اللاتينية ، ينعى على العالم الأوربى انحرافه عن سواء السبيل الذى أرادته العناية الإلهية للناس ، إذ رأى البابوية أفسدتها الثروة ، والإمبراطورية تهدمت وانخمدمت ، وإيطاليا الحبيبة إليه استعبدها الأجانب ؛ والدولة العالمية المسيحية الهادفة إلى تنظيم المجتمع البشرى على نسق عادل باتت هدفاً لسخرية الساخرين ، وطمع الطامعين . وأيقن دانتى ألا أمل فى الإصلاح إلا بعودة الإمبراطورية إلى سابق سلطانها ، وتطهير الكنيسة بإشاعة الروح الفرنسسكانية المتقشفة فى أرجائها . غير أن القاعدة التى زعم الزاعمون أن يبنوا عليها العالم المسيحى فى القرن الثالث عشر الميلادى لم تعُد فى الإمكان ، لأن طبقات من الناس جديدة ، وأفكار وقوى فتية ، أخذت تشق طريقها فى المجتمع الأوربى . فلم تظل المعرفة والثقافة احتكاراً لرجال الدين ، بل أسهم فيها غيرهم من الناس ، وبرغم بقاء المجتمع الأوربى على حاله ظهرت طبقة متوسطة على جانب من الثروة بفضل التجارة التى امتلأت بها بعض المدن ، وحلا لهذه الطبقة أن تغدو نصيرة الفنون والآداب ؛ وهذا هو عصر الشاعر الإنجليزى تشوسر ، والمؤرخ الفرنسى فرواسار ، والأديب الإيطالى بوكاشيو ، وكلهم من أبناء القرن الرابع عشر الميلادى .

والباحث كلما تقدم فى سنوات ذلك القرن الرابع عشر الميلادى يلمس تيارات لطيفة ضافية تنساب صوب محيط الكشوف العماية اللانهائية من جميع الجهات ، بما فى ذلك الجهات التى بقيت الحياة الفكرية فيها مسيّجةً بسياج دراستها اللاهوتية.

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٧٥ . زيادة .

فى أكسفورد التى لم تكن وقت ذاك مجمع الدراسات المضنية فى اللغتين اليونانية واللاتينية ، بل بدت ذات سبق مشهور فى حلبة الابتكار ، قامت جماعة الفرنسسكانيين بزعامة العبقرى الموهوب دَنْس سكوتس تتحدّى قدرة الفكر الإنسانى على التوفيق بين الإيمان والعقل ، وقالت إن الأسرار القدسية فى الديانة المسيحية لا تستبين كنهها الأفهام البشرية ، وإن الكد المضنى فى فهم اللاهوت والفلسفة رياضة روحية عقيمة ، وإنه لا طائل ولا فائدة من وراء المنطق الشكلى الذى بنى مناهجه المدرسيون ، وإنه لا جدوى ولا نتيجة لما قام به القديس توما من عمل رائع جليل للتوفيق بين النظريات الأرسططالية الواصلة حديثاً إلى غرب أوربا بفضل ابن رشد ، وبين النصوص الدينية فى الكتب المسيحية المقدسة ، وإنه لا بد للعقل البشرى أن يتغذى من طعوم أخرى . وتحول أولئك الفرنسسكانيون الأكسفورديون — وتلامذتهم الفرنسيون بجامعة باريس — عن الجدل فى دقائق اللاهوت إلى الملاحظة والتجربة فى العلوم ، فعرفوا شيئاً من السيكولوچيا وعلم البصريات ، وأثبتوا أن الأجرام السماوية والأرضية تتكوّن من مادة واحدة ، وتتحكم فيها قوانين آلية واحدة ، وخطوا بضع خطوات نحو نظرية الجاذبية . وإلى نيقولا أوريم الفرنسى — وهو تلميذ وليم أوكام الإنجليزى — يرجع الفضل فى القول بأن الأرض التى نعيش عليها كوكب من الكواكب السماوية ، وهو مؤلف أول صفحة من صفحات المجموعة العلمية الهائلة التى ألفها الاقتصاديون على مرّ القرون فى موضوع النقود .

غير أن هذا التيار النابض بحبّ الاستطلاع العلمى لم يلبث أن جمد فجأة وتبدّد ، بعد أن ظلّ ينساب انسياباً حرّاً مدى نصف قرن من الزمان ؛ إذ عاد المنطق الشكلى القديم إلى سابق سلطانه فى أكسفورد ، بسبب النضال بين الكنيسة الكاثوليكية والهرطقة اللولاردية ، وانتشار ذلك النضال فى طبقات المجتمع الإنجليزى . ولم تستطع الروح العلمية التى خلقها روچر بيكون ووليم أوكام أن تظهر مرة أخرى فى مروج الكليات الأكسفوردية وأبهائها إلا منتصف القرن السابع عشر الميلادى — أى زمن بويل ، ومايوه ، ووليكنز ، ورن ، وهوك ، وپتى وإيڤلين ، حين توطدت مكانة العلوم الإنجليزية ودعامتها بإنشاء الجمعية الملكية فى لندن ، سنة ١٦٤٥ م .

هذا ما كان من أمر الحال العلمية الجديدة ونهضتها ثم كبوتها فى القرن

الرابع عشر الميلادى ، أما الحال الدينية فمن المبالغة أن يقال بأن البابوات الفرنسيين الذين تولوا البابوية فى أفنيون [١] ، من سنة ١٣٠٩ إلى ١٣٧٨م ، لم يخلصوا لواجبات الكرسى البابوى ، إذ المعروف أنهم عملوا — على الأقل — من أجل السلام بين فرنسا وإنجلترا ، وأنهم نادوا بضرورة إنفاذ حملات صليبية للشرق ، دون أن يجدوا مجيباً لندائهم . ثم إنه إذا جعلت مطالبهم المالية الباهظة هيئة الحكومة البابوية بغيضة إلى الناس فى مختلف البلاد ، فما لا ريب فيه أن أولئك البابوات خلفوا تلك الهيئة أحسن نظاماً وأمضى نفوذاً من ذى قبل . يضاف إلى ذلك أن أحد أولئك البابوات كان ثقة فى اللاهوت ، وأن اثنين منهم كانا من أولى العزم والقسوة على النفس ، وأن رابعهم أعد حملة بحرية لمحاربة القراصنة ، من الأتراك العثمانيين الذين يعملون فى البحر الأبيض المتوسط . ولهذا الرابع يرجع الفضل فى إعلان بابوى ينطوى على سماحة نادرة وشجاعة ، لحماية اليهود مما عساه ينزل بهم من الأذى ، بسبب اتهامهم وقت ذاك بتدبير كارثة الوباء الأسود [٢] .

غير أنه من العبث أن ينكر أحد أن البابوية انخفضت كثيراً فى أعين الناس نتيجة أسرها فى أفنيون ، فى أنحاء إيطاليا كره الإيطاليون أولئك البابوات الفرنسيين لأنهم أولا فرنسيون ، وبفضلهم صارت هيئة الكرادلة التى تهيمن على الانتخاب البابوى فرنسية ، وثانياً لأنهم هجروا روما إلى مدينة قريبة من ممتلكات التاج الفرنسى ، ولو أنها ليست رسمياً من ممتلكات فرنسا ، فلا مناص لها من التعرض لنفوذ الملكية الفرنسية . ثم إن الفخامة والأبهة والزينة التى ملأت البلاط البابوى ، واجتذبت إليه طوائف الفنانين والعلماء الإيطاليين والفرنسيين ، فضلا عن المحسوبية الشائنة التى أغدقت المناصب الكبرى فى الكنيسة على أقارب البابوات وأبناء أقاربهم ، وفضلا عن الأموال الكثيرة التى ابتزها الجباة البابويون للإنفاق على هذه المظاهر وعلى المشاريع السياسية البابوية فى إيطاليا ، — كل ذلك أسخط أصحاب العقول المتزنة فى جميع أنحاء أوربا ، وجعل بعض النقاد الذين لم يعرفوا بشىء من التصون

---

(١) البابوات الذين تولوا الكرسى البابوى فى أفنيون هم كلمنت الخامس ، ثم حنا الحادى والعشرين ، ويقال له الثانى والعشرين كذلك ، ثم بندكت الثانى عشر ، ثم كلمنت السادس ، ثم أنوسنت السادس ، ثم إربان الخامس ، ثم جريجورى الحادى عشر . زيادة .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٣٢٠ . زيادة .

أو التقوى ينعتون رجال الدين بأنهم صيادون للذهب والفضة ، وأنهم لا عمل لهم سوى ارتياد شوارع أفنيون ، حيث غدت الإنعامات الكنسية تشرى وتباع ، وأضحت كل وظيفة من الوظائف الدينية ذات ثمن معلوم ، على ما قيل واشتهر بين المعاصرين .

على أنه إذا كان السبب المبرر لهجرة البابوية من روما إلى أفنيون هو الصخب الداخلى وقلة الأمن فى روما ، فالبابوات أنفسهم لم يلبثوا أن فكروا فى العودة إلى مدينتهم الخالدة ، إذ أدركوا أن أفنيون نفسها ليست مدينة مأمونة ، بل مدينة معرضة أشد تعرض لفساد العصابات المسلحة والمناسر الخطرة ، من الجند المرتزقة الجائعين الذين انتشروا فى الأراضى الفرنسية بعد صلح برتنى سنة ١٣٦٠ م ، ينهبون ويأكلون ويشربون من كدّ الشعب الفرنسى المكدود . ومما عجّل فى عودة البابوات إلى روما أن الأقاليم البابوية فى إيطاليا آضت خاضعة للسلطان البابوى ، بعد حروب تأديبية غير قليلة ، وأن هذه الأقاليم باتت تنتظر حاكمها الطبيعى انتظاراً قلقاً يشوبه خطر انقلابها إلى تمرّدها القديم ، أى إذا لم يقدر للبابا أن يصل إلى روما قبل فوات الأوان . ولهذا كله قرر البابا جريجورى الحادى عشر عودة البابوية إلى روما سنة ١٣٧٧ م ، وهو البابا الفرنسى الذى رفع ثمانية عشر من رجال الدين الفرنسيين إلى مرتبة الكردينالية . وبعودة البابو ة إلى روما تحققت الخطوة التى دعت إليها القديسة كاترين السينية أوسع دعاية ، وبتحقيقها انشرحت صدور الأتقياء الوطنيين من الإيطاليين ؛ ثم توفى البابا جريجورى الحادى عشر فى السنة التالية من انتقاله إلى روما .

أعقب هذه الوفاة حدث جلل فى تاريخ البابوية ، وهو ما يعرف باسم الانقسام الدينى الكبير (The Great Schism) الذى استمر من سنة ١٣٧٨ — ١٤١٧ م ، وقسم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية إلى معسكرين متنازعين ، وجعل وحدة الغرب اللاتينى على شفا جرف من الانهيار . ولم يكن الدين هو الباعث الحقيقى على هذا الانقسام ، بل أراد الإيطاليون أن يكون البابا بإيطاليا ، من أجل ما للبابوية من ثروة ونفوذ وهيبة ، على حين أراد الفرنسيون أن يظل البابا صنيعة لهم يخدم مآربهم ومصالحهم الخاصة ، على غرار ما تمّ مدة ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، سواء عليهم استقرت البابوية فى روما أو أفنيون . هذا هو منشأ الانقسام الدينى الكبير ؛ وأما مؤهلات الرجلين المتنافسين على الكرسى البابوى — وهما إربان السادس وكلمنت

السابع – فلم تكن موضع بحث هادى أومفاضلة مجرّدة عن الهوى ، بل حسبُ إربان السادس أن يكون المرشح الإيطالى ، وأن يكون كلمنت السابع المرشح الفرنسى . فإن النعرات القومية والمحالفات السياسية هى التى قرّرت أى الرجلين المتنافسين خليقاً بأن يكون خليفة المسيح . ولذا عضدت فرنسا واسكتلندة – ثم قشتالة وأرجونة – بابوية كلمنت السابع ، على حين نصرت إنجلترا وبوهيميا والمجر – ثم البرتغال – بابوية إربان . ومما يدلّ على غلبة الطابع السياسى فى ذلك الانقسام أن كلمنت سعى لإغراء الفرنسيين بفتح إيطاليا ، وأنه زوّج دوق أورليان – أخى شارل السادس ملك فرنسا – من ڤالنتينا ڤسكونتى ابنة دوق ميلان[1] ، وجعل چوانا ملكة نابولى تتخذ لويس الأنچوى وريثاً لعرشها ؛ وكل ذلك رغبة من كلمنت فى تحقيق فتح إيطاليا على يد الفرنسيين . ومن هاتين الصفقتين الدبلوماسيتين ثبتت حقوق فرنسا فى نابولى وميلان ، وهى الحقوق التى دعت شارل الثامن ملك فرنسا إلى غزو إيطاليا بعد قرن ونيف من الزمان .

وبينما تعانى الكنيسة أزمة الانقسام الدينى الكبير شهدت أوربا المسيحية لأول مرة فى تاريخها ما للرأى العلمى المحايد من أثر فى الشئون العامة ، إذ هال جامعة پاريس سوء الحال التى هدّدت نظام الكنيسة ونالت من شرفها . وتزعم التنديد بتلك الحال اثنان من رجال الدين بجامعة پاريس ، وهما حنا چرسون وبطرس دايى (John Gerson & Pierre D'Ailly) . فقال چرسون فى خطبة دينية بحضرة الملك شارل السادس (فى يونيه ١٣٩١ م) إنه إذا لم يوضع حدّ للانقسام الدينى باستقالة كل من البابوين المتنافسين فى آن واحد ، أو بالتحكيم بينهما ، فليس هناك من وسيلة واضحة لفضّ هذا النزاع سوى دعوة مجمع كنسى عام . ولم تكد فكرة المجمع الكنسى العام تنتقل إلى خارج فرنسا حتى اجتذبت إليها أنصاراً كثيرين ، على حين أخفقت المحاولات المتتابعة للتوفيق بين البابوين المتنافسين . ثم أخذت هذه الفكرة فى النمو والانتشار ، وأضحت فى نظر دعاتها الأولين أمراً أعظم كثيراً من فكرة علاج الانقسام الدينى ، إذ رأوا فى المجمع الكنسى العام أداة من العناية الإلهية لإصلاح الكنيسة البابوية من رأسها إلى أطرافها ، ووسيلة لإخضاع البابا لهيئة معينة ذ ت سلطات دستورية .

الواقع أن العصر بدا مهيأ للأخذ بأسباب الإصلاح فى هذه النواحى ، فإن

---

(١) راجع ما سبق هنا ، ص ٣١٧ . زيادة .

أوربا امتلأت ــ منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ــ بأسئلة حائرة وجدل غير قليل حول موضوع التنظيم الحقيقى للكنيسة البابوية . هل أضحت الكنيسة البابوية بابل الكبرى [١] ، وأضحى البابا المسيخ الدجال ؟ كما قالت فئة الفراتيسلى [٢] . هل تنزّه الرسل جميعاً عن الأمتعة الدنيوية من مال وعقار وبنين ؟ كما قرّر الإخوان الفرنسسكانيون [٣] فى مناقشاتهم ببلدة بيروچيا سنة ١٣٣١ م . وهل يجب على خليفة المسيح فى الأرض ــ أى البابا ــ أن يترسم خطا الرسل والقديسين ؟ . وكيف لايجب ذلك والمعروف أن الكرسى البابوى شَرُف سنة ١٢٩٤ م بواحد من هذا الطراز ، وهو البابا سلستين الخامس الذى عاش طول حياته ناسكاً فقيراً ، وظلّ على حاله هذه فى الكرسى البابوى مدة قصيرة حتّى أقصاه عنه بونيفاس الثامن، فى السنة نفسها . وبونيفاس الثامن هذا هو الذى توافق أنصار فكرة المجمع الكنسى العام على اعتبار سياسته الدنيوية الطامحة أصل تدهور أحوال البابوية ، فى أڤنيون . وقال بعض المثاليين من أنصار إبقاء البابوية فى إيطاليا ، إن بابوية سلستين الخامس وما انطوت عليه من معانى النسك والفقر والبساطة هى الخير كله ، كما قالوا إن أڤنيون هى الشرّ كله . ولم يدرك هؤلاء الأتقياء أن للبابوية وغيرها من الهيئات العالمية قبما تحتاج إلى كثير من التقدير والتدبير ، فضلا عن كثير من المال والحكمة ، لإدارة شئونها بين الناس .

على أن الكنيسة الكاثوليكية أوسعت صدرها دائماً لأولئك المثاليين وأشباههم من المتصوفة ، وكفى دليلا على سعة صدرها أن بعض المتصوفة فى القرن الرابع عشر الميلادى أمثال إكارت وحنا تاولر آمنوا بما آمنت به الكنيسة ، وبقوا فى حظيرتها ،

---

(١) يشير المؤلف إلى عاصمة البابليين قرب مدينة الحلة الحالية بالعراق ، والمراد من العبارة الاستفهامية أن البابوية أصبحت تعدّ نفسها باب الله ، وهو معنى لفظ بابل فى اللغتين البابلية واليونانية ، وأن المسيحية المبنية على القناعة والتقشف لاينبغى أن تصبح فى بذخ وعظمة وأبهة شبيهة بأيام البابليين. زيادة.

(٢) اسم هذه الفئة (Fraticelli) ، وكذلك (Frérots) ، ومعناهما واحد ، أى الإخوان الصغار ، إشارة إلى الإمعان فى التقشف والفقر . وقال أولئك الإخوان إنهم الأتباع الحقيقيون للقديس فرنسيس وطريقته ، ورفضوا الاعتراف بسلطة الكنيسة عليهم ، وجعلوا شعارهم الفقر والترحل، بحيث لا يكون لأحد منهم سكناً مستقراً ، كما نعوا على البابوية بذخها ودنيويتها وغطرستها التى ليست من الدين فى شىء . ولذا تعهدتهم الكنيسة بالاضطهاد معظم الأحيان ، وأعدمت بعض زعمائهم فى القرن الخامس عشر الميلادى . زيادة .

(٣) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٦ . زيادة .

مع إنكارهم أساليبها ومناهجها . ومع هذا انتشرت خارج الكنيسة هرطقات عديدة مزاجها التطهر والتصوف ، مثل الكاثرية[١] فى جزيرة قورسقة وبلاد بوسنة ، ومثل الڤودوا[٢] فى وديان جبال الألب وتلال نابولى وصقلية ، ومثل البجهارد[٣] فى ألمانيا. وهذه الهرطقات ، وإن اتخذت أشكالا وألواناً مختلفة ، فإنها اتفقت فى تحديها لمظاهر الأبهة والدنيوية والجشع فى الكرسى البابوى وقُدّاساته وشعائره ومراسيمه ، فضلا عن تحديها لما يدّعيه القسس لأنفسهم من سلطة خاصة مستمدة من الله .

وأكثر أهمية من هذه الحركات الأمية المبعثرة ، كانت الحركة اللولاردية الإنجليزية التى قامت للاحتجاج على جميع ما أنبتته الكنيسة البابوية فى العصور الوسطى من تعاليم وتقاليد . ويرجع الفضل الأول فى هذه الحركة إلى عالم عظيم من علماء اللاهوت ، كما يرجع الفضل فى تعضيدها إبان مراحلها التكوينية إلى جامعة أكسفورد ، وهى وقت ذاك أعظم الجامعات الأوربية نفوذاً وحرية فكرية . ومع ما اتسمت به هذه الحركة من سمات جدية جديرة بأهل العــلم والمعرفة ، فإنها حملت فى طياتها رسالة إلى عامة القلوب ، وأملا ماما فى بعث مجتمع جديد . أما العالم العظيم الذى يرجع إليه الفضل الأول فى هذه الحركة الهادفة إلى إصلاح الكنيسة الإنجليزية ، وهو حنا وكلف ، فمعلوماتنا قليلة عن حياته ، وخلاصتها أنه ولد فى يوركشير سنة ١٣٢٤ م ، وأنه تولى أبرشية بلدة لتروورث بمقاطعة لستشير ، وقام بالتدريس فى أكسفورد ، حيث تعين رئيساً لكلية باليول ؛ ثم طردته جامعة أكسفورد سنة ١٣٨٢ م ، فرجع إلى أبرشيته ببلدته لتروورث ، وعاش عيشة هادئة

---

(١) تقدمت الإشارة إلى هذه الطائفة الكبيرة — وهى المعروفة باسم الطائفة الألبيجنسية كذلك — بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٢ ، حاشية ! . زيادة .

(٢) الاسم الأصلى لهذه الطائفة هو الوالدنسية (Waldenses) ، نسبة إلى مؤسسها بطرس والديس التاجر الفرنسى بمدينة ليون سنة ١١٧٦ م ؛ واللفظ الوارد هنا — أى فوداو — تحوير فرنسى لهذا الاسم الأصلى . ودعت طائفة الفودوا إلى التقشف والفقر ، واتخذت بعض مبادىء الكاثرية شعارا لها ، وانتشرت فى بروفانس بفرنسا ، وفى شمال إسبانيا ، فضلا عن البلاد المذكورة هنا بالمتن ، ونال أتباعها اضطهاد البابوية لعدة قرون . زيادة .

(٣) نشأت هذه الطائفة (Beghards) أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بالأراضى المنخفضة ، وربما اشتقت تسميتها من طائفة الراهبات البجينيات (Beguines) التى لاتزال أجيالها تقوم بأعمال المواساة والعناية بمدينة جنت ببلجيكا ، حتى العصر الحاضر . غير أن طائفة البجهارد الأصلية ساءت بدخول كثير من المتسولين المحترفين فى زمرتها ، ولقيت من اضطهاد البابوية ومحاكم التفتيش ما أدى إلى زوالها أواخر القرن الرابع عشر الميلادى . زيادة .

حتى وفاته سنة ١٣٨٤ م . على أن موضع الأهمية هنا هو أن وكلف استطاع – فى عدة السنوات التى امتدت إليها حياته العامرة – أن يقف من الكنيسة الكاثوليكية ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، جميع مواقف الإصلاح البروتستانتى الذى شمل غرب أوربا فى القرن السادس عشر الميلادى .

ذلك أن وكلف كان من أولئك المصلحين العميقين (الراديكاليين) ذوى المقام الخلقى الرفيع ، والعزيمة القوية ، ولذا فهو من الذين يدينون بكل شىء فى حياتهم للمتانة الخلقية ، لا لأية صفة أخرى من الصفات ، مثل الدماثة وسعة الصدر وطيبة القلب . وتأمل وكلف أنواع الفضائح الكنسية ، فأثاره عقله اليوركشيرى الخالص إلى إصدار سلسلة طويلة من مقالات ومواعظ تكاد تتميز من السخط والكآبة ، والحسرة على الدين . وانطبعت هذه المقالات والمواعظ التى أصدرها وكلف أحياناً فى اللاتينية ، وأحياناً أخرى فى الإنجليزية ، بطابع من النزاهة والشجاعة ، برغم ما غلب عليها من المبالغة ؛ وهذه المقالات والمواعظ هى التى جعلته طليعة من طلائع حرية الفكر وصراحة القول فى إنجلترا . أما مكانته العلمية الفحلة فى أكفسورد ، وهى المكانة التى أحرزها بسيطرته التامة فى فن الجدل وخباياه التى شغف بها العلماء وقت ذاك ، فإنها جعلت له هيبة عجز الرهبان وطوائف الإخوان الفرنسسكانيين وغيرهم عن النيل منها ، إلا بعد مساعدة الملكية الإنجليزية ورئاسة الأساقفة فى كانتبرى . على أن رسالة وكلف لم تستهدف بعضها أو كلها طبقة المفكرين فحسب ، بل استهدفت سائر طبقات المجتمع ، إذ نادى وكلف ملء حماسته وبيانه أن تكون المواعظ الدينية والكتب المقدسة فى اللغة الإنجليزية لا اللاتينية ، وأن تستمد المواعظ من الكتب المقدسة لا غيرها من المصادر ، وبذا تصبح الكتب المقدسة فى متناول الجميع . وقامت طائفة من الوعاظ الفقراء الذين تعلموا على وكلف بنشر هذه الرسالة فى أنحاء إنجلترا ، كما قامت حلقة من مريديه بترجمة الكتب المقدسة إلى الإنجليزية ؛ وهى الترجمة التى تحمل اسمه بين الترجمات الأخرى حتى العصر الحاضر .

وفى سبيل تحقيق هذه الرسالة دخل وكلف ميدان السياسة العامة ، فحالف دوق حنا [١]

---

(١) ظل دوق حنا جونت حليف وكلف حتى سنة ١٣٨٠ م ، أى حتى أنكر وكلف معجزة التحول الكلى فى العشاء الربانى ، ومنذئذ انقلب بيت لانكستر وملوك إنجلترا من هذا البيت أعداء للحركة الوكلفية . (انظر ما يلى ص ٣٦٥) . زيادة .

جونت عميد اللانكستريين العاملين وقت ذاك على إلغاء أوقاف الكنيسة وتوزيع أطيانها الواسعة على النبلاء والأعيان . وكان البرلمانيون يبرّرون هذه الخطة العنيفة بأسباب مقبولة ، وهى أن إنجلترا تئن من ثقل الضرائب المطلوبة لمواصلة حرب فاشلة فى فرنسا ، وأن الكنيسة المعفاة من هذه الضرائب تملك ثلث الأراضى فى البلاد ، وأن أسمن الوظائف الكنسية فى إنجلترا ، وهى الوظائف المربوطة عليها هذه الأراضى خاضع لنظام التعينيات البابوية الممقوت (Papal Provisions) ؛ وأن البابوات والملوك ملأوا هذه الوظائف بإيطاليين غير مقيمين فى إنجلترا ، دون اعتبار للقانون . يضاف إلى ذلك أن الضرائب البابوبة استنزفت كثيراً من ثروة الكنيسة إلى خارج البلاد ، وأن ماجبته الدولة من الجزء الباقى بعد ذلك جدّ قليل . ولذا فإن إلغاء أوقاف الكنيسة ليس خطوة طيبة لتطهير رجال الدين فحسب ، بل هو وسيلة للتخفيف كذلك عن كواهل المدنيين ، وسبيل لتقوية الموارد المالية فى الدولة . ووقف وكلف من هذه الحجج المستندة إلى المصلحة القومية العامة موقف التأييد التام ، وهو موقف إنجليزى وطنى مؤمن بوجوب هيمنة الدولة على الكنيسة (Erastianism) . وعارض وكلف بذلك النظرية العالمية التى قامت عليها الكنيسة فى العصور الوسطى ، وقال فى مقالته التى عنوانها حقوق الملكية (De Officio Regis) إن للملك سلطة الإشراف والتنظيم فى الكنيسة ، وهو قول جدير بإشباع آراء الملك هنرى الثامن نفسه بصدد الكنيسة الإنجليزية ، فى القرن السادس عشر الميلادى . وإذ شرع وكلف فى نقد الكنيسة ونظمها التى خبرها وعرفها زمن إدوارد الثالث ، فإنه لم يستطع إلا أن يسير قدماً مع هذا التيار ، حتى لم يبق جزء من البناء الكنسى دون انتقاد وملامة . ذلك أن الأساقفة كانوا منغمسين فى شئون الدولة انغماساً صرفهم عن الاهتمام بواجباتهم الدينية ، حتى قال عنهم وكلف إنهم أتباع قياصرة ، لا أتباع الله . ثم إن الحياة الرهبانية غدت عديمة الفائدة ، بله بغيضة ممقوتة ، إذ أساء الإخوان وطوائفهم إلى سمعة الكنيسة كلها ، ببيعهم صكوك الغفران لإزالة الخطايا والذنوب ، فضلا عن أساليبهم الوعظية الرخيصة الجوفاء . وتدرج وكلف من لوم الأساقفة على انشغالهم بالأمور الدنيوية إلى القدح فى النظام الأسقفى كله ، وحبّذ نظاماً كنسياً لا يختلف إلا قليلا عن نظام الكنيسة المشيخية (presbyterian) الاسكتلندية فيما بعد . ثم نادى وكلف بوجوب الرجوع فى جميع الأحوال إلى تعاليم الكتب المقدسة ، لا إلى تعاليم

الكنيسة ، ولم يلبث أن فنّد سرّ العقيدة الكاثوليكية تفنيداً عنيفا فى رسالته التى عنوانها " أصول السلطــات المدنية " (De Civili Dominio) . فى هذه الرسالة دلل وكلف بطريقة منطقية مبنية على معان إقطاعية أن السلطة أو الحكومة (dominium) تستمدّ من الله ، أو بعبارةً أوضح أن الحق فى مباشرة أى نوع من السلطان يقوم على الفضيلة ، وأن هذا الحق ينعدم حيثما انعدمت الفضيلة . ومن هذه المقدمات ينتج أنه لا يصحّ لقسّ غير فاضل أن يقيم شعيرة من الشعائر القدسية ، كما ينتج أن البابا يظل جديراً بسلطته ما دلّت حركاته وسكناته على اعترافه برحمانية الله ، وأن القول بأن لهيئة رجال الدين مقامَ صِدق مستقلّ عن سائر المجتمع ليس من الحقيقة فى شىء . وما زال وكلف يكتبً فى هذه المسائل حتى انتهى — سنة ١٣٨٠ م — إلى القول بأن التحول المادى فى العشاء الربانى عقيدة غير سليمة ، وبأن القس فى صلاته ليس ساحراً حتى يستطيع تحويل خبزة القربان إلى جزء من جسد المسيح .

ومن ذلك كله يتضح أن الكنيسة المسيحية التى شيّدها وكلف لنفسه رويداً رويداً ، فى موعظاته ومقالاته ورسالاته ، اختلفت تمام الاختلاف عن دنيا المعتقدات والعادات التى ولد فيها وشبّ . غير أن هذه الكنيسة لم تكن پروتستانتية بكل ما فى هذا اللفظ من معنى ، لأن وكلف ظل مؤمناً بوجود المطهر حيث يتطهر المؤمنون من آثام الحياة الدنيا قبل الانتقال إلى الجنة ، ولأنه لم ينكر أن لمريم العذراء مكانة خاصة من القداسة بين البشر . لكن إنكار وكلف البابوية ومطرانياتها وأسقفياتها ، ومناداته بالرجوع دائماً إلى الكتب المقدسة ، ثم إنكاره معجزة التحول المادى فى قداس العشاء الربانى ، مع إنكاره لما يدعيه رجال الدين لأنفسهم من قوة روحانية خاصة ، فضلا عن استخفافه المنطقى الذى دحض به العادات الدينية المتأصلة ، وهى الاعترافات الإجبارية ، والصلوات على أرواح الأموات تكفيراً عن ذنوبهم ، والحجيج إلى الأماكن المقدسة ، والتقديس للمخلفات الأثرية الدينية — كل ذلك جعل عقيدة وكلف شبيهة كل الشبه بعقيدة البيورتانيين (السلفيين) بإنجلترا ، فى القرن السابع عشر الميلادى . وإذا عرفنا أن هذه الراديكالية الدينية لقيت هوى فى نفوس أهل الأقاليم الجنوبية من إنجلترا ، وهم الأكثر حضارة وتمدينا بالقياس إلى غيرهم من الإنجليز فى العصور الوسطى ، وإذا عرفنا كذلك أن روحاً عنيدة من الكراهية لرجال الدين استولت على الإنجليز منذ الفتح

النورمانى ، برغم بقاء الكاثوليكية على حالها من بسطة السلطان ، فلا نستطيع إلا أن ندرك تمام الإدراك كيف كانت تعاليم وكلف موائمة للروح القومية الإنجليزية .

بهذا يمكن تعليل بقاء الحركة اللولاردية بعد الحكم على مؤسسها بالهرطقة ، وانزوائه بقرية من قرى بطن الريف الإنجليزى حتى وفاته ، فضلا عن بقائها رغم الاضطهاد الذى لحقها زمناً غير قصير . غير أن اللولاردية فقدت مكانتها فى أكسفورد منذ سنة ١٣٨٢ م ، حين استعدى رئيس أساقفة كانتبرى الملك رتشارد الثانى على حريات الجامعة ، وطرد اللولارديين من كلياتها شر طردة ، وعادت أكسفورد إلى الكثلكة عودة لم يكن منها رجعة ما دامت الكنيسة[1] قابضة على المدينة الجامعية بيد من حديد . ومن ثم ذهبت عن اللولادرية صبغتها العلمية الجامعية التى اصطبغت بها منذ أيامها الأولى ، وغدت حركة دينية للأميين من الرجال والنساء ، لا يجتمعون إلا سراً لتلاوة الكتب المقدسة والتأمل فيها ، أو للاستماع إلى موعظة واعظ عابر ؛ وظلت اللولاردية على حالها هذه حتى امتزجت بموجة الإصلاح البروتستانتى ، فى القرن السادس عشر الميلادى .

والواقع أن اللولاردية بقيت حية فى لندن وإيست آنجيليا بشرق إنجلترا ، وفى غابات تشلترن بين الفحامين الذين يعملون فى صنع الفحم النباتى من تلك الغـــابات ، وفى كثير من البلاد والقرى بغرب إنجلترا . ذلك أن اللولارديين الإنجليز مضوا فى سبيلهم من الدين دون أن يخشوا خاشية ، فحفظوا تقاليد عقيدتهم المسيحية الخالصة جيلا بعد جيل . ولم ينس اللولارديون ذكرى شهدائهم ، وهذا برغم ندرة المخطوطات المنسوخة من الكتب المقدسة والمقالات والموعظات الوكلفية ، لانعدام المطابع وقتذاك ، وبرغم بطء الاستنساخ ، وبرغم أن امتلاك هذه المخطوطات كان مؤدياً بعض الأحيان للموت حرقاً بالنار . وبالقياس إلى هذه الفئات اللولاردية القليلة التى لم يهد الاضطهاد الدينى من حماستها الشديدة ، وقفت فئات كثيرة من أهل إنجلترا موقف الراضى بالعافية ، إذ أدت بهم طباعهم اللينة السهلة إلى مداراة الكنيسة ، دون أن يكونوا مخلصين لها تمام الإخلاص . على أن هذه الفئات اللولاردية تحركت حركتها بعد حين طويل ، شأنها فى ذلك شأن الأمة

---

[1] (١) لهذه الصفحة من التاريخ الإنجليزى أخبار طوال ، ولمعرفة بعض تفاصيلها انظر (Trevelyan: History of England, p. 250) ، وكذلك (Camb. Med. Hist. VII. pp. 492-496).

الإنجليزية كلها ، من حيث البطء توكيداً للسرعة فى الإنجاز ، وهذه الحركة هى البروتستانتية التى دلّت بعمقها وسرعتها ـ بعد بطء القرون ـ على أن الإنجليز وجدوا فى المعتقدات الوكلفية بديلا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأن أركان هذه المعتقدات وافقت أركان الخلق الإنجليزى العام ، واجتذبت إليها مختلف الأتباع فى كثير من طبقات المجتمع الإنجليزى . هذا هو المبرّر المفسر لقول القائلين بأن الإصلاح البروتستانتى فى إنجلترا نبع من أصول وجذور وكلفية إنجليزية ، لا لوثرية ألمانية .

يتعين على الباحث بعد ذلك أن يتتبع أهم النتائج التى نتجت عن الحركة اللولاردية الإنجليزية خارج إنجلترا ، وهذا يتطلب الإشارة إلى مملكة بوهيميا التى اعتنق أهلها التشكيون السلافيون[١] ديانةالمسيحية أول اعتناقهم لها حسب أنماط بيزنطية أورثوذكسية ، ثم اعتنقوها رومانية كاثوليكية ، بعد أن امتدّ النفوذ الألمانى إلى بلادهم ، وتقبلوا نظم الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها صاغرين . غير أن أولئك التشكيين الفلاحين العفاة اشتهروا فى طول التاريخ وعرضه بعمق خصالهم الأصلية ، فلم يخفف تحولهم إلى الكاثوليكية شيئاً من مقتهم للخلق الألمانى ، وهو مقت يجرى فى عروق السلافيين جميعا ، بل إن ارتباط الكنيسة الكاثوليكية فى عقولهم بالنفوذ الألمانى لم يحببها إليهم على مرّ القرون . ولذا امتلأت بوهيميا فى القرن الثالث عشر الميلادى بحركات هرطقية داعية إلى التطهر والبساطة فى الدين ، ولم ينتصف القرن الرابع عشر الميلادى حتى تطوّرت هذه الحركات ـ بفضل مؤلفات وكلف ـ إلى سيل من الاحتجاجات على مساوئ الكنيسة ، ثم انقلبت كلها إلى حركة قومية واحدة ، هى الأولى من نوعها فى أوربا ، ورائدها تنظيم الديانة المسيحية تنظيما جديداً .

ولو اقتصر الأمر فى مملكة بوهيميا ـ المغمورة بموقعها الجغرافى بأقصى تخوم

---

(١) هذه التسمية ترادف لفظ الصقالبة الذى درج المؤرخون العرب على استخدامه للتدليل على مجموعة الأمم الساكنة شرق أوربا ، وكلا اللفظين منقول إلى العربية فى الواقع من أصل يونانى واحد (sklabos) ، وهو الذى صار فى اللاتينية (Sclavus) ، وفى الفرنسية وسائر اللغات الأوربية الحديثة (Sclave) ، ثم (Slav) ، أى أن التسمية العربية المثبتة بالمتن هنا مأخوذة من الصيغة الأوربية الحديثة ، وأن هذه الصيغة مأخوذة أصلا عن اليونانية . وتنبغى الإشارة هنا أن السلافيين سكان بوهيميا يعرفون باسم التشكيين ، تمييزاً لهم من العناصر السلافية الأخرى ، وهى متنوعة كثيرة. زيادة.

أوربا– على هذه الفورات الدينية الداخلية ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، لما اهتم له أحدسوى البوهيميين أنفسهم وملوكهم من بيت البريمسليديين (Premyslids) . غير أن بوهيميا ودّعت خاتمة ذلك البيت سنة ١٣٠٦ م ، واستقبلت مطلع عهد جديد بتملك أسرة أجنبية على عرشها ، وهى أسرة من إقليم لوكسمبرج الواقع بين أطراف ألمانيا وفرنسا . وكانت هذه الأسرة من الأسرات الأرستقراطية المفرنسة التى ملأت أوربا بمغامراتها ، كما ملأت الحروب الصليبية بشهرتها ، وأمدت المؤرخ فرواسار فى القرن الرابع عشر الميلادى بأهم أجزاء حولياته الممتعة .

وأول من بلغ ذروة العظمة من هذه الأسرة هو الملك الباسل النجيد هنرى السابع (١٣٠٨ – ١٣١٣ م) ، الذى انتخبه الناخبون الألمانيون قبيل ذلك ملكاً على الرومانيين ، أى إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، سنة ١٣٠٨ م ، بمساعدة أخيه رئيس أساقفة تريڤ ، أحد أفراد الهيئة الناخبة وقت ذاك . ثم تتوج هنرى إمبراطوراً فى قصر لاتيران (Lateran Palace) بمدينة روما ، ولقب هنرى السابع ، واعتبره دانتى الحاكم الذى قيضته العناية الإلهية لنشر السلام والنظام والطمأنينة ، فى إيطاليا . والواقع ليس بين الأباطرة الألمانيين فى العصور الوسطى ، باستثناء برباروسا ، من استطاع أن يبلغ – من عظم المحبة له فى حياته وشديد الحزن عليه بعد وفاته – ما بلغه هذا الملك الإمبراطور المغوار الذى بغتته المنية وهو فى طريقه لمحاربة ملك نابولى ، مسموماً – على ما قيل – بسم دسّه له أحد الحاقدين عليه من الجويلفيين الفلورنسيين ، فى نبيذ العشاء الربانى . وتولى مملكة بوهيميا بعده ابنه حنا (١٣١٣ – ١٣٤٦ م) ، بحق إرثه ، فضلا عن زواجه من إحدى أميرات البيت الملكى السابق فى بوهيميا . وكان حنا هذا ملكاً واسع الخيال ، مغرماً بالفروسية – مثل دون كويكزوت فى الأدب الإسبانى – ، فضلا عن شغفه بالجرى وراء المغامرات الحربية الخطيرة ، مهما قلّ نصيبها من النجاح ؛ ولذا اشترك حنا هذا مع الفرنسيين فى حرب المائة سنة ، حيث مات قتيلا فى وقعة كريسى .

أما شارل الرابع (١٣٤٦ – ١٣٧٨ م) ابن حنا ، فكان شخصية من طراز آخر ، إذ اشتهر بالرزانة والمرونة بقدر ما اشتهر أبوه بالطيش والعناد . ولعل هذا الملك العالم– المتخرج من جامعة باريس– هو أول ملوك العصور الوسطى الذين استطاعوا أن يطلوا على المجتمع الأوربى بعين مجردة من الزيف والمبالغة . وحضر شارل الرابع كأبيه حنا وقعة كريسى ، وفى نيته ألا يجعل التضحية بالنفس فى

ميدان القتال سبباً لتحطيم مستقبل زاهر ، لأن حبّ التضحية لم يكن من طبعه . ألم يكن تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى سلسلة طويلة من التضحيات الأسيفة ،وسلسلة أطول من المجهودات الألمانية الضائعة سدى ،فى سبيل حكم إيطاليا من عرش بعيد بالشمال الغربى من أوربا ، ورغبةفى إفساد المقاومة البابوية العنيفة ضدّ الإمبراطورية ؟. ثم لم يلبث شارل الرابع — بعد أن صار ملكاً على الرومانيين وإمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة برضى البابوية أن دلّ دلالة واضحة على عدم استعداده لبذل هذه التضحيات التى لا معنى لها ، إذ رأى أنه ليس من المفروض أو المتعين عليه تبديد جهوده فى المنازعات الجنونية بين الجبلينيين والجولفيين ، وهى المنازعات التى مزّقت إيطاليا شرّ ممزق ، وأنه من العبث أن يقدم على إجراء أى تغيير فى بناء الدولة الألمانية أملا فى تقوية ذلك البناء المعقد ، لأن نهوض مملكة ألمانية قوية غدا من المستحيلات وقت ذاك ، وهو ما عرفه شارل تمام المعرفة . ومن ناحية أخرى عرف شارل الرابع أن لونا من الفوضى التى ليس بعدها فوضى يحتمل أن ينتشر فى ألمانيا انتشار النار فى الهشيم ، فحاول ملافاة ذلك بوسيلة كلها حكمة ، بأن أصدر سنة ١٣٥٦ م المرسوم الإمبراطورى الذهبى[١] الشهير (Golden Bull). وهذا هو المرسوم الذى يعدّ أعظم ما أسهم به شارل فى سبيل التطور الدستورى فى ألمانيا ، إذ واجه الواقع الكائن من انقسام ألمانيا على نفسها ، ثم أخذ فى علاج بعض أسباب ذلك الانقسام المرير ، بأن حدّد الهيئة الناخبة تحديداً جديداً ، واعتبر كلاً من الأقاليم الناخبة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد أصواتها ، كما جعل حق الانتخاب إرثاً للابن الأكبر (Primogeniture) ، وبذا قلل من المفاسد والشرور التى لزمت الانتخابات الإمبراطورية[٢] . ثم إن

---

(١) أفرد معظم المؤرخين هذه الصفة بمرسوم الإمبراطور شارل الرابع ، دون غيره من المراسيم الملكية والإمبراطورية فى العصور الوسطى ،لغير سبب معلوم ، برغم ما هو معروف من صدور أشباه كثيرة له فى تلك العصور . ومن هذه مرسوم ملكى ذهبى على عهد أندراوس الثانى ملك المجر سنة ١٢٢٢ م ، ومرسوم إمبراطورى ذهبى على عهد الإمبراطور فردريك الثانى (Camb. Med. Hist. Vol. VIII pp. 155, 579) . أما أصل هذه التسمية الذهبية،فمرجعه تعليب الخاتم (bulla) الملكى أو الإمبراطورى الملصق بالمرسوم فى علبة من الذهب من باب التعظيم ، وكان من المستطاع دائما صنع علبة من الذهب لوضع الخاتم الملكى أو الإمبراطورى الملصق بأى مرسوم ، ما دام المنتفع بهذا المرسوم هو الذى يدفع ثمن العلبة للخزانة الملكية أو الإمبراطورية . (Camb. Med. Hist. VIII. p 143) . زيادة .

(٢) تفصيل هذا المرسوم وارد فى (Camb. Med. Hist. VIII. p.p. 143-146). زيادة .

شارل أبى أن تستهويه أبهة اللقب الإمبراطورى، للدخول فى مغامرات جريئة ليس منها فائدة، فرفض أن يقوم بدور إمبراطور فى العصور الوسطى، من تلبية الآلاف المؤلفة من المطالب المنبعثة من أرجاء إمبراطوريته المترامية الأطراف. لكنه ركز جهوده نحو تحقيق مسألة عملية محدودة، وهى أن يجعل مملكة بوهيميا التى ورثها عن أبيه حنا أقوى دولة فى وسط أوربا؛ وكان شارل فى هذه المسألة من الناجحين. ثم إنه رعى مصالح بوهيميا حتى أبلغها مبلغاً عظيما من السطوة والنفوذ، فامتدت رقعتها فى الجنوب إلى ضفاف نهر دانوب، وفى الشمال إلى جهة لا تبعد كثيراً عن عن ساحل البحر البلطى، واجتذبت تجارتها النامية أفواجاً من الجاليات الألمانية إلى الأراضى البوهيمية، وغدت عاصمتها پراج (براها) مركزاً هاماً من مراكز الفنون والعلوم الآداب، ولا سيما بعد أن أضحت مقراً لأسقفية رئيسة، وموطناً لجامعة رحل إليها الطلاب من پولندا وأنحاء ألمانيا.

على أن موضع الأهمية هنا أن جامعة پراج التى تأسست سنة ١٣٤٨م — حين لم يوجد فى أى إقليم من الأقاليم الألمانية معهد يشبهها من قريب أو بعيد — أمدت حركة الإصلاح الدينى فى بوهيميا بقوة وثبات ومضاء، ولولا الروح الجامعية لما كان من المستطاع توفيرها لهذه الحركة. وكان أحد المدرسين بهذه الجامعة قساً من أصل فقير، وهو أعظم رجل يفخر به التشكيون البوهيميون فى تاريخهم، واسمه حنا هس، ومولده سنة ١٣٦٩م. وعاش هس رجلا ذا نقاء نادر وخلق متين، فضلا عن وطنية متقدة وإقبال على الدراسة المتواصلة، وطلاقة لسانية فى الوعظ الدينى، حيث نصب نفسه أول أمره للتشهير بعديد المسائل التى انتغشت بها الكنيسة البوهيمية. ثم أدت به استعداداته العقلية، وميوله الفطرية إلى فلسفة وكلف التى أضحت منذ سنوات بجامعة پراج موضع الاهتمام والإعجاب. وصاح هس ذات مرة فى موعظة من مواعظه: "أى وكلف، لبيك يا وكلف، سوف تملأ أفكارك قلوب الكثيرين خشية من حساب الله". وبهذه الصيحة الوعظية البالغة، وأمثالها فى اللغة البوهيمية التى يرجع إليه الفضل فى تكوينها، نشر هس آراء المصلح الإنجليزى بين القاصى والدانى بشرق أوربا. أما سر قوة هس فهو أنه لم يجعل للتردد أو التشكك مدخلا إلى تفكيره، فلم يكد يستقر فى نفسه أن الكتب المقدسة هى المرجع النهائى للعقائد، وأن طاعة البابا واجبة ما دام البابا سائراً وفق تعاليم الكتب المقدسة، حتى وضحت له عقائد وكلف كل الوضوح،

ودعا إليها فى كل مكان ، وهى الفقر والبساطة لرجال الدين ، والجبر (القضاء والقدر) ، وإنكار صكوك الغفران. وبلغ من وضوح هذه العقائد عندهَس أنه لم يستطع أن يفهم عدم وضوحها لغيره من الناس، إذا هم استمعوا لشرحها مرة واحدة . وأنكر هَس قول القائلين بأنه هرطيق خارج على الكنيسة ، إذ كيف يكون الدائب على الرجوع إلى أقوال المسيح وسنته هرطيقاً من الهراطقة ؟ . غير أن المجمع الدينى فى مدينة كونستانس بسويسرة الحالية ـــ وهو المجمع الذى استدرجه إليه أمان عدوّه سجسموند ملك المجر سنة ١٤١٦ م ـــ أفتى بهرطقته ، وحكم عليه بالإعدام حرقاً بالنار ، بعد أن رفض هَس النزول عن شيء من الأقوال المنسوبة إليه . ومشى هَس فى السادس فى شهر يوليه من تلك السنة إلى أحطاب إعدامه رابط الجأش ، فأشعل بموته نيران أول حرب من الحروب الدينية الطويلة التى جرى عليها اسم الحروب الهسية ، وهى التى امتدت فى أوربا إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادى .

وإذ امتازت هذه الحركة التطهرية فى بوهيميا بالسرعة والعنف ، فإنها امتازت كذلك بشدة ارتباطها بنعرة قومية وطموح إلى الاستقلال السياسى عن الإمبراطورية الألمانية . ثم إن هذه الحركة هدفت إلى إصلاح رجال الدين الذين طالما رقدوا فى مراقد الفساد والخمول والجهل ، كما هدفت إلى إقامة كنيسة بوهيمية على أسس قومية ، فضلا عن طرد الألمانيين من بوهيميا ، أو إخضاعهم لسلطة البوهيميين . ومن الدليل على خطورة هذه الظاهرة الثالثة أن الملك ونتزل أصدر سنة ١٤٠٩ م مرسوماً بنقل الإشراف على جامعة براج من أيدى الألمانيين إلى أيدى البوهيميين ؛ وهال الأساتذة والطلاب من الألمانيين أن يأخذ الملك ونتزل فى تنفيذ ذلك المرسوم ، وأخذتهم عزتهم بقوميتهم كل مأخذ ، وآثروا الهجرة جملة واحدة على الخضوع لسيطرة البوهيميين ، وأسسوا جامعة ليبزج بأواسط ألمانيا ، وعكفوا من ثَمّ على نشر كراهيتهم الشديدة للحركة البوهيمية . وحذا حذوهم فى ذلك جماعات الألمانيين الذين استوطنوا بوهيميا منذ سنين ، واختلطوا بأهلها التشكيين السلافيين اختلاط الأضداد ، ولا سيما بعد أن تزعموا حركة المعارضة للإصلاح الهسى . وبهذه الكراهية الشديدة الناتجة عن اختلاط عنصرين متضادين فى منطقة جغرافية واحدة ، واصطدامهما بعضهما ببعض فى مناكب الحياة اليومية ، ازدادت مرارة الحروب الهسية على مرارتها الحادة .

يتضح من هذا كله أن الحركة البوهيمية لم تترتب على استشهاد هس فحسب ، بل تشير الحوادث السابقة لاستشهاده إلى عزم الإصلاحيين البوهيميين على قطيعة الكنيسة الكاثوليكية ، والخروج السافر على طاعة روما . ومن هذه حادثتان معينتان وقعتا فى براج ، ودلّ كل منهما دلالة واضحة على احتدام الحال بين الإصلاحيين وأعدائهم من دعاة المحافظة على الكثلكة وطقوسها الكنسية . وأول هاتين الحادثتين إحراق مائتى كتاب من كتب وكلف علناً ، بناء على مرسوم بابوى (سنة ١٤٠٨ م) ، وثانيهما إعدام ثلاثة شبان سنة ١٤١٢ م ، لقولهم بأن صكوك الغفران إفك منظم ، وذلك حين أقام مندوب بابوى سوقاً لبيعها فى المدينة . ويرجع بعض الفضل فى عدم إهدار دماء أكثر من دماء أولئك الشبان وقتذاك إلى موقف الملك ونتزل من أنصار هس ، وحمايته لهم من تدبير خصومهم .

على أن رجال مجلس كونستانس أثاروا بتقريرهم إعدام هس روح أمة بأسرها ، إذ تكتل نبلاء بوهيميا للدفاع عما جدّ بينهم من حرية الوعظ ، وغدت المطالبة بتقديم كأس القداس مع القربان للعلمانيين صيحة عامة لاستنفار كل أصحاب الميول المتطهرة . وازداد الشعور بأن حرمان المسيحيين من حقوقهم القداسية الكلية إنما يرجع إلى مرض فى قلوب رجال الدين ، واختلط ذلك بالتنديد بثروة الكنيسة اختلاطاً صاخباً مصدره فى بعض الحالات طربٌ استخف الوالهين من أهل التنسك والتقوى ، وفى بعضها الآخر طمعٌ سرى بين الكثيرين من أصحاب الأراضى ، للاستيلاء على أراضى غيرهم من الناس . ثم هوت يد المقادير سنة ١٤١٩ م بأول فاجعة من فواجع الحرب الهسية الشنيعة التى استغرقت اثنتى عشرة سنة ، وجعلت لبوهيميا المتطهرة مكاناً خاصاً فى عالم الدول المسيحية . ففى تلك السنة اقتحم نبيل من نبلاء البلاط الملكى ، وهو حنا تزسكا — أو حنا الكركدن[1] على قول المؤرخ كارليل — دار البلدية الجديدة بمدينة براج فى جمع من رجاله ، فقتلوا عمدة المدينة ذبحاً ، ثم ألحقوا به زملاءه أعضاء البلدية الكاثوليكيين ، بأن قذفوا بهم من نوافذ المبنى فى غير إبطاء .

دلّ تزسكا دلالة واضحة على أنه زعيم من الزعماء الذين لا تجود بهم الأجيال

(١) كان تزسكا أعور ، وعينه الواحدة الباقية هى سبب التسمية الواردة هنا فيما يبدو (Camb. Med. Hist. VIII. p. 69) ، أو لعل سببها أن تزسكا اشتهر بهجماته الجريئة العنيفة التى أشبهته بالكركدن ، فى خيال المؤرخ كارليل . زيادة .

إلا نزراً، واستطاع بفضل الصرامة والنزاهة التي اتصف بها أن يعدّ جيشاً من طراز لم تعرفه أوربا قبلا . ذلك أن هذا الجيش تكون من الفلاحين المتحمسين للدين والقومية فى بوهيميا ، وهم من الذين حرّموا على أنفسهم أنواع الملاهى والرقص والموسيقى والخمر ، ومقتوا المزمار والطنبور والرق والطبل مقتهم لكلمة بذيئة أو امرأة ساقطة أو رجل باذخ ، أو مواطن ألمانى فى بوهيميا . ومشى أولئك الفلاحون إلى ميادين القتال تتقدمهم كؤوس العشاء الربانى ، وهم يحملون مرازبهم الضخمة ، وينشدون تراتيل تزسكا ، فألقوا الذعر والرعب فى الجيوش التى وقفت لهم بقلوب إيمانها بقضيتها أضعف كثيراً من إيمانهم بقضيتهم . وأمدّتهم سعة الحيلة التى امتاز بها زعيمهم بقوة فوق قوتهم المستمدة من حماستهم البالغة ، إذ كان تزسكا أول قائد أوربى أفاد من سلاح المدفعية تمام الفائدة فى القتال ، وأول من عرف أهمية العربات الزراعية بإقامتها متاريس متحركة، لتثبيت أقدام جيشه فى الميدان . ولما كانت مدينة پراج من الاعتدال بحيث لا يمكن الاعتماد عليها فى ساعات الحرج ، أقام تزسكا مقرّ قيادته عند تل أوستى الذى أطلق عليه أتباعه من مصطلحاتهم التى استعاروها من الكتاب المقدس اسم تل طابور[1] ، إشارة إلى المكان المعروف بهذا الاسم فى منطقة الجليل فى فلسطين ، كما أطلقوا على أنفسهم اسم الطابوريين . والخلاصة أن أتباع تزسكا ظلوا هم الأعلون ، ما دام زعيمهم على قيد الحياة .

ولم يخطئ البوهيميون حين قالوا إنهم لن يستطيعوا نشر عبادة الله حسب مذهبهم ، وتنظيم كنيسته وفق عقيدتهم ، إلا بقوة السلاح والوعيد . ذلك أنهم لم يتلقوا أية مساعدة أو رعاية من إحدى شخصيات البيت المالك ، إذ توفى صديقهم الملك ونتزل القدم الداعر سنة ١٤١٩ م، ودلّ أخوه سجسموند ملك المجر — وصاحب السيادة عليهم باعتباره إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة — على أنه ليس صديقاً، بل عدوّا عنيداً ما لبثوا أن قاتلوه حتى طردوه من بوهيميا . ثم عرض البوهيميون تاج بلادهم على ملك پولندا ذات الأراضى القاحلة الجدباء وقتذاك ، لكن جبن هذا الملك أدى به إلى رفض فرصة هى الأولى والأخيرة فى التاريخ كله ، لتكوين اتحاد سلافى عظيم يضم ولاء الأرثوذكسيين والكاثوليكيين بأوربا السلافية . ولذا وقف البوهيميون بمفردهم لا يملكون سوى جمهورية منعزلة انعزالا كارهاً أسيفاً

---

(١) لا تزال هذه المدينة قائمة فى تشكوسلوفاكيا الحالية ، على مسافة خمسة وستين ميلا جنوبى براج . زيادة.

عن سائر السلافيين ، ولا يستطيعون لأنفسهم سوى حرب متواصلة ضد خمس حملات سماها أعداؤهم صليبية ، وما هى بالصليبية ، بجيوش بوهيمية خالصة ارتجلوها لساعتها كرها من وراء المحاريث والمزارع ، فى غير تدقيق أو مران ، أو نظام ، أو قيادة مدربة . وبهذه الجيوش أجهز البوهيميون على جميع ما أنفذته الإمبراطورية ضدهم من جيوش لم تكن أحسن منهم نظاماً ، وأوغلوا بحدّهم وحديدهم فى جوف ألمانيا ، وما زالوا حتى حملوا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لأول مرة فى تاريخها الطويل على توقيع وثيقة للتسليم بمطالبهم الدينية .

أما سرّ هذا النجاح فمرجعه أن البوهيميين على اختلاف مذاهبهم الهسية كانوا جبهة متحدة ضد البابوية والإمبراطورية الألمانية ، إذ طالبوا بحرية الوعظ فى أية أسلوب من الأساليب ، وتناول العشاء الربانى بنوعيه فى القداس ، وإلغاء السلطة البابوية فى الشئون الدنيوية ، وإلزام القسس بالعودة إلى حياة الرسل الأولين ، وإخضاع رجال الدين للعقوبات المدنية على ما يرتكبونه من جرائم ومخالفات . هذه هى المطالب الأربعة التى رضيت الكنيسة الكاثوليكية بإجابتها للبوهيميين ، وهى التى عرفها التاريخ باسم " مطالب براج " ، سنة ١٤٢٠ م . غير أن هذه الجبهة المتحدة ذات البرنامج المتحد أخفت وراءها اختلافات بالغة فى العاطفة والرأى ، إذ وقفت طائفة من هذه الجبهة موقف الاعتدال ، وهى طائفة الذخيريين أو العشاربانيين[1] أصحاب القول بالاكتفاء بحق التناول الكلى لجميع المسيحيين فى العشاء الربانى بنوعيه (sub utraque specie communio) ، على حين وقف الطابوريون أو القداسيون موقف التطرف. وأبدى الأولون استعدادهم لقبول أى اتفاق مع روما يبيح لأهل بوهيميا تناول العشاء الربانى بنوعيه فى القداس ، على حين ذهب الطابوريون إلى أبعد من ذلك ، فأنكروا الصلاة للعذراء والقديسين ، وأجازوا للعلمانيين رجالا ونساءاً أن يتولوا وظائف الوعظ فى الكنائس ، ولم يعترفوا بوجود هيئة إكليروسية . على أن الطائفتين توافقتا على اتجاه واحد ، وهو الإمعان فى اضطهاد مخالفيهم فى الآراء

---

(١) هذان اللفظان مردافان للكلمتين الإنجليزيتين (Utraquists & Calixtines) الواردتين بالمتن ، والذخيريون نسبة إلى لفظ الذخيرة الذى تطلقه بعض الطوائف المسيحية العربية على العشاء الربانى بنوعيه ، والعشاربانيون نسبة نحتية قياسية إلى العشاء الربانى الذى اكتفت هذه الطائفة المعتدلة من أهل بوهيميا بالمطالبة به من الكنيسة الكاثوليكية ، ويسمى أفراد هذه الطائفة كذلك باسم البراجين ، نسبة إلى مدينة براج التى جاء معظمهم من دوائرها الجامعية والمدنية . زيادة .

إمعاناً لا رحمة فيه ولا هوادة ، مع مناداتهم فى موعظاتهم البليغة بمذهب الحرية فى الدين .

لهذا لم يكن عجباً أن تعمّ بوهيميا فتنة دينية داخلية تشلّ حركتها شللا كاملا ، بعد سنتين اثنتين من وفاة تزسكا عام ١٤٢٤ م . ثم ظهر بين صفوف الطابوريين شخص لا يقلّ عن تزسكا نفسه خبرة بفنون القتال ، ومقدرة على التنظيم . ذلك هو القس پروكوپيوس الكبير ، الذى منعته الكهنوتية من الاشتراك الفعلى فى القتال ، ولكنه قام قيام الزعيم كارنو — زمن الثورة الفرنسية الكبرى — بتهيئة جميع أسباب النصر للبوهيميين . يضاف إلى ذلك أن بصيرته الثاقبة أوحت إليه أن خير وسيلة للدفاع عن بوهيميا هى اتخاذ خطة الهجوم فى كل جبهة من جبهات البابويين والألمانيين ، لأن السلام العام لا يكفله إلا النصر التام . وظل پروكوپيوس على هذه الخطة الصائبة حتى أغسطس سنة ١٤٣١ م ، حين هزم الطابوريون عند بلدة طاوس بغابة بوهيميا قوات البابوية بقيادة كردينال تشزرايني ، فكانت هزيمة أقنعت ذلك السياسى البابوى الكبير أن السبيل إلى حلّ المسألة البوهيمية نهائياً لا يستقيم إلا عن طريق السلام . وبهذا استقرّ الرأى بعد مفاوضات ومناقشات جهيدة على توقيع اتفاق إجلاو ، فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٤٣٦ م ، واعترفت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مؤقتاً بطائفة الذخيريين المعتدلين ، وسمحت لكنيسة إنجيلية مؤسسة على مبدأ الوعظ فى حرية أن تكون جزءاً منها ، دون عنت أو اضطهاد .

وفى أثناء هذه الحروب لم يهمل الهسيون وسيلة من الوسائل لعرض قضيتهم على الرأى الأوربى العام ، بقدر ما لهذا اللفظ من معنى محدود فى العصور الوسطى ، فأصدروا منشورات ومقالات قرأها البعيد والقريب ، وصار لقضيتهم أصدقاء فى كثير من البلاد الأوربية .

الواقع أن هزيمة البابوية فى سلسلة من المعارك الحربية الشنيعة أحدث من سوء الأثر بأوربا ما لا يمكن المبالغة فى وصف عمقه ومداه ، مع العلم بأن هذه المعارك لم تكن سوى مأساة كبرى للمنتصرين ، إذ حطّم الطابوريون فى ثورة وحشية عنيفة مجموعة الأديرة والكنائس البديعة التى شيدتها العصور السالفة فى بوهيميا ، وساد الخراب والفقر أنحاء المملكة الصغيرة حتى أمست فى خشية من مستقبلها العابس الظليم .

ثم إن الحماسة الدينية التى ملأت طوائف الهسيين الأولين أخذت فى الأفول والخمود قبل انتهاء هذه الحروب الأهلية ، إذ أفقدت هذه الحروب جيش الطابوريين معظم جنوده ، وهم خيرة ما أنجبت الحركة الدينية فى بوهيميا ، وأحلّت محلّهم جنوداً مأجورين ، وذلك قبل توقيع الاتفاقية مع الكنيسة الكاثوليكية . ثم قضت طائفة المعتدلين على هذا الجيش فى وقعة ليبان الدامية (١٤٣٤ م) ؛ فاختفت بذلك عناصر الصرامة والتصعب للدين من أراضى بوهيميا ، وهى العناصر التى جعلت اسم بوهيميا موضع الرعب والكراهية بأنحاء أوربا لعدة سنين .

وكيفما كانت الحال الناجمة عن هذه الحرب الأهلية بين طائفتى الهسيين ، فأهمية الحروب الهسية فى مجموعها تتلخص أولا فى أنها طليعة لحركة الإصلاح البروتستانتى ، وثانياً فى أنها دليل على نهوض الجنس السلافى ضدّ الزحف الألمانى الجارف والسيادة الألمانية المزهقة . والواقع أن الحركة البوهيمية لا تتضح على حقيقتها إلا بتصوير شعب صغير يعمل فى سبيل المحافظة على كيانه ، ضدّ شعب أعزّ منه نفراً وأكثر حضارة وذكرا . ثم فاز هذا الشعب الصغير بالنصر ، بفضل التنظيم الصارم والتضحية الراضية . غير أن نبلاء بوهيميا اختطفوا ثمار ذلك النصر من أيدى الشعب ، ثم لم يلبثوا أن أضاعوا هذه الثمار فى معركة التل الأبيض سنة ١٦٢٠ م ، حين تهدمت الحركة البروتستانتية ، ووقعت بوهيميا فى الشرك النمساوى الكاثوليكى ، وهو الشرك الذى ضاق به أهل بوهيميا ، واحتالوا على قطع حباله مرة بعد مرة ، ولم ينقذهم منه سوى سيوف الحرب العظمى الأولى ، (١٩١٨ م) .

على أن الكنيسة الكاثوليكية التى وقفت للحركة الإصلاحية فى بوهيميا منذ القرن الخامس عشر الميلادى لم تخلُ بدورها من حركة إصلاحية ذاتية ، وهى التى جرى المصطلح على تسميتها باسم حركة المجامع (Conciliar Movement) ، وهى كذلك الحركة التى تجلت فى فشلها جميع الأسباب والصعوبات الحائلة دون تحقيق أى مشروع من المشاريع الأوربية فى سبيل السلام الدولى العام فى العصر الحاضر ، مثل عصبة الأمم فى جنيف ، أو هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك ، أو هيئة الاتحاد الأوربى فى ستراسبورج . أما حاجة الكنيسة إلى إصلاح فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فلم ينكرها وقتذاك عاقل مهما أوتى من التزمّت والمحافظة على القديم ، إذ خشى معظم أهل العلم أكبر خشية مما شهدوا من سرعة امتداد الهرطقة فى خطوات واسعة ،

وأجمع الكل على أن الانقسام[1] الدينى الكبير وصمة يجب إزالتها فى غير إمهال . ورأى بعض المفكرين المخلصين للدين أن أهم ما وعى الناس من دروس ذلك العصر أن السيادة البابوية التى استغلها بابوات أفنيون أسوأ استغلال ينبغى أن تكون خاضعة لنوع من الإشراف المنظم والرقابة الدائمة ، عن طريق المجامع الكنسية . وتحقيقاً لذلك الرأى انعقدت أربعة مجامع كنسية فى پيزا (١٤٠٩ م)[2] ، وكونستانس (١٤١٤ م)، وپاڤيا (١٤٢٣ م)، وبازل (١٤٣١ م) . غير أن هذه الحركة التى بدأها المفكرون من رجال الدين انتهت بإثارة اهتمام السياسيين والدبلوماسيين ، ولم تلبث المشاكل المعروضة على بساط البحث أن تعدت المشكلة الأصلية الناشئة عن تنافس اثنين من البابوات ، لكل منهما شيعة إقليمية مستقلة عن التقسيمات[3] السياسية فى أوربا ، وليس لإحداهما رغبة ألبتة فى النزول عن شىء من موقفها للأخرى . ثم أدى تعدد المشاكل الجسيمة أمام هذه المجامع أن أضحى أعضاؤها من أجدر الزعيمين بتمثيل الحياة الدينية والسياسية والفكرية وأعظمهم وزناً فى المجتمع الأوربى ، حتى بدا كل من مجمع كونستانس وبازل بعض الأحيان كأنه مؤتمر من السياسيين والدبلوماسيين لتسوية أوربا ، لا مجلس مكون من رجال الدين . غير أن ما أفادته أوربا المسيحية من هذه المجامع الشهيرة لم يكن شيئاً برغم ما امتلأت

---

(١) حدث الانقسام الدينى بعد وفاة البابا جريجورى الحادى عشر سنة ١٣٧٨ م ، وهو صاحب الفضل فى إرجاع البابوية من أفنيون إلى روما ، وإنهاء عهد الأسر البابلى الذى تقدمت الإشارة إليه. غير أن الانتخاب البابوى التالى امتلأ بالحزبية والصخب بين الكرادلة الإيطاليين والفرنسيين ، وعمل كل من الحزبين على انتخاب بابوى يكون فيه النصر حزبياً ، حتى إذا انجلى الموقف بانتخاب بابا إيطالى الجنس ، وهو إربان السادس ، أخذ الكرادلة الفرنسيون يلحون عليه فى الإقامة فى أفنيون . غير أن البابا إربان السادس رفض الإذعان لذلك الإلحاح ، فاجتمع الكرادلة الفرنسيون ، وطعنوا فى الانتخاب البابوى ، وانتخبوا كلمنت السابع الذى لم يلبث أن استقر فى أفنيون . بذا صارت البابوية كرسيين متباعدين متنافرين متناكرين ، وهذا هو مطلع الانقسام الدينى الكبير الذى لم يكن الأول من نوعه فى تاريخ المسيحية ، ولكنه كان أطول الانقسامات الدينية مدة وأعمقها فى نتائجه . زيادة.

(٢) عمد أعضاء هذا المجلس بالذات — وهم عدد حافل من الكرادلة وقادة الفكر والسياسيين — إلى إزالة الانقسام الدينى الكبير بخلع البابويين القائمين أحدهما فى روما وثانيهما فى أفنيون ، وهما وقتذاك بندكت الثالث عشر وجريجورى الثانى عشر ، ثم انتخبوا إسكندر الخامس ، فصار بالعالم المسيحى الغربى ثلاث بابوات ، لا واحد . زيادة .

(٣) وقفت إيطاليا طبعاً ، وكذلك إنجلترا وألمانيا ، فى صف بابوات روما ، ووقفت فرنسا واسكتلندا وإسبانيا المسيحية فى صف بابوات أفنيون . زيادة .

به جلساتها من جدل وضوضاء ، فلم يستطع مجمع پيزا سنة ١٤٠٩ م أن يزيل الانقسام الدينى ، ولم يخطئه التوفيق فى إبعاد البابوين المتنافسين على الكرسى البابوى فحسب ، بل زاد فى تعقيد الموقف بانتخاب بابوى جديد شوّش على أوربا أحوالها وشان كنيستها ، بتنازع ثلاثة بدل اثنين من البابوات . أما الفضل فى إزالة الانقسام الدينى – بخلع البابوين المتنافسين ، وحَمْل الثالث على الاستقالة – فرجعه لمجمع كونستانس (١٤١٤ م) ، وهو المجمع الذى امتاز بسعة دائرة عضويته ، وسعة تمثيل الكرادلة من مختلف الدول الأوربية فى جلساته ، بالقياس إلى جلسات مجمع پيزا . هكذا انتهى الانقسام الدينى ، وغدا الكرسى البابوى شاغراً ، وبدا كأن فرصة ذهبية لاحت لإصلاح الكنيسة وفرض ما يبدو مفيداً ممكناً فرضه من القيود على سلطة البابا . غير أن الفرصة ضاعت سدى ، إذ أضاعها مجمع كونستانس فى المفاضلة بين البدء فى إصلاح الكنيسة قبل انتخاب البابا ، أو انتخاب البابا قبل البدء فى إصلاح الكنيسة ، ثم قرّر إرجاء الإصلاح برغم معارضة إنجلترا وألمانيا ، فجاء هذا القرار معبراً عن الخطأ الذى تقع فيه غالباً أية جمعية من الجمعيات العامة لا يكون للقيم والاعتبارات الخلقية فى مناقشتها ما ينبغى من تقدير . غير أنه مع التسليم بأن إصلاح الكنيسة والبابوية شاغرة لا يمكن أن يكون إلا أمراً شاقاً عسيراً ، فمن الواضح أن القيام بذلك عقب انتخاب بابوى يجعل الأمر أكثر مشقة وعسراً . ذلك أن وقوع اختيار المجمع على كردينال أودو كولونا السياسى الإيطالى ، وهو الذى تسمّى مارتن الخامس ، (١٤١٧ – ١٤٣١ م) ، رفع إلى الكرسى البابوى رجلا لم تلبث مصالحه السياسية – فضلا عن التقاليد الأوتوقراطية البابوية – أن جعلت منه مناهضاً خطيراً لفكرة المجامع ، ديدنه إحباط الأغراض الدستورية التى توخاها مجمع كونستانس .

هكذا انهارت خطة الإصلاح الكنسى العام ، أى أن مجمع كونستانس اقتصرت أعماله على إعدام حنا هس وحنا چيروم حرقاً بالنار ، وإصدار عدة قرارات لعقد مجامع مسكونية كل عشر سنوات ، وعقد مجمع عادى للبحث فى إصلاح الكنيسة بعد خمس سنوات ، مع جواز دعوة مجمع فى أى وقت من الأوقات دون استئذان البابا ، فى حالة قيام انقسام دينى جديد . ومعنى ذلك كله أن مجمع كونستانس لم يستطع إلا أن ينزل عن فكرة الإصلاح الدينى المنشود ، خضوعاً للبابا مارتن الخامس الذى جعل همّه الأول تدعيم إمارته الإيطالية ، وآثر عقد

اتفاقات مؤقتة — مع كل دولة من الدول الأوربية[١] — على العمل عن طريق المجامع التى لم تكن فى نظره سوى أداة تنافسه السلطة والسلطان .

لم يكن مجمع بازل الذى عقد سنة ١٤٣١ م ، أكثر نجاحاً من مجمع كونستانس ، لأن جميع المؤثرات الرئيسة التى أحبطت مظاهر الحماسة للإصلاح فى نفوس الكرادلة وقتذاك لم تفقد شيئاً من قوتها فى مجمع بازل ، إذ جاء إلى كرسى البابوية بعد النبيل الإيطالى مارتن الخامس نبيل إيطالى ثان من مدينة البندقية ، وهو يوچين الرابع . ومقت البابا الجديد — مثل سلفه — محاولة المجامع إقامة نفسها فوق مقام الكرسى البابوى ، لإصلاح إدارته المالية ، وتقييد سلطته المطلقة فى توزيع الوظائف والإنعامات الكنسية ؛ ولذا تأكد لمجمع بازل منذ أوائل جلساته أنه سوف يلقى من البابا يوچين مقاومة عنيدة لدودة . ثم إنه على الرغم من عدم تحول هذا المجمع إلى قوميات ، كما حدث فى مجمع كونستانس ، ليسهل على عامة رجال الدين دون الكرادلة أن يظهروا نفوذهم ، ويعرضوا ما لديهم من خطط لإصلاحات أساسية ، فإن الروح القومية لم تقلّ فى قوتها سنة ١٤٣١ م عما كانت عليه سنة ١٤١٧ م . يضاف إلى ذلك أن الإسبانيين والفرنسيين ظلوا — كما كانوا — على كراهيتهم لفكرة الإصلاح ، ورأى يوچين الرابع — كما رأى مارتن الخامس قبله — أن مصلحته تتطلب منه الاتفاق مع ملوك الدول الأوربية ، لا مع مجمع كنسى عام .

ومع هذا ليس من الإنصاف أن ينكر الباحث أن مجمع بازل أنجز عملا واحداً يستحق النظر والاعتبار على أقل تقدير ، إذ هيأت اجتماعاته مسرحاً طيباً للفحص والمناقشة فى الاختلافات الدينية بين الهسيين والكاثوليكيين ، وهو ما حدث فعلا . وتعدّ المناظرة الدينية التى جرت بين زعماء الهسيين وكبار اللاهوتيين الكاثوليكيين فى مجمع بازل من أعظم الأحداث المشرّقة التى وقعت فى ذلك العصر الطافح بالعنف والتعصب . وحُقّ لهذا المجمع من الفخر أنه نجح آخر الأمر فى الوصول إلى حل نصفة رضى به معظم الهسيين من أهل بوهيميا ، ما عدا

(١) اتصفت هذه المجالس كلها باختلاط المسائل الدينية بالمسائل السياسية فى جلساتها ، وبامتلاء هذه الجلسات بالسياسيين من مختلف الدول الأوربية ، فضلا عن جماعات الكرادلة من هذه الدول . ثم إن كثرة الإيطاليين من السياسيين والكرادلة فى مجمع كونستانس أدى إلى ضرورة تنظيم التصويت على قاعدة القوميات ، بحيث يصبح لأعضاء كل قومية صوت واحد ، على أن هذا التنظيم لم تظهر له ضرورة فى مجمع بازل ، وهو ما أشار إليه المؤلف هنا . زيادة .

الطابوريين الذين اعترضوا قبوله أشد الاعتراض . غير أن مجمع بازل عجز عن السير خطوة واحدة فيما عدا ذلك من مسائل إصلاح الكنيسة، أو تقييد سلطان البابوية . ولم ينشأ ذلك العجز عن نقص فى أسس الأهداف التى رمى إليها هذا المجمع ، بدليل ما استطاع إصداره من قرارات جامعة واسعة المرمى ، ومنها ألا ينفض مجمع عام بغير موافقة أعضائه ، وألا يلتجىء مجلس عام إلى تحكيم البابا فى مسألة من المسائل التى يختلف عليها فى مناقشاته ، لأن ذلك يكون هرطقة وخروجاً على الجماعة . وأنكر مجمع بازل كذلك سلطات البابا فى توزيع الوظائف والإنعامات الكنسية ، كما أنذر البابوية بالخراب المالى بإنكار ضريبتها المعروفة باسم ضريبة السنة الأولى[1] (annates) ، وهى مجموعة الدخل السنوى الأول لوظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية التابعة للبابا . ثم ذهب المجمع إلى أبعد من ذلك حين أقال عدوه يوچين الرابع سنة ١٤٣٩ م ، وانتخب للكرسى البابوى فيلكس الخامس ، وهو شيخ أرمل ذو مال ، وله من الأولاد سبعة ؛ وكان فيلكس دوقاً ناسكاً معتزلا للدنيا فى دوقيته بسافوى مدة أربعين سنة .

غير أن المجمع تعدى بهذه الإجراءات حدود الفطنة والكياسة ، لأن الناس فى أوربا العصور الوسطى لم يرضوا تقييد السلطات البابوية إلى ذلك الحد الخطير ، ولأن احتمال الانقسام الدينى مرة أخرى بعد إقالة يوچين الرابع أمقت المجمع عند كثير من الناس . ذلك أنه مع التسليم بأن يوچين الرابع لم يكن خارق الذكاء ، فضلا عن حدته وصلابته وضيق أفقه ، فإن ما توفر لديه من ذكاء متوسط كفل له الإفادة من أخطاء خصومه فى بازل ، والنجاح فى إفساد خطط المجمع بعقد اتفاقات خاصة مع الفرنسيين والألمانيين . والواقع أن من دلائل الاتجاهات الجديدة فى السياسة الأوربية ، وامتداد الروح القومية ، وانكماش فكرة الوحدة الكنسية الكاثوليكية الواحدة الجامعة فى العصور الوسطى ، أن أركان استقلال الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية تأسست سنة ١٤٣٨ م ، دون علم مجمع بازل ، وبرغم استمرار انعقاده . حدث ذلك بمقتضى معاهدة بين البابا يوچين الرابع وملك فرنسا شارل السابع ، وهى المعاهدة المعروفة باسم اتفاقية بورج (Pragmatic Sanction of Bourges) . ومن هذه الدلائل كذلك ما عقده

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٣٩ . زيادة .

يوجين الرابع من معـاهدة مماثلة مع هيئة الناخبين الألمانيين فىماينز ، سنة ١٤٣٩م .

ثم ما لبث مجمع بازل أن تلقى لطمة نهائية كانت القاضية على سلطته سنة ١٤٤٥ م ، حين باع فردريك الثالث ملك ألمانيا – أي ملك الرومانيين على قول المصطلح السياسى فى العصور الوسطى – حقوق الكنيسة الألمانية إلى البابا فيلكس الخامس ، مقابل وعد بتتويجه إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة . ولهذه الحادثة أهمية بالغة فى حركة المجامع الكنسية ، إذ المعروف أن معظم الفضل فى قيام مجمعى كونستانس وبازل يرجع إلى تأييد الإمبراطور سجسموند (١٣١٩ – ١٤٣٧ م) ، وهو الرجل المتقلب الطائش الذى حرص على أن يبدو فى عين المجتمع الأوربى نجماً متألقاً فى سماء الإصلاح الكنسى ، وإمبراطوراً عالمياً وسعت أحلامه الآفاق ، وفيصلا وحكما فى تسوية المنازعات المدنية والكنسية . واحتضن سجسموند حركة المجامع الكنسية أملا فى تعطيل الهرطقات فى بوهيميا ، وتسهيل الحصول على تاج بوهيميا لنفسه ، وظلت هذه المجامع قوة خطيرة فى وجه البابوية طالما حظيت بتأييد السلطة الإمبراطورية ، مع العلم بأن هذه السلطة لم تكن ذات موضوع فى ألمانيا بعض الأحيان . ومن ذلك تتضح أهمية المعاهدات المعقودة بين البابا وفردريك الثالث ، إذ قضت السلطة السياسية الوحيدة – وهى التى توقع مجمع بازل منها كل تأييد ومساعدة – على آمال أعضائه بضربة قاصمة ، بل أعاد فردريك للبابا سنة ١٤٤٨ م ضريبة السنة الأولى[١] ، ومعظم الحقوق البابوية فى توزيع الوظائف والإنعامات الدينية التى حرمتها عليه قرارات مجمع بازل .

هكذا انتصرت البابوية ، وهكذا انهارت حركة الإصلاح الكنسى ، أى أن رغبة الكنيسة الكاثوليكية إلى إصلاح شئونها عن طريق المجامع العامة ذهبت هباء ، بسبب الاختلافات السياسية الضاربة فى جوف أوربا أواخر العصور الوسطى ، فضلا عن معارضة البابا ، وجشع أحد الأباطرة ، وإصرار إيطاليا ألا تقبل على نفسها سيادة الألمانيين فى أية صورة من الصور .

هنا ينتقل الباحث إلى الإيطاليين وإيطاليا التى عاد إليها إشرافها على الكرسى

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٣٩ ، ٣٨١ . زيادة .

البابوى مرة أخرى منذ أيام البابا مارتن الخامس (١٤١٧ – ١٤٣١ م) ، لأن مجىء هذا البابا يبدأ سلسلة طويلة من البابوات الذين جعلوا همّهم الأول تدبير شئون دولة إيطالية مساحتها مجموعة الممتلكات البابوية ، لا البابوية نفسها . وآثر مارتن الخامس هذه الممتلكات البابوية على الكنيسة ، وفضل إيطاليا على أوربا ، وقدم أقاربه من أسرة كولونا على سائر الناس ، وبات شغله الشاغل إعادة الأمن إلى روما التى أنهكتها الحروب الأهلية ، وتطهير إقليم كامبانيا البابوى من اللصوص ، وإرجاع الدوائر الكنسية بمختلف البلاد الأوربية إلى ما يجب عليها من الخضوع والشعور بالتبعية للكرسى البابوى .

على أن البابوية لم تستطع أن تلائم فى سرعة أو سهولة بين نفسها والمظاهر الوحشية التى غلبت على موطنها الإيطالى القديم ، ذلك أن عودة البابوية إلى إيطاليا بدا فى نظر البعض من المعاصرين منبعاً للفخار العظيم والمنفعة والربح الوفير ، على حين بدا فى نظر البعض الآخر مثاراً للعداوات الشديدة والبغضاء والبغى . وكره الجمهوريون من أهل روما ذات المجد الأبىّ التليد أن تعود مدينة العباقرة الصناديد — أمثال سيبيو وإخوته الرومانيين القدماء — إلى حكم رجال الدين من القسس والرهبان ؛ وأولئك الجمهوريون هم الذين ساقوا البابا يوجين الرابع إلى المنفى ، وثاروا ثورة مسلحة فى وجه خليفته فيلكس الخامس . أما نبلاء روما وضاحيتها كامبانيا — وهم الذين أضحى التمرد طبيعة ثانية فى نفوسهم ، بسبب ما ولغت فيه أجيالهم من فوضى وسفك دماء — فكانوا أشد خطراً من رعاع روما . ولذا لم يكن عجباً أن يشعر البابوات بعد عودتهم إلى روما من أفنيون أن روح التقوى المسيحية لن تمنعهم أو تحرّم عليهم مقابلة هذه الاضطرابات بأفظع ما تستطيع عساكرهم المرتزقة المأجورة أن تنزله من عقوبات قاسية بالكارهين لعودتها ، أو الناقمين على محسوبيتها ، أو المتحزبين لبابا سالف ضدّ خالف فى الكرسى البابوى . فأعمل كل من الجانبين فى خصومه أنواع التعذيب وألوان القتل والشنق ، وتخربت ضاحية بالسترينا قرب روما — وهى موطن أقارب البابا مارتن الخامس من أسرة كولونا — على يد ڤيتلتشى رئيس أساقفة مدينة فلورنسا ، وهو الذى ارتكب من الفظائع فى خدمة البابا يوچين الرابع ما صوّره الكاتب الإيطالى المعاصر لورنزو ڤالا بحروف حالكة السواد ، وأحاط عودة الدولة البابوية إلى إيطاليا بظل قاتم من ظلال الحزن .

هكذا استقبل البابوات حياتهم البابوية فى إيطاليا ، بعد أن تخلصوا من

مشاكلهم المحلية تخلصاً صارماً صاخباً ، وساروا قدماً لمواجهة المستقبل يحدوهم شعور بالنصر والظفر ؛ وغدت العقبات التى ما فتئت منذ الانقسام الدينى تهدد كيان السلطة البابوية فى خبر كان . وانفضّ مجمع بازل سنة ١٤٤٩ م ، بعد أن ظلّ قائماً مدة طويلة ، فى قلة من الأعضاء وقلة من الجدوى ، كما استقال البابا الشيخ الهرم فيلكس الخامس . وقبل ذلك صالحت الإمبراطورية الألمانية — وهى الإمبراطورية الرومانية المقدسة — الكرسى البابوى ، بإرشاد فردريك الثالث وسياسته العرجاء وأطماعه الشوهـــاء ، فحادت بذلك فى رضى ورغبة عن طريق الإصلاح ، وقبلت أداء المطالب المالية التى أرادها البابا ، كما قبلت تنفيذ حقوقه فى توزيع الوظائف والإنعامات الكنسية ، فضلا عن قبولها سلطة البابوية عليها كاملة غير منقوصة . أما أهل بوهيميا الذين ملأ اسمهم أنحاء أوربا خوفاً ورعباً ، فلم يعودوا مصدر خوف أو خشية ، بعد أن أخلدوا — فيما يبدو — إلى الهدوء والسكينة ، ولم يلغط أحد باسم وكلف . وفى سنة ١٤٥٠ م — وهى السنة المقدسة منتصف القرن الخامس عشر الميلادى — أطل نقولا الخامس على المجتمع الكاثوليكى من مختلف أرجاء المعمورة ، وأجال بصره فى أفواج المتبركين بزيارة روما ذاك العام ، وحُقّ له أن يرى فى تلك الأفواج رمزاً لخضوع العالم بأسره لمشيئته . وعاش نقولا الخامس من المعنيين بالعلم وأهله ، وأضحى بلاطه مركزاً رئيساً للعلوم والآداب الإيطالية ، وهو صاحب الفضل فى تأسيس مكتبة الفاتيكان . وفى هذه السنة كذلك نشر الكاتب الإسبانى توركويمادا رسالته المشهورة التى عنوانها « الإفحام فى الرد على أعداء الكنيسة » (summa contra hostes ecclesiae) ، وأودع فيها الردّ الكاثوليكى الخالص على جميع الخطيئات التى نزلت بالعالم المسيحى على إيدى المصلحين .

والحاصل أن الهجوم الكبير الذى هدّد حصن البابوية ارتدّ ارتداداً خائباً وهو حسير ، غير أنه ندر وقتذاك من استطاع أن يتنبأ بأن هذا الهجوم سوف يتجدّد بعد نصف قرن من الزمان ، فى نطاق أوسع وقوة أعظم ، وأن سوف ينجم عنه نتائج هادمة لوحدة الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية .

بعض المراجع لهذا الفصل

Creighton, (M.) : History of the Papacy during the Reformation. 1882.

Denis, (E.) : Huss et la Guerre des Hussites. 1878.

Gregorovius : History of Rome in the Middle Ages. Tr. A. Hamilton. 1894-1900.

Inge, (W.R.) : Christian Mysticism. 1899.

Lechler : John Wycliffe and his English Precursors. Tr P Lorimer. 1884.

Loserth, (J.) : Wycliffe and Huss. Tr. M.J. Evans 1884.

Poole. (R.L). : Wycliffe's Tractatus de Civili Dominio. 1885.

Ranke : History of the Popes. Tr. S. Austin. 1847.

Trevelyan, (G.M.) : England in the Age of Wycliffe. 1909.

Turberville, (A.S.) : Mediaeval Heresy and the Inquisition. 1920.

الفصل الثالث والعشرون

إسبانيا والعصور الوسطى

النضال بين المسيحيين والمسلمين — عظمة قرطبة على عهد الخلفاء الأمويين — ملاءمة الأحوال السياسية الإسلامية للمسيحيين الإسبانيين فى القرن الحادى عشر الميلادى — انعدام الوحدة بين القوى المسيحية الإسبانية — الجهود المسيحية فى سبيل استرداد إسبانيا من المسلمين — سنة ١٠٨٦م إلى سنة ١٢٦٦ م — المرابطون والموحدون — توقف الحروب الدينية مدة طويلة — الروح الإقليمية فى شبه جزيرة أيبيريا — فضل فرنسا على إسبانيا العصور الوسطى .

* * *

يبدو واضحاً تمام الوضوح أن تاريخ إسبانيا العصور الوسطى ليس إلا تاريخ التقاء حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف ؛ إحداهما مسيحية وأهلها أخلاط متفاوتة من الكلتبريين[1] والرومانيين والقوطيين الغربيين ، وثانيتهما إسلامية وأهلها من العرب والبربر . ووقفت كل حضارة من هاتين الحضارتين أمام أختها ، ولم يكن من اصطدامهما محيص فى سبيل السيطرة التامة على شبه جزيرة أيبيريا كلها ، برغم ما نشأ بينهما من تبادل المؤثرات والميول الحضارية . وخرج المسيحيون ظافرين من هذا الاصطدام الذى لم تهدأ شدته إلا بعد استيلاء فرديناند وإيزابيلا على آخر ممالك المسلمين فى إسبانيا ، وهى مملكة غرناطة الصغيرة ، سنة ١٤٩٢ م ، أى سنة اكتشاف أمريكا . ثم رأى فرديناند ورأت إيزابيلا معه أن الاستيلاء على مملكة غرناطة يستوجب شكرهما وحمدهما لله على توفيقهما المبين ، فأصدرا بعد سبعة

---

(١) تتركب هذه الكلمة من لفظين ، وهما كلتى وأيبيرى ، وكل منهما اسم صفة لجنس من الأجناس الأوربية القديمه ، فالكلتيون أهل غرب أوربا قبل أن تختلط بهم مجموعة الشعوب الشمالية مثل الجرمانيين وغيرهم ، والأيبيريون أهل شبه جزيرة أيبيريا ، أى بلاد إسبانيا والبرتغال . ويطلق علماء الأجناس اسم الكلتبريين فى العصر الحاضر على خليط من هذين الجنسين ، وهم أهل الجزء الجنوبى الغربى من أرجونة الحالية ، فضلا عن شمال قشتالة وشرقها . واشتهر هذا الجنس بالشجاعة وشدة المراس ، ومنه جعل هانيبال فرقة مرتزقة فى الجيش القرطاجى ، كما جعلت الدولة الرومانية منه جنداً شهيراً . زيادة .

أشهر من فتح غرناطة قراراً بطرد جميع اليهود من إسبانيا ، كما أصدرا سنة ١٥٠٢ م قراراً بتخيير بقايا المسلمين بين اعتناق المسيحية أو مغارة البلاد ، وبهذين القرارين الاضطهاديين الذين يرجع التفكير فى إصدارهما إلى إيزابيلا وحماستها الدينية العمياء ، وإلى تعصب الدهماء من المسيحيين الإسبانيين ، تخلّصت إسبانيا من الجزء العامل من سكانها ، وهو الجزء الذى كان زعيما بتنمية ثروتها المادية على نحو سليم ؛ وكل ذلك كيما يصبح الجوّ خالياً لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية على البلاد . كذا تمّ التمهيد الدينى (Preparatio Evangelica) فى إسبانيا لعصر الفتح والنصر والاستعمار فيما بعد ، حين انتشرت الجيوش الإسبانية فى العالم القديم ، وفى العالم الأمريكى الجديد ، تبتغى خدمة العقيدة الكاثوليكية وإيصالها للناس . ولبعض الباحثين العذر إذا هم رأوا فى هذا الارتباط الوثيق بين العرش الملكى والتعصب الدينى أهم أسباب انحلال الإمبراطورية الإسبانية ، وسقوطها فى العصور الحديثة .

أما المسلمون الذين أشعلوا هذه الروح التعصبية الملتهبة بين المسيحيين من الإسبانيين قروناً قبل فرديناند وإيزابيلا ، فأضحوا منذ سنة ٧٥٥ م إلى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى دولة قوية راضية ، عليها أمراء وخلفاء أمويون ، يحكمونها حكماً مستنيراًمن عاصمة لهم هى قرطبة . وانعقدت مخايل التحضر والنعمة والترف والاستقرار على رأس هذه الدولة ، كما امتلأت عاصمتها بالسكان من جميع الأديان . والزائر القادم إلى قرطبة وضواحيها فى القرن العاشر الميلادى ، لايلبث أن يرى بلداً توافرت فيه دلائل الحكومة المستنيرة المعنية أكبر عناية بشئون الزراعة والتجارة والصناعة ، إذ يرى فيما يرى فلاحين يزرعون الأرز وقصب السكر فى أرض تسقيها ترع ونواظم مائية قام على تنسيقها مهندسون من العرب ، كما يرى فيما يري صناعاً يصنعون الآنية من الزجاج والأدوات من العاج والجلد ، فى دقة ورونق وجمال . والزائر لا يستطيع إلا أن يرى كذلك فيما يرى الدواوين الحكومية والصفوف من الموظفين الكاتبين الذين استبدلوا الورق برقوق الغزلان للكتابة ؛ حتى إذا دخل قرطبة نفسها لم يستطع إلا أن يعجب من أهلها وغلوّهم الشرقى الذى تطلب تسعمائة حمام لغسل أبدانهم ، وأربعمائة مسجد لتهذيب نفوسهم ، فضلا عن طرق مرصوفة بالحجارة ، وساحات ظليلة واسعة ، ذات عمد وعقود مسقوفة ؛ تتوسطها نوافير مائية متألقة ، وتزينها مئات المصابيح المصنوعة من الفضة ، كما

تزين المسجد القرطبي الكبير بأنوارها المنعكسة على عمده من الرخام .

ولم تكن هذه المباهج الخلابة خاصة بالسادة العرب ، بل نعمت بها رعية الخليفة الأموي ، من جاليات المسلمين الذين قدموا مع الفاتحين ، وطوائف الوطنيين المسيحيين الذين رضوا بالفتح والعيش فى ظلّ الإسلام آمنين ، على أن يدفعوا للدولة جزية سنوية معلومة . وأولئك هم المستعربون (Mozarabs) على قول المصطلح المعاصر ، وهم جزء هام من المجتمع الإسبانى الإسلامى ، وإليهم يرجع الفضل – كما يرجع إلى اليهود الإسبانيين – فى تسرّب الحضارة العربية ، وما امتلأت به هذه الحضارة من علوم اليونانيين ، إلى أوربا اللاتينية فى العصور الوسطى .

لم يكن باستطاعة الدول الإسبانية المسيحية أن تقف فى وجه الخلافة الأموية فى قرطبة ، وهى الدول الصغيرة التى تكوّنت بين لحوف الجبال الباردة وصياصى الوديان المخضلة بشمال إسبانيا عقب الفتح الإسلامى ، وذلك لأنها ظلت حتى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى فى قلة قليلة من السكان ، وملوكها ليس لديهم جيوش حربية منظمة أو موارد مالية ثابتة ، بل كلّ اعتمادهم على كرم النبلاء والمدن مقابل ما ينزلون عنه لهؤلاء وأولئك من حقوق وامتيازات وإعفاءات ، فى غير حساب . أما المسلمون فعاشوا فى أوج من العظمة والقوة ، ولا سيما زمن الخليفة عبد الرحمن الثالث والحاجب المنصور بن أبى عامر ، حين خمدت الفتنة بين العرب والبربر ، وأضحت الجيوش الإسلامية متحدة نظيمة ، كما أضحت ألويتها تخفق بالنصر حيثما حلت بجزء من أجزاء شبه الجزيرة . فاستولت هذه الجيوش المظفرة على برشلونة سنة ٩٨٥ م ، ودخلت شنتياجو سنة ٩٩٧ م ، ودانت إسبانيا كلها للخليفة الأموى ، ما عدا ليونة وقشتالة ، أى أرض القصور الحصينة والمعاقل ، وهى جزء من قطالونيا .

ثم تلا ذلك انقلاب من الانقلابات التى امتلأ بأمثالها تاريخ الدول الإسلامية ، إذ أعقبت وفاة الحاجب المنصور سنة ١٢٠٠ م سلسلة متلاحقة من الاختلافات التى ذهبت بجميع المحاسن السياسية فى دولة المسلمين بإسبانيا . فحارب الأمراء بعضهم بعضاً ، وتناحرت القبائل فيما بينها ، واختفت الخلافة الأموية ، وغدت قرطبة نفسها جمهورية . وسنحت الفرصة بـــذلك للمسيحيين أن يشمتوا ، وأن يفكروا فى العدوان السافر ، حتى قال قائل منهم فى الحاجب المنصور إنه

مات وهلك، وإن قبره فى جهنم وبئس المصير. (Mortus est Almanzor et Sepultus est in inferno)

لكن الدول المسيحية الإسبانية لم تستطع أن تتحد تمام الاتحاد ضدّ المسلمين، فى أية مرحلة من مراحل الحرب التى اشتد أوارها بينها وبينهم، منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى . ثم إن كلا من هذه الدول لم يكن بنجوة من التشتت والتقسيم والتفكك والاضمحلال ، تنفيذاً لوصية من وصايا الملوك الذين تدركهم الوفاة عن اثنين أو ثـــلاثة من البنين . ومع هذا استطاع ألفونس الرابع ملك قشتالة أن يفتح مدينة طليطلة ، سنة ١٠٨٥ م ، واستطاع ألفونس الأول ملك أرجونة أن ينتزع مدينة سرقسطة من قبضة المسلمين سنة ١١١٨ م ، وهذان انتصاران هامّان ترتبت عليهما سعة كبيرة فى رقعة المسيحية ، وامتداد واضح لسلطانها بشبه الجزيرة . لكن كلاً من هذين الانتصارين لم يعدُ أن يكون فوز ملك مستقلّ تختلف دولته عن دولة أخيه وجاره ، فى اللغة والمزاج وأساليب الحكم ، وليس أيسر بين هذا وذاك من التفاهم حيناً والتنازع حينا آخر ، من أجل توافه الاختلاف، ابتغاء المحافظة على الروح الإقليمية المحلية فى كل من هاتين الدولتين . والواقع إن الروح الإقليمية المحلية بلغت من العمق فى إسبانيا المسيحية بحيث لم يكن من المحتمل تعديلها وتغييرها ، إلا أن يجدّ على الإسبانيين المسيحيين جديد ، من دافع عام يدفعهم فى عنف إلى عمل مشترك يطغى على ما بينهم من اختلاف . غير أن هذا الدافع العام لم يوجد ، ولذا لا ينبغى أن يتصوّر أحد أن عصر الجهود المسيحية ضدّ المسلمين فى إسبانيا (Reconquista) لم يكن سوى سلسلة متصلة من الحروب الشديدة ، بين الهلال والصليب. ومن الدليل على ذلك أن المسلم فى أوج أيامه الإسبانية عاش رجلا متسامحاً فى الدين، مهذباً إلى أقصى درجات التهذيب، متحضراً غاية التحضر ، كما عاش المسيحى وقت ذاك مستجيبا للأخذ بأسباب الحضارة والصداقة ، وحسن المواطنة والجوار . وخيم السلام على المسيحيين والمسلمين فترات متعددة ، وتزاوجت بيوت إسلامية ملكية من بيوت مسيحية ملكية مثلها ، كما تزاوجت بينهما بيوت نبيلة . واشترك كثير من جند المسلمين وجند المسيحيين جنباً إلى جنب فى وقائع حربية عديدة ، فكان البطل الإسبانى المسيحى رودريجو دى بيڤار (١٠٣٤ — ١٠٩٩ م) — وهو النبيل القطالونى الذى اشتهر باسم السيد القمبيطور (Cid Campeador) — فى خدمة أحد الأمراء المسلمين سنوات كثيرة ، وذلك

قبل انقلابه إلى أهله الأصليين، واستيلائه على مدينة بلنسية من المسلمين. ثم إن سياسة التسامح التى عكفت الخلافة الأموية بإسبانيا على تطبيقها – إلا فى القليل النادر – هيأت للمسيحيين الإسبانيين العيش فى رغد وأمان، بأنحاء الدولة الإسلامية، كما أجازت لهم الدخول فى الجيش، فضلا عن الوظائف العليا فى إدارة الحكم.

ويتضح من هذا أن التوافق الزمنى بين عصر الجهود المسيحية ضد المسلمين فى إسبانيا وعصر الحروب الصليبية فى الشرق لم يكن محض الصدفة أو وليدها، ويكفى دلالة على استناد هذا التوافق إلى غير الصدفة البحتة أن مطلع الحروب الصليبية لا يبعد كثيراً من فتح المسيحيين الإسبانيين مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ م، وأن خاتمتها تقرب من استيلائهم على مدينة مرسية سنة ١٢٦٦ م. ذلك أن الحماسة التى أثارتها دعوة البابا إربان الثانى إلى الحروب الصليبية لم يقف تيارها أو ينكص عند جبال البرانس، بل امتد إلى إسبانيا المسيحية حتى شملها كلها بحرارته التى عمت أوربا جميعاً. وبذا ارتفعت درجة التعصب الإسبانى المسيحى إلى مستوى عال ثابت بعد أن بدت أحياناً تلو أحيان فى هبوط ملحوظ، بسبب التبادل الحضارى السالف بين الجانبين فى إسبانيا. وأعقب ذلك الارتفاع فى درجة التعصب الإسبانى المسيحى نشاط جديد فى ميادين النضال بين المسيحيين الإسبانيين والمسلمين، فدخلت فئات من الفرسان الفرنسيين والألمانيين والإيطاليين فى جيش ألفونسو السادس ملك قشتالة، وأسهمت فى الاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥ م، كما وصلت فئات من المغامرين الإنجليز والألمانيين إلى غرب أسبانيا فى طريقهم للاشتراك فى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية. وتجمعت هذه الفئات الثانية فى نهر التاجة، وعصفت بمدينة لشبونة سنة ١١٤٧ م، وقدمتها هدية إلى ألفونسو هنريك، أول ملوك البرتغاليين فى العصور الوسطى. وفى مملكة أرجونة، وفى مملكتى قشتالة والبرتغال كذلك، انتشرت الطائفة الديرية السسترشيانية[١] التى دعا إليها القديس برنارد من ديره الذى أقامه لنفسه فى كليرڤو[٢]، فتأسست أديرة سسترشيانية إسبانية كثيرة، على طول

(١)، (٢) نشأت هذه الطريقة الديرية أواخر القرن الحادى عشر ببلدة سيتو (Citeaux) بأواسط فرنسا الحالية، وهى (Cistercium) فى صيغتها اللاتينية الأصلية، ومن هذه الصيغة اللاتينية جاء الاشتقاق الوارد بالمتن. وانضم برنارد إلى هذه الطريقة أول عهده بالحياة الديرية، ثم أسس لنفسه ديراً تابعاً لنظامها بمدينة كليرفو (Clairvaux) شمال سيتو سنة ١١١٥ م، وأضحى هذا الدير بفضل حماسته وتنسكه أعظم الأديرة السسترشيانية فى العصور الوسطى. راجع كذلك ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب، ص ٢١٧ - زيادة.

الأطراف الفاصلة بين المسلمين والمسيحيين فى إسبانيا ، لتكون طلائع للمسيحية فى حروبها ضدّ الإسلام . وانضمّ إلى السسترشيانيين الإسبانيين ثلاث من أربع طوائف دينية إسبانية جمعت بين الديرية والجندية ، وهى كالاتراڤا وألكانتارا وإيڤورا (Calatrava, Alcantara,Evora) ، فأمدت هذه جيوش الإسبانيين المسيحيين فى حروبها الموشكة الاشتعال بجند قاموا بهجمات خاطفة على المسلمين . وللقيام بمثل هذا العمل تكوّنت طائفة شانتياجو ، وهى تختلف عن قريناتها من الطوائف فى طريقة نشأتها وسعة شهرتها .

وبينما استمدّ المسيحيون بشمال إسبانيا روحاً جديدة من الحماسة العامة التى أثارتها الحركة الصليبية ، تغيرت أوضاع المسلمين بجنوب شبه الجزيرة تغيراً كلياً مفاجئاً ، بسبب ما تدفق على أرضهم من هجرة فى موجتين متتاليتين من شمال إفريقيا . وحملت هاتان الموجتان إلى إسبانيا الإسلامية — عبر جبل طارق — جموعاً من البربر الذين لم يفقدوا شيئاً من حماستهم الإسلامية وشجاعتهم الأولى فى فيافى الصحراء الكبرى ، على حين استرخت حماسات العرب الأندلسيين فى دفء الفردوس الدنيوى الذى أنشأوه لأنفسهم فى قرطبة .

تفصيل ذلك أن العرب الأندلسيين استنجدوا بالموجة الأولى من أولئك البربر الأقوياء — وهم المعروفون باسم المرابطين — فجاءوهم جموع صاخبة وأنجدوهم ، ثم ما لبثوا أن سيطروا على جميع القبائل العربية الأندلسية التى طالما تنافست فيما بينها ، طمعاً فى انفراد واحدة منها بالسيادة على إسبانيا الإسلامية . وعلى يد يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين تلقى بطل طليطلة المسيحى — وهو ألفونسو السادس ملك قشتالة — ضربة قاصمة فى معركة الزلاقة (zallaca) ، يوم الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ؛ وتخلى المسيحيون للمسلمين فى أشهر معدودة عن كثير من البلاد التى استغرقوا فى الاستيلاء عليها بضع سنين . ولو أتاحت المقادير للمرابطين أن يوطدوا مراكزهم فى إسبانيا ، لبقيت هذه البلاد فى أيدى المسلمين بعيدة عن كل عدوان مسيحى لعدة قرون . غير أن موجة ثانية هبطت إلى إسبانيا من صياصى جبال الأطلس ، وتلك هى موجة الموحدين الذين فاقوا المرابطين الصحراويين فى العنف والبأس والقسوة ، والتزمّت فى الدين . واستولى أولئك الموحدون أولا على مراكش ، ثم انثالوا إلى إسبانيا ، فأخضعوا المرابطين لحكمهم ، وما زالوا حتى دفعوا تيار الزحف المسيحى مسافة بعيدة إلى الوراء ، أواخر القرن الثانى عشر

الميلادى ، وسحقوا جيشاً مسيحياً بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى وقعة الأرك (Alarcos) ، سنة ١١٩٥ م . ودلّت هذه الوقعة — كما دلت وقعة حطين ثمان سنين قبلها بفلسطين — على مبلغ النقص الذى ران على جهود أوربا المسيحية فى حروبها فى الشرق أو الغرب ضدّ المسلمين .

غير أن التزمّت الذى اتصف به الموحدون — والمرابطون قبلهم — لم يخلُ من فائدة مسيحية جاءت عن غير قصد ، وعادت على إسبانيا المسيحية والعالم المسيحى كله بمختلف النتائج الرابحة . ذلك أن العلماء من طوائف اليهود والمستعربين الإسبانيين — وهم الذين ذاقوا حلاوة الحرية العقلية فى ظلّ الدولة الإسلامية فى قرطبة ، فرّوا من وجه أولئك البربر القساة اليابسين فى الدين إلى بلاد المسيحيين الإسبانيين ، ولقوا من ملكى قشتالة وأرجونة المستنيرين كل إكرام وترحيب . وكان من بين العلماء الذين انتقلوا إلى إسبانيا المسيحية فئة ذات فضل عظيم فى زرع بذور الحياة الفلسفية والتفكير الفلسفى ، مثل ابن رشد وابن ميمون . وثمّة فئة أخرى ذات فضل عظيم آخر ، وهو إيصال التراث اليونانى القديم إلى غرب أوربا عن طريق ترجمته من اللغة العربية إلى اللاتينية ، فأدّت بذلك عملا متواضعاً بالقياس إلى الجهود الأوربية فى العصور الحديثة. وعكفت هذه الفئة الثانية على تأدية هذا العمل فى رضى وقنوع ، وهو على أية حال ليس بالعمل الضئيل ، بل هو رياضة عقلية ذات أهمية كبيرة فى مرحلة المعرفة التى بلغتها أوربا فى العصور الوسطى. ولذا ينبغى أن يعدّ من أحق مؤهلات ألفونسو السادس لمكانته فى التاريخ الأوربى أنه شجع يهود طليطلة على تكريس جهودهم لهذا العمل العظيم وسمح لهم بالعيش الآمن فى هذه المدينة التى ظلت حافظة طابعها الشرقى الإسلامى ، رغم عودتها إلى حكم المسيحيين الأوربيين .

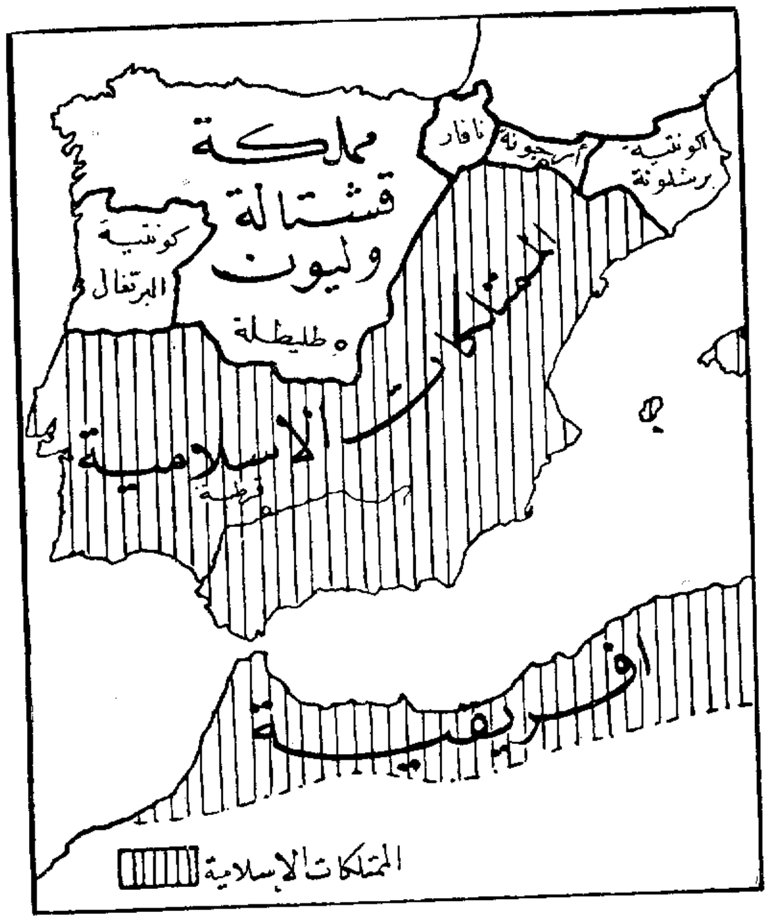
ومما يشيد هنا بمقام البابا إنوسنت الثالث ، وبصيرته السياسية النافذة فى شئون أوربا ، أنه لم يترك فرصة إلا انتهزها لدعوة الممالك المسيحية الصغيرة بإسبانيا أن تطرح عداواتها جانباً ، وأن تحزم قواتها فى حركة تكسح المسلمين من البلاد الإسبانية . ونجحت جهود البابا إنوسنت فى هذه الناحية أكبر نجاح ، إذ اتحدت أرجونة وناقار وقشتالة تحت لواء ألفونس الثامن ، ودلّت على فوائد الاتحاد ولو إلى حين قصير . بانتصارها العظيم فى وقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) ، يوم السادس عشر من شهر يوليه سنة ١٢١٢ م ، وهو

الانتصار الذى ضمن رجحان الكفة المسيحية ضدّ المسلمين فى إسبانيا العصور الوسطى . ثم أعقب ذلك أربـــع وخمسون سنة هى فى مجموعها أشدّ السنوات وأعظمها فى التاريخ الحربى الإسبانى ، إذ تتابعت فيها الانتصارات المسيحية بعضها تلو بعض ، بقيادة جيمس الأول ملك أرجونة والقديس فرديناند ملك قشتالة . واصطبغت هذه الانتصارات بصبغة صليبية عامة ، فوقعت بلنسية وجزر البليار فى أيدى جند الأرجونيين ، على حين دانت قرطبة وأشبيلية وجيان وقادس ومرسية لفرسان قشتالة ، وبذا أضحت أسبانيا كلها سنة ١٢٦٦ م فى قبضة المسيحيين وحظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، ما عدا غرناطة التى ظلت قابعة فى حمى جبالها الشاهقة المانعة نيفاً ومائتين من السنين .

عند ذلك — لا قبله — هدأت ثائرة الحروب التى ظلت مشتعلة النيران خمسمائة من السنوات ، وهى حروب كانت كلها إغارات خاطفة ، وأعمال تخريبية مفزعة ، فى غير خطط منسقة ، أو نظم مستقرة ، أو مؤن مرتبة ، أو أرض سهلة ، بل أرض معظمها جبلى وعر قاحل ، حيث "تهلك الجيوش الكبيرة جوعاً ، وتحلّ الهزيمة بالجيوش الصغيرة سريعاً" ، على قول الخبيرين بفنون القتال . وفى هذه الحروب التى ظلّ عمادها الخيالة الخفيفة ، قلت الوقائع الكبيرة إلا نزرا ، وفى فينات تفصل بينها مساحات زمنية طويلة . ولذا دأبت حركات الخيالة القطلانية على الالتفاف حول جيوش الطوائف الإسلامية لرميها بالنبال ، إبتغاء إحداث الهرج فى صفوفها ، وإفساد خططها ، وإلحاق الهزيمة بها فى هجوم فاجىء . وفى هذه الحروب كذلك قل المحاربون المخلصون ، وكثر الفارون الهاربون ، ولم يتردّد الفارس الإسبانى فى الرحيل عن ميدان القتال إذا هو علم أن الأسلاب المنتظرة لن تكون وفيرة ، أو مكافئة لجهوده . ونتج عن هذه الحروب — التى دارت رحاها المتعثرة فى مواضع متباعدة — نتائج ذوات أثر عميق فى المجتمع القطلانى ، إذ هجر القطلانيون قراهم وأراضيهم الزراعية خوفاً من عادية المسلمين ، فتكدّسوا فى المدن المسوّرة ، وأقاموا بها نظماً شعبية ، من حكم ذاتى واستقلال اقتصادى . وفى هذه المدن غدا راعى الغنم أهمّ من فلاح الأرض ، والحضرى أنفع من القروى ، والجندى والقسيس أكثر فائدة من التاجر والصانع . والواقع أن سرّ احتقار الإسبانى للزراعة ، واعتقاده الراسخ أن الذهب هو الثروة الحقيقية الوحيدة ، يرجع فيما يرجع إلى عهد الحروب الإسلامية المسيحية ، لاسترداد إسبانيا من المسلمين ، لأن هذه الحروب

أضافت إلى صعوبات حرث الأراضى الهضبية الحدباء بإسبانيا الوسطى صعوبة جديدة ، بما أحدثت من خوف وقلة أمن بين الفلاحين .

وفى أثناء هذه الحروب التى اصطبغت بصبغة صليبية عامة ، بدا كأن فى وسع إسبانيا المسيحية أن تستبدل اختلافاتها الفاصمة بين دولها المتعددة بوحدة



إسبانيا الإسلامية

شاملة لشبه الجزيرة كلها ، وأن تجعل من وقعة العقاب درساً مفيداً ، وأنه إذا استحالت الوحدة فليكن نوع من الاتحاد المسيحى فى حيز الإمكان . غير أن واحدة من الدول المسيحية الإسبانية لم تغتنم هذه الفرصة، بل ذهب كلٌّ من ممالك البرتغال وقشتالة وأرجونة وناڤار فى سبيله المستقلّ ، واتبع كلٌّ منها هواه الخاص ومنفعته الخاصة ، وتلهى بالفتن الداخلية والمطامع الخارجية عن التفكير فى خطة

لوحدة إسبانية أو اتحاد أيبيرى . ومن الأدلة على ذلك أن ناڤار الممتدّة على جانبى جبال البرانس فضّلت أن تكون ضالعة مع فرنسا ، وأن أرجونة ضلعت مع صقلية ونابلى وسردينيا وجزائر البليار ، وانصرفت إلى تنمية متاجرها فى البحر الأبيض المتوسط ،وتوثيق علاقاتها الثقافية والتجارية المتنوعة فى إقليم پروڤانس بفرنسا ، لا إلى الاستيلاء على غرناطة الإسلامية ، وهى التى لم يفصلها عنها سوى مرسية التابعة لمملكة قشتالة ، ولا إلى التدخل فى شئون جاراتها الغربية ، أى مملكة قشتالة . أما البرتغال فقامت على ساحل المحيط الإطلنطى مقام أرجونة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، والقياس مع الفارق ، إذ بدت ميناؤها لشبونة أقل تجارة من برشلونة ، كما بدت البرتغال نفسها خلف الجبال المحيطة بها كأنها مولية ظهرها لإسبانيا الوسطى ، أى قشتالة ؛ وبسبب هذه الجبال المانعة ظلّ البرتغاليون والقشتاليون بمعزل بعضهم عن بعض إلا قليلا ، وذلك برغم ارتباط البرتغال أحياناً كثيرة برباط المصاهرة مع أسرة قشتالة الملكية .

وفى وسط هذا المعترك الأيبيرى الواسع ، وقفت قشتالة منعزلة بهضبتها عن جميع جاراتها ،شامخة عليهم ، لكنها خاضعة لسيطرة كنسية شديدة ، جاهدة قدر استطاعتها أن تهضم فتوحاتها المتتالية ، وأن تتمثل ما خلفته حروبها الطويلة ضدّ المسلمين من عبء ثقيل ، وهو طوائف الهيئات الدينية العسكرية ذوات الضياع الزراعية الهائلة ، ومظاهر السيطرة الكنسية الهائله ، فضلا عن اليهود والمسلمين والمستعربين الذين لم يعودوا ذوى موضوع فى دولة غدت فى غير حاجة لوجودهم ، بل عادوا من المغضوب عليهم وسط أمة أرستقراطية متغطرسة باسلة ، مزهوة بما أدّته للمسيحية من خدمات ضدّ المسلمين . غير أن ملوك قشتالة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى لم يكونوا كفأ للنهوض بأعباء الحكم فى دولة هذه مشكلاتها وصعوباتها ، بل بلغ من سوء الإدارة وفساد الحكم فى قشتالة على عهد أولئك الملوك أن الأداة الوحيدة لحفظ الأمن فى البلاد اقتصرت على عصبة من الطوائف (Hermandad) . ومع هذا كله لا يستطيع الباحث فى مظاهر الحياة القشتالية ولغتها وآدابها وفنونها إلا أن يجد كثيراً مما يوجب الالتفات ، فضلا عن الإعجاب بوجوه النشاط التى تقلبت فيها الأمة القشتالية خلال هذه السنوات ، مثل تدرج اللغة بين الخاصة نحو الكمـال ، ووفرة الأغانى المنظومة والقصص المنثـورة التى امتلأت بأخبار الفروسية (Libros de Caballeria)

وانعكست على صفحاتها أحوال طبقة الفرسان وأخلاقها ومستويات سلوكها ، ومثل الكتدرائيات الشاهقة السامقة التى بنيت على الطراز المعروف باسم الطراز القوطى ، وأشرف على بنائها مهندسون فرنسيون . ولكن كيف يستقيم لمؤرخ أن يدرس تاريخ قشتالة على عهد الملك بطرس الغشوم (١٣٥٧ — ١٣٦٧ م) ، حين جيء بالفرنسيين والإنجليز للتدخل فى حرب أهلية بين الملك وإخوته ،أو يتتبع الصخب أيام أخلافه الثلاثة ، ليمهد منها تمهيداً تاريخياً لعصر العظمة الذى اشتهرت به قشتالة فى ميدان السياسة . الواقع أن قشتالة ، أو إسبانيا على وجه التعميم — من باب إطلاق الجزء على الكل — ، لم تستمد عظمتها من صاخب الاضطرابات الطائلة ، بل من هادىء الدراسات الجغرافية التى عكفت عليها طائفة مغمورة معظمها من اليهود العارفين برسم الخرائط فى قشتالة وجزيرة ميورقه ، ووضعت بذلك جميع القواعد العلمية المؤدية لتأسيس إمبراطورية إسبانية فيما وراء البحار .

وبعد ، فمن الحق أن يقال هنا إن العبقرية العربية لم تسهم إلا نصيباً محدوداً فى حضارة إسبانيا الإسلامية فى العصور الوسطى ، لأن الفاتحين المسلمين الذين مكنوا للعرب والترك والبربر فى إسبانيا لم يفتحوا بلاداً همجية مجدبة ، بل بلادا سكنها الرومانيون قروناً بعد أن نظموها تنظيما بقيت آثاره واضحة المعالم ، رغم ماأصابها من صدمة الجرمانيين — الونداليين والقوطيين الغربيين والسويقيين [١] وغيرهم ، منذ القرن الرابع الميلادى . وفى محيط هذه الحضارة الرومانية الجرمانية التليدة جاء الفاتحون المسلمون بتيارات فكرية عذبة من دمشق والقاهرة وبغداد ، فأدخلوا اللغة العربية وآدابها فى إسبانيا ، ونشروا القرآن فى بلادها ، وأضحوا سبيل الوصل مرة أخرى بين أوربا ومنابع العلوم والفنون فى الشرق ، حين سُدّت سبل الاتصال بين الغرب والشرق . على أن سرّ قوة العرب هو أن حضارتهم لم تكن عنصرية بل دينية ، وأنهم برغم ما اشتهر عنهم من مغالاة فى الترف لم يبلغ بهم العناد أن يجعلوا لأنفسهم سيادة على سائر المسلمين بإسبانيا . ولذا لم تأت الهجرات الإسلامية الجديدة إلى إسبانيا من العرب أهل شبه الجزيرة العربية ، بل من البربر سكان إفريقية الشمالية ، كما أن النساء والجوارى اللائى عمرت بهن قصور الأمراء العرب فى إسبانيا لم يأتين من بلاد العرب ، بل من أقاليم إسبانيا المسيحية التى دأب المسلمون

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٥ — ٤١ . زيادة .

على غزوها مرتين سنوياً ، من أجل الرقيق والمال . ومن هذا يتضح أن النقاء العنصرى لم يكن مما استهدفه أو سعى إليه الفاتحون المسلمون ، إذ تزوّجوا من الإسبانيات ثيبات وأبكارا ، واستخدموا أطباء من اليهود ، ولم يحجموا عن استجلاب مهرة الفنانين والصناع البيزنطيين لزخرفة مساكنهم وقصورهم الباذخة ، كما اعتمدوا فى زراعة الأرض على طبقة الفلاحين الوطنيين الذين ترجع أصولهم – فى الأندلس على الأقل – إلى أيام الدولة الرومانية فى إسبانيا .

أما إسبانيا المسيحية – وهى بلاد غنية بكنائسها وأديرتها البديعة ، فبدت إقليما فرنسياً من حيث عمائرها وفنونها المعمارية . ومرجع ذلك أن الأديرة الإسبانية سارت وفق الطريقة الكلونية [1] منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم خضعت فيما بعد للطريقة السسترشيانية [2] ، وكلتاهما فرنسى . ولذا كانت جميع العمائر الدينية الإسبانية فرنسية الطراز ، ما عدا عمائر قشتالة ذات الطرز البيزنطية واللومباردية . الواقع ان الكاتدرائيات العظيمة فى مدن برجوس وطليطلة وليون بُنيت على طرز فرنسية ، بأيدى فنانين فرنسيين ، ولم يسهم الإسبانيون فى بنائها إلا بدعوة أولئك الفنانين الفرنسيين إلى إسبانيا ، وبنفقات البناء . وعلى الرغم من ازدياد هذه العمائر الإسبانية فى العصور الوسطى ، لم يلمع المهندسون الإسبانيون فى ميدان العمارة إلا نهاية القرن الخامس عشر الميلادى . وفى فنون الزخرفة – وهى النقش والتذهيب وعمل الزجاج الملون والتصوير – رضى الإسبانيون فى غير غضاضة أو مرارة أو حياء أن يتركوا ميادينها للفنانين الأجانب ، حتى إذا غدت مدريد (التى لم تكن سوى قرية لاجتماع هواة الصيد فى العصور الوسطى) عاصمة لمملكة ذات إمبراطورية عظيمة فيما وراء البحار ، أمعن ملوكها الهابسبورجيون فى دعوة الفنانين الأجانب ، واجتذابهم إلى إسبانيا بمختلف الإنعامات الملكية وغيرها من وسائل الإغراء ، للإقامة حول البلاط الإسبانى . وبذا توفرت النماذج العالمية للإسبانيين فى بلادهم ، لينسجوا على منوالها حسبما تثيره فى نفوسهم بدائع المصوّر الإيطالى تشيان (Titian) فى مدريد ، أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وفنانة المصور اليونانى الأصل إلجريكو (El - Greco) فى طليطلة ، أوائل القرن السابع عشر الميلادى . غير أن نهضةً إسبانيةً واسعة فى فن التصوير لم تظهر أو تنمو ، وربما كان مرجع

---

(١) انظر ما سبق هنا بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢١٦ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا بهذا الفصل ، ص ٣٩٠ ، حاشية ١ . زيادة .

ذلك احتقار الإسبانيين لريشة المصوّر وفرجونه وقماشه وألوانه ، أو لرخص أثمانها ؛ أو ربما كان مرجعه غلبة التديّن القاتم والصرامة الدينية على مزاج الإسبانيين ، مما جعل التصوير صالحاً عندهم لمواضيع معينة فحسب ؛ أو ربما كان مرجعه أن إيناع الفنون فى بلد من البلاد ــ كائنة ما تكون ــ لا يتأتى إلا حيث تتوفر حرية الفكر والخيال . ولذا كان المصور الإسبانى ڤلاسكويز (Velasquez) فلتة من فلتات الزمن ، وهو على أية حال لم يدعُ إلى مذهب خاص أو مدرسة خاصة فى التصوير ، ولم يتقيد بتقاليد السابقين أو نظرياتهم فى صوره ، بل صوّر ما رأى بعينيه ، فى غير زيف أو رمزية أو مبالغة ، وعاش فى فنه وعصره (١٥٩٩ ــ ١٦٦٠ م) وحيداً بين الإسبانيين .

بعض المراجع لهذا الفصل

Altamira y Crevea, (R.) : Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola. 1902.

Cambridge Medieval History. Vol. VI. Chap. XII.

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides .1861.

Havelock Ellis, (H.) : The Soul of Spain. 1908.

Lomis Bertrand and Charles Petrie : The History of Spain. 1934.

Madariaga, (S.) : Spain. (Nations of the Modern World Series). 1930.

Merriman, (R.B.) : Rise of the Spanish Empire. (London, 1918-1925).

Tyler, (R.) : Spain, A Study of her Life and Arts. 1909.

الفصل الرابع والعشرون

روسيا والعصور الوسطى

عزلة روسيا — الجاليات اليونانية القديمة بها —وصول الشماليين نهر دنيبر — الزعيم الروسى ڤلاديمير والديانة المسيحية — أثر الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية فى روسيا — أعمال الشماليين — غزو المغول روسيا — حكم مغول القبيلة الذهبية وآثاره الباقية — موسكو وأدواقها العظماء — ظهور دولة لتيوانيا — هزيمة المغول فى وقعة كُوليكوڤو ، سنة ١٣٨٠م— مولد الأمة الروسية — إيڤان الكبير (١٤٦٢—١٥٠٥) — التراث البيزنطى فى الحضارة الروسية .

* * *

ظلّ سكان السهوب والبرارى الروسية[١] على فطرتهم الهمجية الأولى، طوال العصور الوسطى وما تلاها من العصور ، فعاشوا عيشة بعيدة عن الأفكار والمثل والظواهر الحضارية التى شكلت حياة الشعوب اللاتينية والتيوتونية . فى هذه السهوب والبرارى الأوربية الأسيوية ، لم يكن ثمة متسع للفلسفة اللاتينية القديمة، أو الفلسفة الإسكولائية (المدرسية) التى أنجبتها العصور الوسطى ؛ ولم يكن ثمة مكان لشبه ما نشأ بغرب أوربا فى تلك العصور من جامعة باريس أو برلمان وستمنستر .

ثم إن الحركات الكبرى التى هزت غرب أوربا لم تعنِ روسيا فى قليل أو كثير ، فلم يعرف الروسيون القابعون فى بلادهم البعيدة شيئاً من حوادث النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية ، وهى حوادث اشتعلت خلالها وبسببها جذوة من

(١) من الضرورى لفهم موضوع روسيا فى هذا الفصل أن يدرك القارىء أولا أن لفظ روسيا لم يوجد فى لغة من اللغات الأوربية أو غيرها ، للدلالة على البلاد المعروفة الآن بهذا الاسم ، إلا إبان القرن التاسع الميلادى ، وأن المؤلف استخدم لفظ روسيا تجوزاً فيما كتب عن أحوالها قبل ذلك القرن ، وأن معظم الروسيين أهل روسيا الحالية من الصقالبة ، أو بعبارة أدق من الصقالبة الشرقيين ، تمييزاً لهم من الصقالبة الغربيين الساكنين ما هو الآن بولندا وبوهيميا وتشكوسلوفاكيا . انظر ماسبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١١٥ — ١١٦ .وكذلك ما سبق هنا بصدد الصقالبة، ص ٣٦٧حاشيه١ ، فضلا عما يلى هنا فى هذا الفصل كذلك . زيادة .

الجدل السياسى الذى تكشفت فى ضوئه أصول الدولة وكينونتها . ولم يمسس أولئك الروسيين كذلك شيء من حركة إحياء العلوم القديمة ، وهى حركة بعثت حياة جديدة فى عقول أرباب الثقافة بغرب أوربا ، كما لم تمسسهم حركة الإصلاح البروتستانتى التى نجحت نجاحها بفضل ملوك أوربا الغربية وأمرائها ، وغيّرت معالم الكنيسة الكاثوليكية وجغرافيتها . وكما حيِيَ الروسيون حياتهم الروسية بعيدين عن الحضارة اللاتينية والدراسات الإسكولائية التى عكفت عليها العصور الوسطى ، وكما برئ تاريخهم مما يشبه برلماناً أو جامعة أو أدباً دالاً على جدل سياسى شديد، أو تحدٍّ جدّىّ لبعض التقاليد الدينية اليابسة ، فإنهم ظلوا بنجوة من الحروب الدينية التى ملأت أوربا الغربية مائتين من السنين ، وصقلت الأوربيين الغربيين وصهرت أخلاقهم صهراً باقياً على مر القرون . والخلاصة أن روسيا ظلت نائمة فى عزلة شرقية ، دون أن تشعر أو تتأثر بتجربة واحدة من التجارب الروحية الحاسمة فى التاريخ الأوربى العام .

وللجغرافيا نصيب أو بعض نصيب فى تعليل هذه الحال ، فإن روسيا ذات الأرجاء الشاسعة المترامية ، والجو العنيف المزعج ، حيث الجفاف محرق فى شمس الصيف ، والبرد قارص بسبب مايكسو الأرض من جليد الشتاء ، لم تكن مما تجتذب إليها أحداً سوى أهلها الذين خالوها عالما مستقلا بذاته . وأثقلت الطبيعة القاسية أهل روسيا بأعباء جهيدة شاقة لم تَدَع فى نشاطهم رمقاً لحياة فكرية رفيعة ، أو نظام اجتماعى عالى المستوى . فمنطقتها الغابية لا تنبت القمح ، ومنطقتها الزراعية لا تنتج الأخشاب ، ومنطقتها السهوبية الخضراء سهل غير ذى شجر أو زرع ، ما عدا حشائش للرعى فى الربيع . ولذا بات أقصى ما استهدف الروسى فى العصور الوسطى أن ينجح فى تعمير ناحية من أرض واسعة بدت دائماً لاتساعها خالية ، كما بدت لانبساطها اللانهائى مغرية بحركة دائمة ، وهى حركة لم يستطع إيقافها سوى استقرار القنية[١] (Serfdom) فى الحياة الروسية . أما مدى نجاح الروسى فى الوصول إلى هذا الهدف ، فتقديره متروك للخيال والتخمين ، لأن جميع ما أسهمت به الأيدى العاملة بالمسحاة والفأس والفالة فى أرض روسيا لم يسجله

---

(١) انظر كوبلاند : الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ، ص ٢٤ . (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦) . زيادة .

التاريخ ، بل تتابعت من هذه الأيدى العاملة أجيال تلو أجيال دون أن تترك أثراً في مؤلفات المؤرخين . ومن البديهى أن كلا من هذه الأجيال لم يخلُ من عمل دائب فى إزالة الغابات ، وبناء المدن والقرى من الأخشاب (لانعدام الأحجار) فى هذه الأراضى غير الصخرية ، ثم احتراق هذه المدن فى عاصفة من العواصف الجوية ، ثم بناؤها من الأخشاب كرة أخرى ، وذلك على حين عكفَ عمال الغابات على نقل ما يقطعون من شجر فى مياه الأنهار الجارية ، وزرعَ الفلاحون أرضاً خصبة سوداء هى مخزن الغلال منذ العصور القديمة ، وعلى حين راحَ الرعاة يمرحون فوق ظهور جيادهم الصغيرة فى مائج الحشائش السهوبية بجنوب روسيا ، كما راحَ إخوانهم فى روسيا الشمالية يشنون حرباً على الذئاب والدببة والسمور . هكذا حَيِى الروس الأولون يصارعون الطبيعة التى جعلت منهم قوماً مزاجه الخشونة والعنف ، وسرعة الانفعال وحدة الطبع ، وهكذا حيُوا وتكاثروا ، وكدوا واعتركوا ، وماتوا فى دامس الظلام المجهول ، قبل أن يدركوا مطلع الفجر من تاريخهم .

ثم تمخض هذا الظلام الدامس عن فجر التاريخ الروسى يطلع حول شواطىء البحر الأسود ، حيث توطنت مجموعة من الجاليات اليونانية القديمة ، وهى أولبيا وخرسون وبنتيكابيوم وغيرها . وخلقت هذه الجاليات حركة تجارية واسعة ونشاطاً فنياً زاهراً ، كان لهما أعظم أثر فى حضارة القبائل السيثية الساكنة قبل أولئك اليونانيين حول شواطىء البحر الأسود فى العصور القديمة . على أن هذه الحضارة التى أينعت ثمانية قرون (من ٤٠٠ ق . م إلى ٤٠٠ م) . ودلت بدائعها المختلفة على مبلغ ذوقها الرفيع ، لم تلبث أن غدت أثراً بعد عين ، بسبب ما غلب عليها من غزوات المتبربرين . وكيف يكون الأمر غير ذلك ، بل كيف يكون من المحتمل أن تظل الثقافة اليونانية على حالها بخرائب هذه المدن اليونانية المبعثرة على شواطىء البحر الأسود ، أو أن تبقى بها مدرسة يتعلم فيها الناشئة من اليونانيين والسيثيين ملاحم هوميروس وخطب ديموسثينيز ، بعد أن تهدمت هذه المدن تحت أقدام السارماتيين والآڤاريين والقوطيين والهون ، وهم فى طريقهم نحو غرب أوربا . الخلاصة أن ما كان متوقعاً حدوثه من اتصال الروسيين بآداب اليونانيين الأقدمين وفنونهم لم يكد يحدث حتى تلاشى فجأة ، ولم يتجدد بعد ذلك أبداً .

يتضح من ذلك أن الروسيين فى العصر الحاضر لا يدينون إلى هذه الجاليات اليونانية القديمة بشىء سوى ما تبقى من آثار هذه الجاليات فى المتاحف الروسية ،

وأن العوامل التى يرجع إليها الفضل فى أول نوع من الحكومة بين الروسيين (والمقصود بذلك الروسيون الصقالبة) لم تكن يونانية بل اسكنديناوية ، وهذه لم تأت عن طريق سواحل البحر الأسود ، بل عن طريق الأنهار العظيمة الواصلة بين البحر البلطى والبحر الأسود. فى ثنايا هذه الأنهار ومنحنياتها — ولا سيما نهرى نيڤاودنيپر — بنى السكندناويون محطات تجارية لأنفسهم ، منذ القرن الأول الميلادى ، فيما يبدو. واستقرت حول هذه المحطات جموع روسية عظيمة فى القرن الثامن الميلادى ، بعد طول تنقل من جنوب روسيا إلى وديان نهر دانوب ، ومن وديان نهر دانوب إلى جبال الكربات . وأخذت هذه الجموع الروسية منذئذ تتجر مع السكندناويين فى منتجات الغابات ، من الفراء وعسل النحل وشمع العسل. ثم تطورت هذه المحطات إلى مدن ذات حكومات مستقلة ومتاجر ضخمة ، وبسبب ما تعرضت له متاجر هذه المدن من عادية القبائل التركية والخزرية والمجرية كذلك ، وبسبب ما تعثرت به المدن نفسها من منازعات داخلية ، استدعت حكوماتها السكندناوية فئات من شجعان الشماليين السويديين السكندناويين ، لتقوم على الأمن وجمع الضرائب وحماية القوافل[١] .

ومن هذه الفئات يبدأ تاريخ روسيا ، وأهمها فئة الزعيم رُورِك (Ruric) وأتباعه الذين سماهم جيرانهم الأصليون فى فنلندا قبل رحيلهم جنوباً باسم روتسى[٢] ، وهى تسمية لصقت بهم وصارت علماً جغرافياً على جميع البلاد التى حلوا بها منذ سنة ٨٦٢ م ، وتلك عدا تسميتهم باسم الڤارانجيين[٣] ، ومعناها الأحلاف فى لغات الشماليين . ذلك أن جميع الأنهار والبحيرات الممتدة بين البحر البلطى والبحر الأسود لم تلبث أن غدت فى قبضة أولئك الشجعان الشماليين ، بعد أن ثبتوا أقدامهم فى نوڤجورود وكييڤ ، وأسسوا تجارة واسعة فى الرقيق ، وبنوا أساطيل وجيوشاً وإمارات ، وظلوا يغامرون بأنفسهم أقصى مغامرة فى جرأة منقطعة النظير ، فأغاروا

---

(١) عبارة المؤلف هنا على أهمية موضوعها شديدة الاختصار ، مما لا يحتمل تعويضه فى حاشية طويلة ، ولا سبيل إلى شرحه إلا بالقراءة الواسعة فى (Camb. Med. Hist. Vol. IV. pp. 199 et seq.) ، وغيره من المراجع الخاصة بأصول تاريخ روسيا . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١١٥ . زيادة .

(٣) انظر (Camb. Med. Hist. Vol. IV p. 199) ، لمعرفة تفاصيل مجىء الفارانجيين إلى ما هو الآن روسيا الحالية . زيادة .

على القسطنطينية ست مرات[١] ، كما حاولوا فتح بلغاريا . ورضى الصقالبة منذ القرن التاسع أن يطلق عليهم اسم روتسى ، نسبة إلى أولئك الشجعان الذين حموا المتاجر السويدية عبر الجنادل السبعة فى مجرى دنيبر الأدنى ، وساعدوا الصقالبة فى تصريف منتجاتهم من العسل والشمع والفراء ، وتجرأوا على الإمبراطور البيزنطى فى عاصمته القسطنطينية ، ونالوا بحد السيف من هذه العاصمة المتكبرة أنواعاً وألوانا من الامتيازات التجارية . ومن أولئك الشجعان كذلك تعلم الصقالبة مبادىء الحياة السياسية فى ظل دولة ، ومنهم كذلك عرفوا فوائد النظام الذى يكتسبه المجتمع من الدين ، بعد أن اعتنقوا معهم المسيحية على النمط الأرثوذكسى البيزنطى ، وهو النمط الذى يجعل الدولة صاحبة السيطرة على الكنيسة .

أما كيف كان دخول المسيحية روسيا فيبدو أولا أنه تمّ على يد ڤلاديمير ، دوق كييڤ (٩٨٥ — ١٠١٥ م) ، وهو سليل رورك ، ويضرب به المثل فى الوحشية والشهوانية ، إذ جاء إلى الدوقية فوق جثة آخر إخوته ، واقتنى من النسوة ثلاثة آلاف وخمسمائة[٢] . على أن هذا وذاك كله لم يمنع من تسجيله قديساً فى عداد القديسين بالكنيسة الأرثوزكسية البيزنطية ، لأن الرجل الذى جعل من كييڤ مدينة مسيحية ، وجعل من الروسيين شعباً على دين المسيح ، زعيمٌ بغفران ذنوبه ، ما تقدم منها وما تأخر . ويقال فيما يقال إنه تراءى لهذا المتبربر القدير فى مرحلة من مراحل حياته الصاخبة أن يفحص لنفسه أصول الديانات الكبرى ، وأنه كره الديانة الإسلامية لا لسبب سوى أنها تحرم الخمر ، وقال ، "الخمر لذة الحياة عندنا نحن الروسيين ، ولا معنى للحياة عندنا بغير هذه اللذة" ، فلما ردّ عليه أحد الكاثوليكيين بقوله "ما يأكل الإنسان أو يشرب دليل على عظمة الله" ، أسكته ڤلاديمير بقوله "إن آباءنا لم يسيروا على مثل هذا المبدأ" ، ولم يرَ فى الكاثوليكية الرومانية ما يغريه بها أو يشتهيه . وعندما أجابه أحد اليهود فى خجل وحسرة بأن بيت المقدس فى أيد أجنبية ، عقب ڤلاديمير على إجابته بقوله "لو أن الله أحبكم

---

(١) يرجع اتصال الروسيين بالمسيحية إلى أول إغارة من هذه الاغارات وتاريخها سنة ٨٦٠م . (Camb. Med. Hist. Vol. IV p. 207) ، وينبغى أن تكون العبارات الواردة هنا بصدد دخول المسيحية أرض روسيا مفهومة على هذه القاعدة . زيادة .

(٢) راجع (Camb. Med. Hist. IV p. 208) ، حيث ورد أن عدد أولئك النسوة اللاتى اختارهن ڤلادمير لنفسه ، بالإضافة إلى خمس زوجات شرعيات ، لم يكن سوى ثمانمائة ، وهو عدد أقرب إلى الاعتدال . زيادة .

وآباءكم ما كتب عليكم أن تشتتوا فى الأرض . هل تريدنا أن نكون يهوداً ، ليكون مصيرنا مصيركم؟" . لم يبق لدى ڤلاديمير بعد ذلك سوى المسيحية الأرثوذكسية ، وكنيستها البيزنطية ، وإيقوناتها المقدسة ، وزخارفها من الفسيفساء ، وتراتيلها الموسيقية الخاشعة ، ومباخرها الفائحة بالبخور ، وطيالسها الإكليروسية الفاخرة ، وصلواتها النظيمة ، وطقوسها الجليلة ، مما حملت أخباره وفود المبشرين البيزنطيين إلى كييف . ثم أرسل ڤلاديمير وفداً من رجاله إلى القسطنطينية ، ليروا رأى العين ما وصل إليه من هذه الأخبار عن طريق السماع ، فامتلأت قلوبهم إعجاباً بما شهدوا فى أيا صوفيا وصلواتها وقداساتها من الجلال ، وكتبوا إلى ڤلاديمير يشيرون عليه باعتناق المسيحية الأرثوذكسية دون غيرها من الديانات ، فإنهم رأوا المسلمين فى بعض بلادهم ولم تعجبهم حالهم ، وهذا هو نص ما كتبوا لدوق ڤلاديمير : "ومررنا فى طريقنا إلى القسطنطينية ببلاد البلغار المسلمين (شمالى بحر قزوين) ، ورأينا كيف تكون صلاتهم فى معبد يسمونه مسجد ، حيث يقفون صفاً صفاً ، ثم يركعون ويسجدون ويجلسون ، حتى إذا انتهوا من الصلاة تلفتوا يمنة ويسرة كأنما مسهم الجن ، وحياتهم خلو من البهجة ، طافحة بالكآبة والرائحة ، ولاخير فى دينهم[1] . ولما ذهبنا إلى الألمانيين رأيناهم يحتفلون الاحتفالات الكثيرة فى معابدهم الوثنية غير أننا لم نشهد بينهم ما يثير روعة أو[2] جلالا . ثم ذهبنا إلى القسطنطينية حيث أرشدنا البيزنطيون إلى عمائر شاهقة يعبدون فيها ربهم ، فلم ندرِ أإلى السماء ارتفعنا أم ظللنا على وجه الأرض" .

وإذ استقر الرأى على اعتناق المسيحية الأرثوذكسية عكف ڤلاديمير على إنفاذ قراره فى سرعة القرصان المتجبر ، فأمر ونادى بالدعوة إلى المسيحية بين الروسيين ، واستولى على مدينة خرسون وهى درة فى تاج الإمبراطورية البيزنطية طالما طمعت فيها دوقية روسيا . وهدد ڤلاديمير صديقه الإمبراطور باسل الثانى المقدونى بتخريب خرسون وإبادة أهلها عن آخرهم ، إلا أن يزوجه

(١) تدل هذه الإشارات الساذجة على بساطة أولئك المبعوثين الروسيين ، وعدم إدراكهم لشيء من المعنويات العالية فى الدين ، على عكس المباخر والطيالس والزخارف التى استولت على عقولهم ومشاعرهم ، لأنها مرئيات مادية . زيادة .

(٢) يبدو من هذه العبارة أن المبعوثين الروسيين زاروا ألمانيا الشرقية ، حيث كانت الوثنية — لا الكاثوليكية المسيحية — سائدة بين الألمانيين الشرقيين ، وجيرانهم الصقالبة السلافيين ، وقتذاك . زيادة .

الإمبراطور من أخته الأميرة آن . وأفلح التهديد ، وتغلبت مصلحة الإمبراطورية على امتناع الأميرة ، وتمّ الزواج بمدينة خرسون سنة ٩٨٨ م، وتمّ معه تعميد ڤلاديمير ؛ وبذا صار القرصان الوثنى المغامر بعلاً مسيحياً لسليلة المجد الإمبراطورى التليد . ثم رجع ڤلاديمير إلى كييڤ ، وقلبه عامرٌ بحماسة الحديث العهد بالدين ، فأمر اثنى عشر رجلا من رجاله الأشداد بكسر صنم الإله نِرُوْن، وهو أحب الآلهة إلى الصقالبة وأوسعها نفوذاً لديهم ، كما أمر بتعميد أهل دوقية روسيا كلهم مرة واحدة فى مياه نهر دنيبر ، ووطد النية على أن يجعل كييڤ مدينة حافلة بالكنائس المسيحية ، بارزة فى العالم البيزنطى بروائعها المعمارية .

ولاعتناق المسيحية على النمط الأرثوذكسى البيزنطى الشرقى — لا الكاثوليكى اللاتينى الغربى — أهمية بالغة فى تاريخ روسيا . ففى الغرب اللاتينى انفصلت السلطة الكنسية عن السلطة السياسية ، على حين ظلت الكنيسة جزءاً من الدولة فى الإمبراطورية البيزنطية . وفى الغرب اللاتينى تولد التفكير فى الحرية الفكرية من التصادم بين الإمبراطورية والبابوية ، على حين أن التجربة البيزنطية لم تنتج سوى الرضوخ لمشيئة الإمبراطور . على أن الكنيسة البيزنطية جلبت معها إلى روسيا فوائد كثيرة لا سبيل إلى إنكارها ، من موسيقى دينية وأدب ومعمار بديع ، ومستوى نظيم فى شئون الحكم ، وآراء ناضجة فى القانون الجنائى الذى حفلت به مجموعات جستنيان العظيم وباسل الأول المقدونى ، فضلا عن قيم أخلاقية عالية ، وهى قيم تتحلى بها المسيحية كائنة ما تكون كنيستها ، وتختلف تمام الاختلاف عن سائد العرف بين الروسيين قبل أن يصبحوا أرثوذكسيين . ومن الدليل على ذلك أن النضال ضد تعدّد الزوجات فى روسيا المسيحية ، وهو نضال طويل عسير ، لم يلق ما لقى من نجاح مجزوء إلا بفضل الكنيسة الروسية الأرثوذكسية وحدها . ونظراً لتأخر الروسيين ثقافياً وقتذاك ، أفادت كنيستها فوائد جمة باضطرارها إلى استخدام اللسان الروسى فى صلواتها وقداساتها وتراتيلها ، وبذا بدت كنيسة قومية خالصة ، لا فرعاً من كنيسة عالمية . غير أن هذه الفوائد كلفت روسيا ثمناً باهظاً ، وهو عزلتها التامة عن غرب أوربا ، وانفصالها عن الصقالبة الغربيين أهل بولندا وبوهيميا ، فضلا عن عجز كنيستها — بسبب ما جبلت عليه من خضوع للدولة — عن أن تخلق فى روح الأمة الروسية قوة أو رغبة فى معارضة استبداد الحكام ، أو التصدى لإنصاف المحرومين والمستضعفين من طبقات المجتمع الروسى ، فى العصور الوسطى .

وليس عجباً أن تظل الحال على هذا المنوال فى روسيا العصور الوسطى ، ما دام حكامها من سلالة روريك يعتقدون أن الإمارة فى الدوقيات الروسية على اختلاف مراتبها إرث لا يتجزأ، بل يتوزعه أبناء الأسرة الحاكمة على قاعدة السن ، بحيث يكون الأكبر سناً هو الأعظم جاهاً والأوسع سلطاناً ، مما جعل كل توزيع جديد مجالا لترقيات فى الأقدمية بحسب السن ، فضلا عن ضغائن واختلافات لا انتهاء لها[1] . ومن هذا يتضح كيف كان من المستحيل أن تقوم بين دوقيات نهر دنيبر دولة ثابتة الأوتاد ، برغم مجىء دوق ياروسلاف إلى عرش الدوقية الروسية فى كييڤ سنة ١٠١٥ م ، وهو الذى اشتهر باسم القانونى .

ثم أعقبت وفاة ياروسلاف القانونى هذا سنة ١٠٥٤ م مرحلة طفحت روسيا أثناءها بحروب متواصلة بين أبناء الأسرة الحاكمة، من أجل الاتفاق على مَن هو الأكبر سنًّا تلك السنة من أولئك الأبناء ليحقّ له أن يتولى الإمارة العظمى فى كييڤ . وفى أثناء تلك الحروب انتهك أحد الأبناء حرمة كييڤ سنة ١١٦٩ م، ونهبها وخربها عامداً متعمداً مع سبق الإصرار ، وهى المدينة ذات الكنائس الأربعمائة . وكل ذلك لأن هذا الابن رأى أن ينقل عاصمة الدوقية من كييڤ الواقعة على نهر دنيبر إلى مدينة اختارها لنفسه فى جوف الغابات التى جاء منها . واسم هذا الابن أندرى بوجوليوسكى سوزدال [2] ، وهو جدير بشىء من عناية المؤرخين ، لأنه أسس مدينة اسمها ڤلاديمير ، وهى التى غدت ثانية العواصم الروسية زمناً، ولأنه أول شخصية فى سلسلة طويلة من الأوتوقراطيين الروسيين ، وإليه يرجع الفضل فى تركيز الجهود الروسية مرة أخرى نحو الأراضى الطَفْلية الجرساء بين الغابات النائية بسهول روسيا الوسطى ، وهى السهول التى طالما ضرب الروسيون الغربيون فى مناكبها طلباً للعيش ، بنجوة من إغارات القبائل المتنقلة .

وبسقوط كييڤ تختتم المرحلة الأولى من تاريخ روسيا ، وهى مرحلة أتم الڤارانجيون السويديون أثناءها كثيراً من الأعمال ،على حين أن ما حاولوا إتمامه كان

---

(١) انظر تطبيق هذه القاعدة بعد وفاة القديس فلاديمير سنة ١٠١٥ م فى : (Camb. Med. Hist. Vol. VII pp. 599-600, 602) . زيادة .

(٢) اسم هذا الابن فى (Camb. Med. Hist. VII. pp. 600, 602) فلاديمير ياروسلافتش ، فضلا عن الاسم الوارد هنا بالمتن ، وأخبار مدينته ودوقيته المعروفتين باسمه واردة فى كثير من التفصيل فى ذلك المرجع . زيادة .

أكثر ، إذ أسسوا دولة روسية عظيمة بتأسيسهم دوقية كييف ، وشنوا حروباً عنيفة على البيزنطيين والبلغاريين ، وعلى قبائل البولوفسيتين أو الكومانيين المتبربريين (Polovesti or Cumans) بجنوب روسيا ، كما شنوا حروباً أشد عنفاً بعضهم ضدّ بعض . ومع أن النار الإغريقية ردّتهم مرة بعد مرة عن البوسفور، ومع أن سيوف الإمبراطور حنا شميشق (John Zimisces) — وهو جندى من الطراز الأول فى عهده — قطعت عليهم آمالهم نهائياً فى الاستيلاء على بلغاريا ، فإن ذكرى أعمالهم الحربية الباهرة خلدت فى أغانى الصقالبة الروسيين . وليس أدلّ على هـــذا العصر الذى غدت فيه عصابات أولئك الفارانجيين مسيطرة على الأنهار وسائر الطرق المائية بغرب روسيا ، وأضحت فيه كييف عروس المدن الروسية ، من قطعة مشهورة من قصة حروب[١] إيجور ونصها : " أخى ، ونور عينى ، أنت إيجور . كلانا من ولد سفياتوسلاف ؛ إليك أخى ، أسرج جيادك الفارهة ، فجيادى سبقتك إلى مدينة كورسك ، وهى على أهبة لخدمتك . ورجالى من أهل كورسك محاربون خبيرون بفنون القتال ، رضعوا ألبان أمهاتهم بين قرع الطبول ، وأضجعتهم أمهاتهم فى مهاد تخذوها من حديد المعامع ، وألقموهم طعومهم من رءوس الحراب . وهم محاربون يعرفون أفواه الدروب ، ويألفون صياصى الجبال ، أقواسهم متينة ، وجعبات سهامهم مفتحة ، وسيوفهم ماضية . فإذا شهدتهم فى ساحات الوغى شهدتَ قوماً يركضون ركض الذئاب الغبراء فى البيداء ، ليجعلوا من اقتحام المخاطر تشريفاً لأنفسهم ، وتشريفاً للمجد الذى هو إلههم الأعظم ". الواقع أن أولئك السادة الفارانجيين لم يصبحوا يوماً من الأيام مالكين للأراضى مثلما أصبح إخوانهم النورمانيون بالشمال الغربى من أوربا ، بل ظلوا إلى آخر حياتهم محاربين وتجاراً فى أنواع من السلع الشمالية والرقيق ، واهتبلوا لذلك مختلف الفرص حيثما سنحت براً أو بحراً ، وفرضوا أصناف المكوس من الذهب على كل من جرت المقادير بوقوعه فى أيديهم من الناس .

وبينما يستنفد بيت رورك قواته فى منازعات داخلية بين مجموعة من الإمارات

---

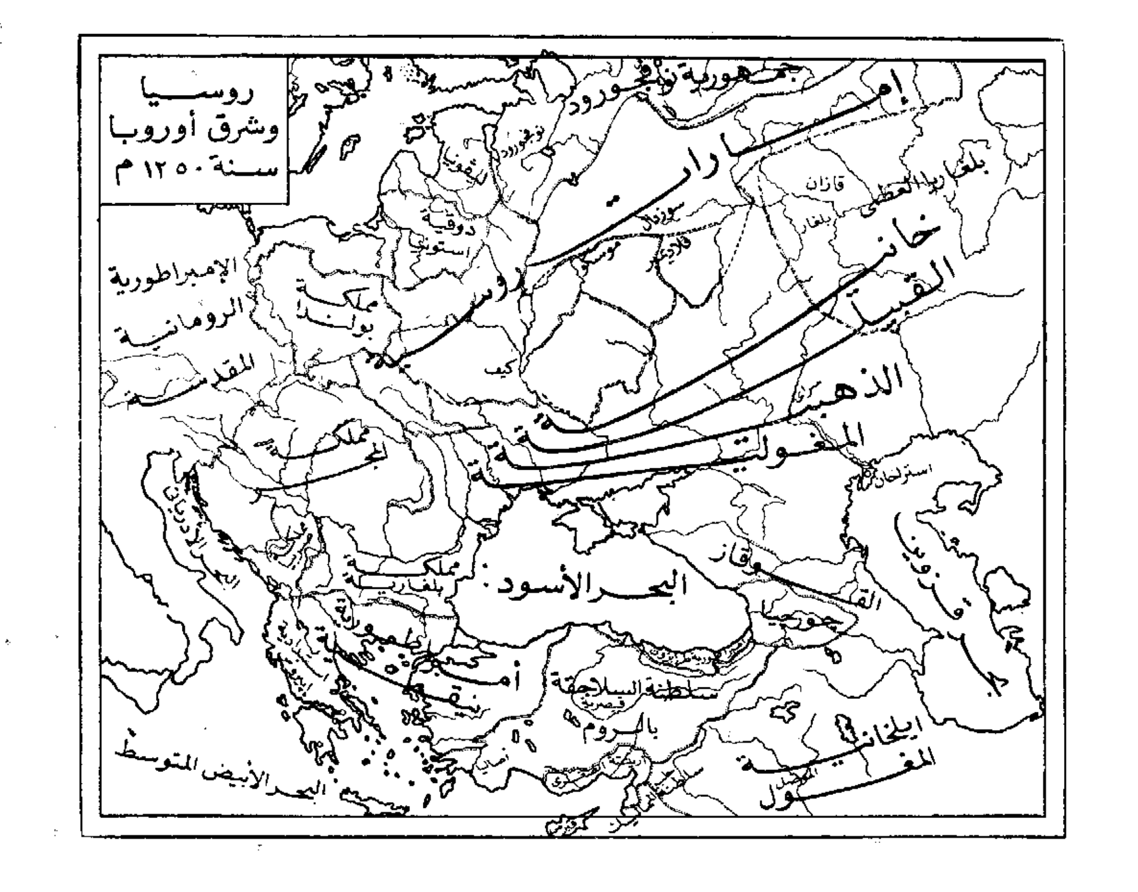
(١) تعد هذه القصة الشعرية فى الأدب الروسى القديم ، وموضوعها حسبما ورد فى (Camb. Med. Hist. VII. p. 613) وصف الحروب التى قام عليها أحد أمراء روسيا ضد الكومانيين ، من أروع القصص الشعبى فى روسيا ، وهى تفيض حماسة قومية ، وتنعى على الأمراء الروسيين حروبهم الانتحارية التى أقعدتهم عن إغاثة أمير فى حربه ضد أعداء روسيا . زيادة .

الروسية المتعادية ، هبط التتار على روسيا هبوط الصاعقة الهوجاء ، ويندر أن يوجد بين الكوارث التاريخية كارثة أعظم – أو أدوم فى نتائجها – من مقدم أولئك الغزاة العتاة إلى روسيا ، وهى تحبو وتتعثر فى مشيتها ، نحو الوصول إلى مرتبة دولة ناشئة ، منكوبة بتأصل العداوات بين أدواقها المختلفة . ذلك أن التتار لم يكونوا جموعاً همجاً من برابرة هائمين على وجوههم فى ضعف أو هيبة ، أو ذعر أو غير هدف ، بل كانوا جيشاً قوياً منظماً ، عدته نحو نصف مليون من الخيالة الخفيفة المدربة تحت عين إمبراطورية امتدت على عهد مؤسسها چنكيزخان من منشوريا إلى القوقاز ، وتكلف تأسيسها نيفاً وثمانية عشر مليوناً من الرجال والنساء والأطفال ، فى مختلف المدن وميادين القتال . ولم يحدث فى التاريخ قبل ذلك أن احتلت إمبراطورية من سطح الأرض مساحة تقرب سعتها مما احتلت إمبراطورية چنكيزخان ، ولا كان إنشاؤها سبباً فى مثل الشقاء الإنسانى الطام اللام الذى سببه إنشاء هذه الإمبراطورية التتارية . ولم يحدث قبل ذلك فى التاريخ كذلك أن شهدت أوربا جيشاً غازياً من الخيالة ، يبلغ فى العدد والمهارة الحربية مثل خيالة باطو حفيد چنكيزخان ، وهو ابن أخى الخان الأعظم – أى الخاقان – أوجطاى الذى خلف أباه چنكزخان على الإمبراطورية ، سنة ١٢٢٧ م .

ومن البديهى أن روسيا لم تكن كفؤا أو شبه كفء لملافاة الضربات القاصمة التى كالتها هذه الخيالة الغليظة القلب للروسيين ، فى غير هوادة أو رحمة ، ما دام أمراء روسيا الڤارانجيون أحزاباً كلمتها متفرقة ، وشيعاً متنابذة متحاربة . ولذا انهارت الفروسية الروسية ، واندحرت وانهزمت كلها واحدة بعد أخرى فى الجنوب والوسط والشمالى الغربى من روسيا الحالية ، عند كالكا (١٢٢٤ م) ، وأوكا (١٢٢٩ م) ، وسيت (١٢٣٨ م) . وغدت جميع المدن الروسية الرئيسة – ما خلا نوڤوجرود – طعمة للنيران ، أو ميداناً لنهب الناهبين . ولم يقف سيل أولئك المرعبين أعداء غرب أوربا وحضارتها إلا بعد أن خربوا أقاليم موراڤيا وسيليزيا بأوربا الوسطى وألمانيا ، واستولوا على كراكاو (Cracow) ببولندا الحالية ، وپشت (Pesth)[1] على نهر دانوب ، كما هددوا ڤينا نفسها أشد تهديد .

---

(١) هذه المدينة هى أحد الجزئين اللذين تتكون منهما بودابست ، وهى عاصمة جمهورية المجر الحالية . زيادة .



روسيا
وشرق أوروبا
سنة ١٢٥٠ م
جمهورية نوفجورود
بلغاريا العظمى
قازان
سوزدال
موسكو
فلاديمير
الإمبراطورية
الرومانية
المقدسة
مملكة
بولندا
كيف
الذهبية
المغولية
استراخان
البحر الأسود
مملكة
بلغاريا
سلطنة السلاجقة
بالروم
قيصرية
جورجيا
القوقاز
إيلخانية
المغول
البحر الأبيض المتوسط

ويرجع الفضل فى تحول التتار من التقدم والهجوم إلى التقهقر والدفاع إلى عدة أسباب يختلف فى تقديرها الباحثون ، ومنها موت الخاقان أوجاطاى (١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ م) ،وبسالة التشكيين والبولنديين الذين قاوموا الغزاة ما استطاعوا مقاومتهم ،وأحرزوا منهم انتصاراً أو شبه انتصار بعض الأحيان . ومن هذه الأسباب كذلك الروسيون أنفسهم ،لأنهم تلقوا معظم الصدمة فى جوف بلادهم ،ودفعوا أكبر نصيب من التضحيات التى لم يكن من دفعها بد لصدّ جائحة المغيرين . على أنه يبدو أن السبب الحقيقى هو الجغرافيا ، وأن تخليص أوربا الوسطى من شرّ التتار يرجع فيما يرجع أولا إلى ابتعاد أولئك المغيرين المخربين عن قواعدهم وبيئاتهم الأصلية، فضلا عن زحفهم الطويل ، فى بلاد موحشة مقفرة زادوها بتخريبهم وحشة وإقفاراً[١] .

غير أنه إذا كان من المعروف كذلك أن الإمبراطورية التتارية استحالت أجزاء متنافرة متحاربة منذ وفاة چنكيزخان سنة ١٢٢٧ م ، وأن الخطر التتارى الأعظم أضحى على وجه التعميم معدوماً ، فإن الفرع التتارى الذى أسس منه باطو خان دولة القبيلة الذهبية (Golden Horde)—فى سهوب الجنوب الشرقى من روسيا الحالية — بقى مهدداً للروسيين فى عقر بلادهم.

ولمائتين من السنين ظلت هذه الدولة التتارية — التى قطعت صلتها بالخاقان الأعظم بالصين ، واعتنقت الإسلام — تهيمن على شئون الروسيين من عاصمتها التتارية سراى الواقعة على المجرى الأدنى لنهر إتل (الڤلجا) ، وموضعها قرب ستالنجراد الحالية . وسمحت هذه الدولة التتارية الإسلامية لإمارات روسيا ومدنها المستقلة بالعيش حسب تقاليدها وعاداتها الموروثة، فى ظلال تبعية مشينة وخضوع تام . وهكذا هوى أمراء روسيا المسيحيون إلى حضيض الذلة ، فتقلدوا إماراتهم بإذن من بلاط الخان، وذهبوا إلى عاصمته سراى للحصول على خلعه التقليد بالإمارة، ودفعوا ضريبة سنوية من الفراء والعسل وجزية الرءوس ،

---

(١) ينبغى أن يضاف إلى هذه الأسباب الكثيرة سبب لا يقل أهمية عنها كلها مجتمعة ، وهو حسبما جاء فى (Camb. Med. Hist. Vol. IV. p. 643) هزيمة الفرع التتارى الهولاكى على يد السلطان المملوكى قطز عند عين جالوت قرب بيسان بفلسطين الحالية سنة ١٢٦٠ م . أما أهمية هذا السبب ، فهو أن هزيمة التتار عند عين جالوت ، وهى على مقربة من قواعدهم الأسيوية بالقياس إلى ما وصلوا إليه من أواسط أوربا ، كانت أول هزيمة لقيها التتار فى طريقهم الدامى منذ حركتهم الهائلة فى جوف آسيا ، ولذا فليست عين جالوت هزيمة حربية فحسب ، بل هزيمة سيكولوجية حلت عقدة الرهبة التى أحدثتها أعمال التتار فى جميع البلاد التى امتدت إليها أظفارهم . زيادة .

وأمدوا الجيش الذهبي الإسلامى التتارى بفصائل من المشاة الروسيين . ولم يشذّ عن تأدية ذلك كله أمير من أولئك الأمراء، حتى إسكندر نفسكى أمير نوفجرود (١٢٥٢ – ١٢٦٣ م) نفسه – وهو صاحب الانتصارات الشهيرة على الفرسان الليفونيين والسويديين والفنلنديين[١] – فإنه حرص وتوخى أن تؤدى مدينتا نوفجورود وسوزدال[٢] ما عليهما من الجزية لخان القبيلة الذهبية ..

ومن الطبيعي أن يحدث طول هذه العبودية المميتة أسوأ الأثر وأعمقه فى المجتمع الروسى ، وهذه المرحلة من تاريخ الروسيين هى فى الواقع أصل القطيعة القاطعة الفاصلة بين روسيا وغرب أوربا ، وأصل التأخر الثقافى الذى لم تستطع روسيا تعويضه حتى العصر الحاضر . وفى هذه المرحلة أقام أمراء روسيا بأقاليم الغابات الصنوبرية الكثيفة فى روسيا الوسطى أشكالا وألواناً من ظليم الاستبداد وغاشمه ، وخمدت آخر جذوة من جذوات الحياة الحرة ، تحت أقدام الجبروت الناشىء من اتحاد الكنيسة والدولة . ولم ينج من المحزنات التى عمّت روسيا المسيحية فى هذه المرحلة سوى الرهبان والقسس الذين أعفاهم التتار من جزية الرءوس ، وبنوا لأنفسهم – فى جو جاهلٍ مشبعٍ بالخرافة والإرهاب – مكانة بلغت من الثراء العقارى والنفوذ السياسى ما لم يبدده سوى زلزال الثورة الروسية ، عقب الحرب العالمية الأولى .

على أن مذلات هذه المرحلة من تاريخ روسيا لا يرجع إلى قيام دولة القبيلة الذهبية التتارية بين أضلاع البلاد الروسية فحسب ، بل يرجع كذلك إلى فئة من الأمراء الروسيين . والواقع أنه لا يوجد فى تاريخ روسيا الصاخب فصلٌ تملأه المخازى مثل الفصل الذى اصطلح المؤرخون على تسمية باسم قيام الدولة المسكوفية ، لأن أمراء موسكو لم يتغلبوا على جيرانهم ومنافسيهم من الأمراء الروسيين بشن الحرب ضدّهم ، أو ضدّ أعداء روسيا من القبيلة الذهبية التتارية، بل بفضل التخضّع

(١) الاسم الأصلى لهذه الهيئة الدينية ، نقلا عن (Camb: Med. Hist. VII. pp. 216, 244, 250, 253) هو الإخوان العسكريون المسيحيون . (Fratres militae Christi) ، وهم كذلك معروفون باسم إخوان السيف ، كما عرفوا فيما بعد بأسماء البلاد التى امتد إليها نشاطهم التبشيرى والحضارى ، مثل الفرسان الليفونيين نسبة إلى إقليم ليفونيا المطل على البحر البلطى ، وهكذا. وانضم الفرسان الليفونيون وغيرهم من الهيئات التبشيرية العسكرية إلى هيئة الفرسان التيوتونيين ، وأسهموا معهم فى فتح كثير من بلاد الوثنية للديانة المسيحية والحضارة الألمانية ، واصطدموا أحياناً ببعض الإمارات الروسية . زيادة.

(٢) هذه المدينة هى أصل مدينة موسكو الحالية . انظر ، ص ٤٠٩ ، ٤١٢ . زيادة .

والتودّد إلى خانات أولئك التتاريين القابعين فى عاصمتهم سراى . ولئن سلخت مدينة موسكو المقدسة من قرية صغيرة من قرى سوزدال ، التى لم تجتذب عين التاريخ إلا سنة ١١٤٧ م[١] ، فرجع ما أصبحت فيه موسكو من العظمة والضخامة والقداسة أن أمراءها فى القرن الرابع عشر الميلادى ضمنوا مساعدة الجيوش التتارية لهم ضدّ جيرانهم ومنافسيهم من الروسيين الآخرين ، وأنهم أقاموا أنفسهم مقام الجباة ووكلاء الأمن عن طيب خاطر لخانات سراى ، حيثما أرادهم الخانات تأدية هذه الأعمال . والواقع أن قيام الأمير إيڤان كاليتا – أى إيڤان أبو الذهب (١٣٢٨ – ١٣٤١ م) – على وظيفة الجباية وما فيها من مكاسب ومخازى ، والتزامه هذه الوظيفة نيابة عن خان سراى ، هو الذى مكن له فى روسيا الوسطى ، وجعله يسبق جيرانه ومنافسيه فى تأسيس دولة روسية جديدة وسط السهول الروسية الشاسعة ، بعد أن تفككت دولة روسيا الغربية التى قامت على ضفاف نهر دنيبر قبل ذلك ، وكانت فيما يبدو أحسن مكاناً ورئياً ومستقبلا فى حلبة الحضارات . ذلك أن وظيفة الجابى – الضامن[٢] للضرائب من الفلاحين – تجعل صاحبها شخصية كريهة فى كل العصور ، وفاق إيڤان كاليتا الجباة والضمان فى الكراهية والبغضاء وسوء السمعة – وهو أول أمراء موسكو العظيمة – حين التمس من خان سراى أن يقوم على هذه الوظيفة البغيضة لدولة دينها غير دينه ، وهى فضلا عن ذلك محتلة لجزء كبير من روسيا .

غير أن إيڤان كان رجلا واقعياً يبحث عن السلطان حيث يوجد السلطان ، فألفاه بمعسكر خان سراى ، وحرص على ألا يشاركه شريك فيما وجد ، فقال لبعض جيرانه ومنافسيه ذات يوم من الأيام : "سوف يكون الاتصال بالخان من شأنى وحدى ، لا من شأنكم" . على أنه إذا استعرضنا سلسلة الطغاة الجبابرة الذين بنوا صرح الدولة المسكوفية بعد إيڤان وضح لنا أن إيڤان هذا لم يتصف بصفة إلا كانوها ، ولم يعمل عملا إلا أقاموا شبهه فى عهودهم بعده. ثم إنه لم يتعدّ صفات الكادح فى سبيل هدفه مهما طال السفر ، المتصيد للمال حيثما كان المال ، الدائب على توسيع ممتلكاته بالشراء أو الاستيلاء أو الارتياد أو المعاهدة سواء ، مع عدم الإحجام

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص٤٠٩ ، ٤١١ . زيادة .

(٢) هذا اللفظ مستمد من مصطلح دولة المماليك فى مصر العصور الوسطى . زيادة .

عن استخدام الجيوش التتارية ضدّ أعدائه من الروسيين ، والحرص على نشر الأمن واستئصال قطاع الطرق من بلاده .

الخلاصة أنه ليس باستطاعة باحث فى تاريخ روسيا العصور الوسطى أن يُغفل هذا الرجل الذى كفل لبلاده الراحة والسلامة من الإغارات التتارية ، خمسين عاماً تقريباً ، بالتزامه سياسة الامتثال والخضوع . فنى عهده (١٣٢٨ – ١٤٣١ م) أضحت موسكو واسطة العقد بين مجموعة من المدن الجديدة ، وغدت مقرّ مطران (Metropolitan) الكنيسة الروسية ، وحاضرة الدولة المسكوفية العظمى . ومن هذا يتضح أن إيڤان زعيمٌ بأن يكون أحد مؤسسى روسيا ، وأنه توفى بعد حياة ملؤها اغتصاب أموال الناس بغير حقّ ، مع الاقتصاد فى كل شىء إلى درجة التقتير . وكُفن إيڤان بملابس بالية من مسوح الرهبان ، بعد أن فُحص عن رأسه بحلق النافوخ على طريقة الرهبانيين ، شأنه فى ذلك شأن سلالته من الأمراء المسكوفيين الذين أدوا لدولتهم ما استطاعت طاقاتهم المتوسطة تأديته من خدمات .

ونشأت هذه الدولة المسكوفية الرائدة فى مجتمع زراعى على أسس زراعية ، وهو سرّ بقائها وطول عمرها ، بالقياس إلى الدولة الاتحادية التى نشأت حول كييف على أسس تجارية . ذلك أن أمراء هذه الدولة الاتحادية كانوا جميعاً من شجعان الڤارانجيين الذين احترفوا الجندية مرتزقة ، وخدموا سلسلة من الدويلات الروسية النهرية الممتدة من نهر نيڤا إلى نهر دنيبر ، فعاشوا مقيدين بما تمليه عليهم أطماع هذه الدويلات وتقاليد أهلها العارفين بفنون الحكم منذ سنين . ولم تتوفر هذه الأحوال فى روسيا الوسطى ، فلم يجد أخلاف القديس ڤلاديمير مدناً عامرة متمدينة حين اتجهوا شرقاً نحو أقاليم الغابات بحوض نهر ڤولجا ، بل وجدوا عدداً من محطات نهرية منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال ، بناها بعض الرائدين الأولين فى أرض بكر ، وراء مساحات شاسعة من الغابات الكثيفة الوعرة ، بحيث تكون محجوبة عن أعين الجماعات الدائمة التنقل والرحلة من بدو السهوب الجنوبية ، وهى الجماعات المزعجة التى كانت إغاراتها التخريبية أول سبب من الأسباب المؤدية لإنشاء دولة الڤارانجيين على نهر دنيبر . وفى هذه المحطات التى امتلأت حياة أهلها بالكدّ المتصل والحرث والزرع ، خلع الأمراء عن أنفسهم صفات الجندية واللصوصية والمتاجرة فى الرقيق ، واتسموا بسمات الرائدين الذين أضحوا من الملاّكين للأراضى ، وأضحى نظام الوراثة الدورية التى لا تتجزأ غير ملائم

لما صار لأولئك الأمراء من حقوق ثابتة فى أراضيهم المتفرقة بعضها عن بعض بمسافات بعيدة . ثم أخذت سلطة الإمارة تنحصر فى أصلاب الأسرة الحاكمة ، حتى إذا استقرت التقاليد المسكوفية على تخصيص النصيب الأكبر من الميراث للابن الأكبر ، غدا الطريق ممهداً لتكوين دولة ذات دعامة قوية ، وقادرة على النمو والتوسع .

وبينما تأخذ هذه التطورات مجراها طرأ على الجانب الغربى من روسيا طارئ سياسى هائل ، وهو الجانب الذى أقام فيه الڤارانجيون دولتهم قبلا . ذلك أن أمة من الجنس اللتيوانى الوثنى القديم استطاعت أن تفرّ من قبضة الفرسان التيوتونيين (١) إلى غابات نهر نيمن ومستنقعاته ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، وأن تؤسس لنفسها عاصمة فى ڤيلنا ، وأن تعيش فى عزلتها محتضنة شيئاً من الطموح السياسى والأمل فى المستقبل . ثم قفزت هذه الأمة الصغيرة فجأة إلى أعلى مسارح التاريخ ، بفضل أربعة من ذوى المقدرة والمغامرة من أدواقها ، فأوصلت فتوحُ أولهم جوديمين (١٣١٥ — ١٣٤٠ م) وفتوحُ ابنه أولجيرود (١٣٤٥ — ١٣٧٧ م) حدود لتيوانيا إلى نهر دنيبر ، وجعلت كييف مدينة لتيوانية ، وأخضعت روسيا الغربية على سعتها لسيطرة دولة مقرّها ڤيلنا القاصية ، وكلّ ذلك فى سرعة خالبة للأبصار . ولم يكن باستطاعة أهل روسيا الغربية — وهم لا يزالون منقسمين على أنفسهم ، وحالهم أسوأ حال من أثر الغزو التتارى — أن يقاوموا أولئك اللتيوانيين الوثنيين مقاومة مجدية ، بل رضوا — مع مسيحيتهم البيزنطية — أن يطأطئوا الرأس لأصحاب بيركون إله الرعد ، وفضلوا فوضى اللتيوانيين الهمجيين فى شئون الضرائب على إمعان التتار فى ابتزاز الأموال .

وربما سأل سائل هنا : كيف استطاعت الأمة اللتيوانية الصغيرة أن تنهض

---

(١) تأسست جمعية الفرسان التيوتونيين سنة ١١٩٧ م للدفاع عن الأراضى الصليبية بالشرق ضد المسلمين ، على نمط الاسبتارية فى المرحلة الثانية من تاريخهم . غير أن أحد مقدمى هذه الجمعية ، وهو هرمان سالزا (١٢١١ — ١٢٣٩ م) أحس بقلة الجدوى فى نشاط الفرسان التيوتونيين بالشرق ، نظراً لما بدا من أحوال الصليبيين منذ أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى . لذا حول هرمان سالزا جهود أولئك الفرسان نحو الحرب ضد الوثنية التى لم تزل وقتذاك ضاربة بشرق ألمانيا ، وغيرها من البلاد الأوربية ، وعملت الجمعية منذئذ فى شرق ألمانيا وبولندا ولتيوانيا وليفونيا وغرب روسيا ، وأدت جهودها فيما أدت إلى توسع ألمانى عظيم فى شرق أوربا وسواحل البحر البلطى . وبذا صارت بروسيا مثلا مسيحية ، كما صارت جزءاً من دائرة التوسع الألمانى ، ثم زعيمة للإمبراطورية الألمانية أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . زيادة .

بأعباء إمبراطورية بلغت رقعتها هذا الاتساع ، وتمّ تكوينها فى هذه السرعة؟ .
الجواب على هذا السؤال أن اللتيوانيين لم يظلوا طويلا دون مساعدة خارجية، إذ تحالفت دوقية لتيوانيا العظمى ومملكة بولندا تحالفاً عائلياً سنة ١٣٨٦ م ، بفضل زواج دوق ياجليلون الأول بن أولجيرود من ملكة بولندا ، ونبذه الوثنية ، ودخوله ودوقيته حظيرة المسيحية الكاثوليكية ؛ ومن ثمّ ارتكزت الإمبراطورية اللتيوانية واعتمدت على سيوف البولنديين ، كما اعتمدت على مجهودات المبشرين الكاثوليكيين من الفرسان التيوتونيين (١) .

هكذا شهدت خاتمة القرن الرابع عشر الميلادى فى أرض روسيا ــ باستثناء السهوب الجنوبية وأهلها البدو ــ دولتين كل منهما يتربّص للأخرى الدوائر ، وهما روسيا الغربية ومحورها السياسى لتيوانى بولندى ، وأهلها خليط من الكاثوليكيين واليهود والأرثوذكسيين ، ثم روسيا الشرقية وهى كتلة واحدة مسكوفية بيزنطية قلباً وقالباً . وتملأ حوادث النضال بين هاتين الدولتين الروسيتين ــ أى روسيا اللتيوانية أو روسيا الصغرى ، وروسيا المسكوفية أو روسيا العظمى ــ فصلا دامغاً بقيت ذكراه واضحة لا تمحوها القرون فى تاريخ روسيا كله . ومن هذه الذكرى تولد العداء المرير بين الروسيين والبولنديين ، وهو العداء الذى ظل حياً إلى العصر الحاضر ، وأدّى إلى زحف جيش بولندى سنة ١٩٢١ م ، حتى أصبح قاب قوسين أو دنى بكثير من مدينة كييف ، وقيام جيش روسى للأخذ بالثأر حتى بلغ ضواحى وارسو فى السنة نفسها ، حين كان پلسودسكى على رأس الجمهورية البولندية ، ولينين طاغية الدولة الروسية .

ويتضح من هذه الإشارات أن روسيا المسكوفية هى التى جعلت من الروسيين جميعاً أمة واحدة ، منذ أواخر العصور الوسطى . ذلك أن الوضع الجغرافى الذى جعل هذه الدولة الأرثوذكسية جارة للبولنديين واللتيوانيين وكثلكتهم الكريهة إليها من ناحية ، وجارة للتتار وديانتهم الإسلامية الكريهة إليها كذلك من ناحية أخرى ، مكّن لعاصمتها موسكو المقدسة أن تبسط نفوذها الدينى على المسكوفيين . فازداد بذلك سلطان الكنيسة ، وازداد معه عدد الكنائس والأديرة للرجال والنساء فى

(١) انظر تفصيل ذلك فى (Camb. Med. Hist. Vol. VII pp. 259 et seq.) ، حيث يستطيع القارئ أن يتبين أهمية هذا التحالف فى تاريخ هيئة الفرسان التيوتونيين . زيادة.

سرعة ملحوظة، وغدا المطران مصدر قوة شدّت من أزر دوق روسيا المسكوفية كائناً من يكون . ورفعت من شأنه، وجعلت مخافة الدين — وهى أداة هائلة — طوع إشارة السلطة السياسية فى البلاد . وظل الحال على هذه الوتيرة حتى جاء إلى الدوقية رجل يسعى إلى تسديد ضربة حاسمة فى سبيل تحرير الروسيين، من ربقة الخضوع للتتار واللتيوانيين، وهو ديمترى دونسكوى . فمنذ سنة ١٣٦٩ م، وهى السنة التى بلغ فيها ديمترى سنّ الرشد، أخذ اسم هذا الدوق يملأ الآفاق بانتصاراته الداخلية على بضع إمارات روسية، فضلاً عن توفيقاته فى دفع غزوة بولندية لتيوانية عن موسكو. ثم هزم ديمترى جيشاً تتاريا هزيمة شنيعة، سنة ١٣٨٠م، فى وقعة كُوليكوفو على نهر دُن، وهذه الوقعة هى أصل تلقيب ديمترى بلقب دونسكوى، إشارةً إلى انتصاره عند هذا النهر. على أن موضع الأهمية فى وقعة كُوليكوفو أنها أزالت عقدة النقص عند الروسيين بصدد التتار، ومع أن جيوشاً تتارية عادت إلى روسيا بعد ذلك بقليل، وأعملت السيف فى موسكو نفسها، فإن وقعة كُوليكوفو دلّت على أن التتار ليسوا معصومين من الهزيمة . وصفوة القول أن هذه الوقعة شهدت مولد أمة روسية متوثبة، ومولد وطنية روسية جديدة، وهى وطنية أساسها عقيدة أرثوزكسية واحدة، وتعاليم مستمدة من كنيسة بيزنطية ذات فضل عظيم فى المزج بين الشعوب السلافية والفنلندية، وغيرها من الشعوب الصغيرة التى عاشت بعيدة عن معترك الحضارات فى غمرة السهول الروسية المظلمة . وإذ حرّكت هذه الروح العامة كوامن ما فى صدور الروسيين من حماسة للتخلص من الاحتلال الأجنبى، وأمدّتهم اختراعات البارود والمدفعية بسلاح جديد لأول مرة سنة ١٣٨٩ م، لم يلبث جنود الدولة المسكوفية أن أضحوا أنداداً لأعدائهم التتاريين .

على أن الدولة المسكوفية تدين بتحريها إلى الفاتح التتارى العظيم تيمورلنك، وجيشه البالغ مائة ألف وخمسين ألف مقاتل، أكثر مما تدين إلى ديمترى دونسكوى . ذلك أن تيمورلنك لم يقنع بحرب الدول المسيحية التى وجدها فى طريقه شمالا، بل أعمل الدمار والشنار بدولة القبيلة الذهبية، حتى إذا هدأت موجة غزواته الكاسحة (١٣٩٠ — ١٣٩٢ م) غدت جهود المسكوفيين فى القضاء على هذه الدولة أمراً سهلا، وغدا نجاحها مؤكداً فى هذا السبيل . ثم سقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين المسلمين سنة ١٤٥٣ م، فأضحى أدواق موسكو بعد ذهاب

الإمبراطورية البيزنطية ، لا ورثة الخانات التتاريين فحسب ، بل خلفاء الأباطرة البيزنطيين ، كما أضحت دوقيتهم المسكوفية أكبر دوقية أرثوزكسية . ولذا يدين دوقات موسكو لخانات التتار بما عكفوا عليه بعدهم من أساليب استبدادية شديدة ، ونظم مالية مرهقة ، وبما افترصوه من فرص للثروة الوفيرة والسلطان العريض فى البلاد الروسية ، بحوض نهر ڤولجا وروافده . أما الإمبراطورية البيزنطية ، فورثوا عنها سياسة الاعتماد على كنيسة نظيمة ، واعتقاد راسخ فى السلطة الإمبراطورية ، وهو الاعتقاد الذى خلفته الإمبراطورية الرومانية القديمة لأجيال العصور الوسطى .

ولما سقطت القسطنطينية فى أيدى العثمانيين ، ومات آخر إمبراطور من بيت الباليولوجيين وهو يقاتل فى سبيل عرشه ، أضحت موسكو نتيجة لهذه الحال عاصمة الكنيسة الأرثوذكسية فى أوربا ، وغدا دوقها وريث القياصرة البيزنطيين . وسأل الروسيون المعاصرون سؤالا يبتغون به جواباً ، شارحاً لما جرت وجاءت به المقادير ، فقالوا : أليس من تدبير العناية الإلهية أن تُختار ثلاث مدن لتكون كلٌّ منها على التوالى مركز إمبراطورية عالمية ، وعقيدة مسيحية عالمية كذلك ؟ ولماذا خلَفت القسطنطينية روما ، وخلفت موسكو القسطنطينية ، فى المكانة السامية والمسئولية الخطيرة [1] ؟ وهكذا كانت المعتقدات والآمال التى ساورت رهبان روسيا وقساوسة الكنيسة الروسية ، وهكذا كان المنطق التاريخى الذى حمل إيڤان الأكبر (١٤٦٢ — ١٥٠٥ م) على أن يتخذ لنفسه لقب قيصر (Tzar) ، وأن يتزوج أميرة بيزنطية من البيت الباليولوجى ، وأن يجعل صورة النسر ذى الرأسين (النسر المثنى) — وهو رنك الدولة البيزنطية — رنكاً للدولة المسكوفية . ومن هنا بدأت دراما تاريخية ملؤها أحلام إمبراطورية مختلفة تمام الاختلاف عما درجت عليه روسيا الأولى من حريات همجية صاخبة ، ولكنها أحلام شاءت القرون أن تجعل منها مصدراً لسياسة طامحة طويلة الأمد ، لولا ما انتابها من كوارث الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨ م) ، ومذهبية الشيوعية التى أحكم نسج خيوطها الشيوعى الألمانى الإسرائيلى الأصل — كارل ماركس .

---

(١) انظر الشرح المسيحى لهذا السؤال فى (Coopland : Tree of Battles pp. 39, 304) ، وكذلك سفر حزقيال وسفر دانيال فى كتاب العهد القديم ، ص ١١٧٥ — ١٢٨٥ . راجع أيضاً (Stremooukhoff : Moscow, The Third Rome) فى (Speculum, 1953, pp. 44-64) . زيادة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Donald Mackenzie Wallace : Russia. 1912.

Kluchevsky, (V., History of Russia. Tr. C.J. Hogarth. 1911-1931.

Makeef & O'Hara : Russia (Nations of the Modern World Seiies). 1925.

Ramband, (A., : Histoire de la Russie. 1884.

الفصل الخامس والعشرون

الحكام المستبدون فى إيطاليا

تفكك إيطاليا — التجارة والحرب — الجند المرتزقة — الدول الخمس فى إيطاليا — ميلان وحكومة الفسكونتين — البندقية — فلورنسة — أسرة آلبتزى — قيام المدتشيين — نابلى — اتحاد نابلى وفلورنسة وميلان .

* * *

فقدت إيطاليا بزوال أسرة الهوهنشتاوفن آخر عامل من عوامل الوحدة السياسية ، فيما بقى لها من العصور الوسطى . فمنذ زوال هذه الأسرة التى تغيّت أن تجعل من ألمانيا وإيطاليا وتوابعهما إمبراطورية واحدة ، واستبدت بشئون الإيطاليين استبداداً كفيلا بانقلابهم — عاجلا أو آجلا — إلى شىء من الوحدة والاستقلال ، ومنذ انتقال الوظيفة الإمبراطورية عن هذه الأسرة إلى الهابسبورجيين[1] ، أصبحت زيارة الأباطرة لإيطاليا نادرة عابرة ، وأضحى تأثيرُ هذه الزيارات فى حكومات الدول الإيطالية المختلفة تأثيرَ جناح العلجوم الطائر فوق الماء فيما تحته من أمواج . الواقع أن إيطاليا التى غدت بعد أباطرة الهوهنشتاوفن حرّة طليقة لتقرير مصيرها ، لم تعتم حتى أمست — باستثناء مملكة نابلى والدولة البابوية — خليطاً من المدن المستقلة (الحكومونات) التى ركب كلٌّ منها متن الأثرة والاستمساك ، مع الشطط العام فى سبيل فرديتها وأطماعها التجارية الخاصة ، وأهدافها السياسية الجامحة. لذا شنّت هذه الدول المتنافرة أتفه الحروب ، وعقدت أدنأ المحالفات حسبما تمليه منافعها الآنية الطارئة ، ولم تتردّد واحدة منها يوماً فى التحول عن موقف إلى نقيضه من المواقف ، كلما أحست بتغيير فى تيار الحوادث . وفى هذا المحيط الطافح بالمنافسات الحارة والمحالفات المضطربة علا نجم المدينة من المدن ، ثم هوى بين عشية وضحاها ، فبينا هى ممتطية ذروة

---

(١) يتطلب شرح هذه العبارات الافتتاحية رجوعاً إلى ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، ٢٦٠ — ٢٦٢ ، وكذلك ما سبق هنا فى ص ٣٤٥ ، وما بعدها . زيادة .

القوة والمجد إذا بها متردية فى حضيض الهوان . مثال ذلك أن أهل جمهورية البندقية العظيمة بلغوا من اليأس ، بعد سنة واحدة من حصار جنوا لمدينتهم ، أن فكروا فى نقل الجمهورية إلى جزيرة كريت ، وبلغوا من الحيوية ذات يوم ما جعلهم يطمعون أطماعاً لا تعرف الحدود . وإذا انطبق هذا الوصف على أحوال كل مدينة من المدن الإيطالية فى تلك العصور ، فهو منطبق كذلك على أحوال أحزابها الصاخبة فى مراقد الفتنة والضلال ، ولا تزال أبراج مدينة سان چمينانو الخالبة للأبصار – وهى جنوبى فلورنسا الحالية – تعيد للزائر ذكرى الأيام التى أشعل فيها النبلاء المحليون نيران أحقادهم بشوارع المدينة وأزقتها ، فى غير خشية أو اعتبار ، أو احترام لمصالح الناس .

ودلّ هذا العنف الخارق على حيوية تنفست عن حركة دافقة فى ميادين التجارة والفن والنشاط الأدبى ، وهى حركة رفعت إيطاليا إلى أعلى عليين فى مستوى الحضارة ، بالقياس إلى أى بلد أوربى آخر . الواقع أن الزائر القادم إلى إيطاليا من الشمال إلى السهل اللومباردى – فى تلك العصور – لم يستطع إلا أن تتملكه الدهشة مما يرى من قنوات مائية متشابكة ، وتجارات ضخمة ، ونظم مالية عالية ، وصناعات راقية ، ومدن كثيرة مزدحمة بالسكان ، وهى تجاور بعضها بعضا ، ولا تفصل الواحدة منها عن الأخرى إلا مسافة قريبة ، وكلها تخبر بمظاهرها العامة والخاصة من المبانى والعمائر والأسواق عن غنى وأبهة ورقة . وفى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى وصف بونڤزان دا ريڤا (Bonvesin da Riva) – وهو أحد الإخوان الفرنسسكانيين والشعراء الأولين فى اللغة الإيطالية الأولى[1] – مدينة ميلان بأن عدد سكانها مائتا ألف نسمة ، وبأن بها خمسين ألفاً من الرجال القادرين على حمل السلاح ، وأربعمائة كاتب ، ومائتى طبيب ، ومثلهم من المحامين ، وثمانين

(١) اللغة الإيطالية إحدى اللغات التى تفرعت من اللغة اللاتينية أواسط العصور الوسطى ، لا قبل ذلك ، وتكلمها عامة الإيطاليين منذ تلك العصور ، على حين بقيت اللاتينية لغة الثقافة والمثقفين فى إيطاليا وغيرها من البلاد التى اشتقت لغتها من اللسان اللاتينى ، وأشهرها فرنسا وإسبانيا ، وكذلك إنجلترا وألمانيا ، برغم عدم اشتقاق اللغتين الإنجليزية والألمانية من اللاتينية . والفضل فى تطور الإيطالية ، من لغة شعبية (Vulgar tongue) إلى لغة قومية ، يرجع إلى قيام دانتى (انظر ما سبق بهذا القسم من الكتاب ، ص ٢٧١) وبونڤزان دا ريڤا المشار إليه هنا ، وغيرهما من أرباب القلم ، بإحلال اللسان الإيطالى محل اللاتينية فى مؤلفاتهم ، من النظم والنثر والكتابة عامة . زيادة .

مدرساً ، وخمسين من النساخين والورّاقين والكتبية ، وستين بيتاً من بيوت النبلاء الأغنياء ، ومائة وخمسين قصراً من قصور الريف ، ومثلها من القرى الملحقة بها ، وثلاثمائة من الجزارين ، وثلاثمائة من الخبازين ، وألفاً من المزارعين ، أصحاب الأراضي التي تمدّ السكان بالغلال والخضر والفواكه . وفى الحىّ المالى من لندن الحالية شارع اسمه لومبارد ستريت (Lombard Street) ، وهو يدلّ على أن اللومبارديين أول الرائدين فى تأسيس المصارف (البنوك) ، وأن صيارفة أوربا ورجال المال بها جميعاً سمّوا بهذا الاسم ، فى وقت من الأوقات .

غير أن اجتماع العنف والتجارة فى إيطاليا العصور الوسطى أنتج نتاجاً لم يكن منه محيص ، وهو الحاكم المستبدّ . ذلك أن كلّ مدينة من المدن الإيطالية فى تلك العصور لم تلبث أن أدركت حاجتها الماسة إلى يد قوية تدرأ عنها خطراً داهما ، أو تكبح فيها جماح الروح الحزبية ، أو تصون لها صناعتها وتجارتها ، مع العمل على تنمية نشاطها العام . وتحقيقاً لهذه الغايات عمدت المدينة من المدن أحياناً إلى اجتذاب قائد عسكرى ذائع الصيت ، وأحياناً إلى رجل مدنى من غير أهلها يمكن الركون إلى عدم محاباته لفريق دون فريق ، لبعده عن المنازعات والأحقاد المحلية .

سارت المدن الإيطالية أول عهدها بهذه التجارب فى حذر ويقظة ، احتراماً لروح الحرية الدافقة وقتذاك بين الإيطاليين ، فعينت البودشطا[١] (Podesta) — أى الحاكم عليها من العسكريين أو المدنيين — لمدة سنة واحدة ، أو لبضع سنين معدودة . غير أن الفائدة التى تنجم عن وجود سلطة تستطيع القيام بعمل سريع فى أوقات الحرج ، وتغضى عن القيود التى تحفل لها الدساتير الشعبية ذات الآفاق المحلية الضيقة ، وتستطيع اتباع سياسة حازمة — كل ذلك جعل تعيين أولئك الحكام بمختلف المدن الإيطالية لازمة من لزوميات التقاليد السياسية فى البلاد . وأولئك الحكام الذين ملأوا مسارح التاريخ الإيطالى فى القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادى — وهم ممن جرى الواقع والمصطلح بتسميتهم الطغاة (Despots) — هم البودشطا ، بعد أن غدت وظيفتهم مستديمة ، قابلة للتوريث خالفاً عن سالف .

---

(١) ذكر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٤٦) أن ديوان الإنشاء فى مصر ، على عهد السلاطين المماليك ، استعمل هذا اللفظ بنصه وفصه للدلالة على حاكم جنوا ، فى المكاتبات الرسمية ، كما استعمل لفظ الكبطان فى هذه المكاتبات ، للدلالة على من يليه فى الحكم والمرتبة . زيادة .

وأول هذه الطبقة من الطغاة كانه جراندى دلاسكالا حاكم فيرونا ، وهو الذى انتخب الفيرونيون أباه كبطانا[١] للمدينة (Capitano del Popolo) مدة حياته . ولع اسم دلاسكالا هذا فى التاريخ ، لأنه هو الذى تعهد الشاعر دانتى — والفنان جيوتو كذلك — بالتشجيع والرعاية ، وهو أول الطغاة الإيطاليين الذين جمعوا فى شخصياتهم صرامة الاستبداد فى شئون الحكم ، وفخامة المظهر فى المجتمع الفيرونى ، وسعة البذل والسخاء فى سبيل تشجيع الفنون .

وكما أدت الجهود المتواصلة من أجل الحصول على قسط من الأمن الداخلى إلى قيام البودشطا بحق التعيين ، ثم الحاكم الطاغية بحق الوراثة ، فى مختلف المدن الإيطالية ، أدت هذه الجهود كذلك إلى الاستعاضة عن الجيوش الوطنية بالجند المرتزقة ، وهى المعروفة فى التاريخ الإيطالى باسم الكوندوتييرى (Condottiere) . وقامت هذه المرتزقة بدورها فى مضمار الحضارة الإيطالية أواخر العصور الوسطى ، إذ آذنت بفلسفة جديدة ، وهى أن الحرب ليست — كما كانت قبلا — ملهاة الطبقة الحاكمة من التجار وأرباب المال ، ومفخرتهم وميزتهم دون سائر الطبقات ، بل الحرب مهنة دموية تشبه مهنة الجزارين ، لا ينبغى أن يتولاها إلا الإخصائيون . وبذا تحرر التاجر من واجباته العسكرية ، واستطاع الانصراف إلى تنمية ثروته ، وإصلاح شئون الحكم فى مدينته ، على حين وجد النبيل — وهو المحروم من الاشتراك فى أمور الحكم على الإطلاق ، بمقتضى دساتير أغلب المدن الإيطالية — أن صفوف مهنة المرتزقة العسكرية مجال حيوى لإشباع أهوائه ونشاطه .

يتضح من ذلك أن نمو هذه الجيوش المرتزقة لم يكن — كما يتبادر إلى الذهن — دليلا على ما سوف ينزل بإيطاليا من انحلال ، بل دليلا على أن قيما ومعايير إنسانية جديدة بدأت تظهر ، على الأقل فى إيطاليا . ذلك أنه غدا من الواضح أن الحرب جزء لا يتجزأ من الأحوال السياسية لذلك العصر ، ولكنها ليست من الأهمية بدرجة توجب استخدام الرجال الذين يكونون أكثر صلاحية ميادين التجارة والمال ، أو بناء الكنائس ، أو رسم الصور ، أو إدارة دفة الحكم فى المدن . غير أن نظام المرتزقة تطور فيما بعد إلى فساد ، فالحروب غدت للمرتزقة العسكرية حروبا لا معنى للعمل على إنهائها أو اجتنابها ، ما دامت أرزاقهم

---

(١) راجع الحاشية السابقة . زيادة .

فى كلٍّ من الجانبين المتحاربين ؛ والمعارك الحربية غدت معارك باهظة التكاليف ، دون أن تكون فيها رائحة قتال . والروح المدنية والعسكرية غدت فاترة فتوراً ذمّه السياسى الوطنى ماكياڤللى الشهير ، وهو فتور عرّض إيطاليا منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى إلا مذلاّت الغزو الأجنبى ، مرّة بعد أخرى .

ومع ما بالتاريخ من عصور كثيرة دالة على ما يحدثه الاستبداد فى نفوس المحكومين من خمود وهمود ، وتدهور وانهيار ، يبدو أن عصر الطغاة الإيطاليين برغم ما اتسم به من قسوة ودهاء ، وتقلب وحيلة ، لم يمنع الروح الإنسانية من الانطلاق فى شىء من الحرية ، ولم يغرس فى الإيطاليين شيئاً من العبودية والاستكانة . الواقع أن هذا العصر يعدّ أحد العصور القليلة التى أزهرت أثناءها العبقرية الإنسانية فى إيطاليا أبدع إزهار ، لأنه فضلا عن رائع الأعمال التى قام بها أفراد من صفوة الرجال فى حلبات الفنون والآداب فى ذلك العصر ، بقيت إرادة الناس على حالها من القوة ، حتى إن أعظم الطغاة نجاحاً وتوفيقاً — مثل آل ميدتشى فى فلورنسا — هم الذين لصقوا مصالحهم إلى مصالح الناس ، وفهموا حاجاتهم فهماً حسناً .

وفى القرن الرابع عشر الميلادى انضوت عدة مدن مستقلة بعضها إلى بعض ، تدريجاً فى وحدات كبيرة . غير أن عرضاً تاريخياً عاماً لا يتسع لتتبع هذا الانضواء التدريجى ، فى تفصيل كثير أو قليل . ويكفى هنا القول أن الأحوال السياسية فى إيطاليا غدت — منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادى — مرهونة بالعلاقات الكائنة بين خمس دول إيطالية رئيسة ، هى مملكة نابولى ، ودولة البابا ، وجمهورية البندقية ، واستبدادية ميلان ، واستبدادية فلورنسا التى هيمن على شئونها آل آلبيتزى (Ibizzi) فعلاً ، مع بقائها جمهورية اسما . وقبل ذلك اختتم النزاع الطويل بين جنوة والبندقية على سيادة البحار ، بانتصار البندقية فى حرب تشيوجيا (١٣٧٨ — ١٣٨١ م) ، وهو انتصار يعدّ من أعظم المفاجآت الحربية ، وأروعها فى تاريخ الحروب . لذا عاشت جنوة التى ما فتئت — منذ أيامها الأولى — فريسة الحزبية الداخلية ، بعيدة فى شبه عزلة عن سائر الدول الإيطالية بين البحر والجبل ، وبدت بفضل جالياتها التجارية بالقسطنطينية أكثر أهمية على شواطئ البوسفور منها فى إيطاليا .

وفى هذه المجموعة من الدول الإيطالية أضحت الظاهرة الكبرى بينها هى

التنافس الشديد بين البندقية وميلان ، حول شيء من الزعامة العامة فى شبه الجزيرة ، حيث بدت البندقية فى رخاء وغنى ، بفضل تجارتها الواسعة فيما وراء البحار ، على حين بدت ميلان فى وفرة من المال واليسر كذلك ، بفضل زراعتها الوفيرة ، وخيولها



المنقطعة النظير ، وأقمشتها الحريرية الرفيعة ، ومنسوجاتها المطرزة ، ووضعها الجغرافى عند بداية طريق تجارى هام يخترق جبال الألب إلى جوف أوربا ومدنها التجارية ، وهذا كله فضلا عن صناعتها الحربية التى أمدت جيوش الدول المختلفة بأنحاء المعمورة بأنواع السلاح والعتاد الحربى ، دون اعتبار للفوارق الدينية[١] .

---

(١) يشير المؤلف هنا إشارة خاطفة إلى المنشورات البابوية التى حرمت على جميع الدول المسيحية ، فى العصور الوسطى ، أن تمد الدول الإسلامية بشيء من السلاح ، أو تتجر معها فى غير ذلك من المواد الحربية. واشتهرت هذه المنشورات ، منذ أول صدورها فى القرن الثالث عشر الميلادى ، بما أدت إليه من عمليات تهريبية ضخمة ، بين مختلف المدن الصناعية بإيطاليا والدولة المملوكية الإسلامية بمصر والشام ، كما اشتهرت بما لقيته من إهمال تام فى القرن الخامس عشر الميلادى ، بفضل جنوة والبندقية وتجارتهما الواسعة فى المواد

ومن الواضح أن أصحاب هذه الدولة الميلانية استطاعوا — فى سهولة وسرعة — أن يجعلوا أنفسهم أغنى أسرة فى أوربا .

وهذا تماماً هو ما حدث لأبناء أسرة ڤسكونتى ، وهى أسرة جبللينية[1] السياسة فرنجية الأصل، بدليل الشعر الأصهب والبشرة الشقراء التى امتاز بهما أفرادها ، جيلا بعد جيل . ذلك أن هذه الأسرة غدت، منذ سنة ١٢٧٧ م ، صاحبة السلطة السياسية فى دوقية ميلان ، وممتلكاتها الشاملة معظم شمال إيطاليا وجزءاً كبيراً من إيطاليا الوسطى. ثم لم تلبث هذه الأسرة أن أضحت أغنى بيت فى أوربا، بل بلغت من الغنى ما جعل الحصول على عروس ڤسكونتية أعظم صفقة مالية فى سوق الزواج بأوربا، كما بلغت من التوفيق فى مصاهراتها الملكية ماجعلها تنتسب عن طريق نسائها إلى خمسة بيوت ملكية، وهى ڤالوا بفرنسا، وهابسبرج بالنمسا ، وتيودور بإنجلترا ، واستيوارت باسكتلندا ، وهانوفر بألمانيا . غير أن الانتساب إلى أسرة ڤسكونتى لم يكن دائماً مصدراً للفخار ، لأنه على حين اشتهر بعض أفرادها بالنزاهة والكمال ، اشتهر منهم بعض آخر بالوحشية والغدر ، والجبن والفسوق والقذر .

وأعظم أبناء هذه الأسرة — وأظهر شخصية فيها — هو جيان جالياتزو ڤسكونتى (١٣٧٨ — ١٤٠٢) ، وهو من أولئك المحظوظين الذين اتفقت مطامحهم الشخصية وحاجات الدولة التى يجدون أنفسهم على رأسها يوماً من الأيام . وعكف جيان على تحقيق مطامعه هذه فى مضاء ومثابرة، دون أن يزعه وازع خلقى ألبتة . واتفقت هذه المطامع وحاجات الطبقة العليا المنقسمة إلى جولفيين وجبللينيين[2] فى ميلان ، إذ رغبت هذه الطبقة رغبة شديدة أن توجد بينها يد قادرة على الفصل فى خصوماتها الحزبية، كما رغب تجارها وصناعها وأهل الزراعة فى ريفها أن تظلهم حكومة قوية . ولم يشذ عن ذلك أهل المدن الخاضعة لحكومة ميلان ، لأنهم برغم ما ساورهم من أسف على فقد استقلال مدنهم، وجدوا عزاء كافياً فيما عاد عليهم من عظيم الفوائد الناجمة عن إدارة حكومية نظيمة مدبّرة، وتجارة واسعة وافرة المكاسب . ومما زاد فى سلطة دوق جيان وغيره من أدواق ميلان بعده، بالإضافة إلى ما تقدّم ، أن

الحربية وغير الحربية مع سلاطين المماليك بمصر والشام ، وملوك البلاد الإسلامية الأخرى بالشرق الأدنى والأوسط . زيادة .

(١) راجع ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٩٥ ، حاشية ١ . زيادة .

(٢) راجع الحاشية السالفة هنا . زيادة .

الإقامة فى ميلان لم تلبث أن أضحت عادة بين النبلاء اللومبارديين ، فأصبح النبلاء بذلك تحت عين الدوق ورقابته ورهن إشارته ، كما أصبح الدوق مهيمناً على شئون الدوقية كلها أدق هيمنة ، على قول المؤرخ الفرنسى كومنين .

ومما يسترعى التفات الأجيال إلى دوق جيان — وهو أول أدواق ميلان[١] ، بحق الوراثة — أنه دلّ على شىء من سعة الأفق ، وبعد النظر ، إذ تراءى له خطر الغزو الأجنبى من بعيد ، ورأى أن استقلال إيطاليا لن يتأتى ما لم توجد دولة قوية متينة البناء فى شمال إيطاليا ، كالتى اعتزم تأسيسها بنفسه . وإذا بدا من العسير على الباحث أن يتصور شيئاً من حميد العواطف فى قلب هذا الرجل الذى تدنست أخلاقه تدنساً بصفات الخداع والغدر والوحشية ، فمن المسلم به على الأقل ، وفى غير شك ، أن جيان ڤسكونتى برهن على أنه داهية أريبة ، خبير بانتهاز الفرص السياسية . مثال ذلك أن دوق جيان رأى أن انصراف البابوية إلى مشكلات الانقسام الدينى[٢] ، وابتلاء ناپولى بشلل الفتن الداخلية ، جعل الجوّ خلواً من العقبتين الكؤودين اللتين ربما وقفتا إحداهما أو كلاهما حجر عثرة فى سبيل امتداد دولته إلى جزء كبير من إيطاليا . واتصف جيان جالياتزو كذلك بما اتصف به أشباهه من أصحاب المستويات العالية فى الحضارة والفخامة ، بالإضافة إلى صفات الخسة والغدر التى اصطبغ بها عصره . فبنى الجسور والحصون والقصور ، وفى كلّ من دير تشرتوزا بمدينة پاڤيا ، وجامعة پاڤيا نفسها ، دليل على اهتمامه بأن يسطع اسمه بين أحباب الدين والفنّ والعرفان .

أما انتصارات جيان جالياتزو فى ميادين القتال ، فليس هو صاحبها ، لأنه لم يكن من رجال الحروب ، بل يرجع الفضل فيها إلى فائق المهارة الحربية التى اتصف بها فاشينو كانى (Fascino Cane) ، وهو قائد جيوشه المرتزقة .

أقلقت هذه الانتصارات مضاجع الدولتين المجاورتين لدوقية ميلان ، وهما البندقية وفلورنسا اللتان خشيتا كل الخشية من امتداد ممتلكات جيان جالياتزو ، وحرصتا كل الحرص على الوقوف فى طريق تقدمه . ذلك أن ميلان انتزعت من البندقية مدينتى ڤتسنزا وپادوا ، وطردت فلورنسا من سيينا وپيروچيا وأسيسى وپيزا .

---

(١) انظر (Camb. Med. Hist. VII. 71-72) ، لمعرفة تفصيلات سياسة جيان جالياتزو فسكونتى فى ميلان ، حيث غدا صاحب السلطة المطلقة فيها ، منذ سنة ١٣٨٦ م . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص٣٧٧ ، حاشية ١ . زيادة .

وذلك فى سلسلة من الهزائم التى كالها فاشينو كانى لجيوش الفلورنسيين ، وعلى رأسهم وقتذاك سيرچون هـُوكوود القائد الإنجليزى المأجور ، وهو الذى لا يزال تمثاله قائماً فى الكتدرائية الفلورنسية . (Duomo di Florenza) .

وفى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى – أى منذ وفاة جيان جالياتزو سنة ١٤٠٢ م – امتلأ شمال إيطاليا بحروب كلها هجوم من ناحية ميلان لتحقيق أطماعها التوسعية ، ودفاع من ناحية البندقية وفلورنسا أملا فى إيقاف هذه الأطماع . واستنفدت هذه الدول الثلاث – وهى أغنى الدول الأوربية وأعظمها حضارة وقتذاك – تلك السنوات الثمينة التى لا تعوّض فى حروب لا معنى لها ، ولا فائدة منها فى مضمار التقدم الحضارى ، وهى السنوات التى كان من المستطاع أثناءها دفع الأتراك العثمانيين عن جنوب أوربا ، لو أن إيطاليا استطاعت أن تنهض بعمل حربى جامع . لكن الذى حدث كان عكس ذلك ونقيضه تماماً ، إذ هدمت مراحل الحروب الخمس التى وقعت بين ميلان والبندقية – وهى حروب امتدت مرحلتها الخامسة وحدها سبع سنوات – كلّ أمل فى توحيد القوى الإيطالية لمواجهة الخطر العثمانى من ناحية الشرق ، حتى إذا انتهى ما بين الدولتين فى صلح لُودِى سنة ١٤٥٤ م ، كان الأتراك العثمانيون فى القسطنطينية .

غير أن ميلان لم تحقق بحروبها شيئاً من آمالها العريضة فى إيطاليا ، لأنه مع الفرض جدلا بعدم وجود البابا والبابوية فى شبه الجزيرة ، بدت كل من البندقية وفلورنسا على جانب من الثروة ، وعلى جانب من القوة كذلك ، مما يجعل فى مقدورهما – عاجلاً أو آجلاً – أن يحولا دون تأسيس مملكة عاصمتها ميلان ، فى شمال إيطاليا . وعلى الرغم من مهارة فيليبو ماريا ڤسكونتى الذى استطاع – بعد سنوات كلها حروب – أن يضيف إلى ممتلكات أبيه جيان جالياتزو ، ظلت دوقية ميلان بعيدة من أن تكون مملكة أحلامه ، لأن البندقية وفلورنسا وقفتا دون تحقيق ذلك ، وبدت كلتاهما راجحة الكفة على ميلان ، عند وفاة فيليبو سنة ١٤٤٧ م.

وللبندقية قصة تدلّ – برغم ما يتخللها من حروب وهزائم فادحة باترة فى البحر والبرّ – على أن البنادقة عاشوا فى رخاء اقتصادى عظيم وأمن داخلى تام ، وهى تترك فى ذهن الباحث صورة من سياسة تبدو كأنها معجزات الفطانة واللقانة ، فى تدبير شئون الحكم . الواقع أن دولة من الدول الإيطالية لم تنعم بمثل ما بدت البندقية ناعمة به ، مطمئنة إليه ، من حياة آمنة معتدلة الموازين بين الناس . ذلك أن البندقية

خلت خلواً حميداً من الوباءين السياسيين اللذين أصابا معظم المدن الإيطالية أواخر العصور الوسطى ؛ وهما أولا كثرة المنفيين المغضوب عليهم من أبناء هذه المدن، ومؤامرات أولئك المنفيين على تمزيق الحكومة القائمة فى مدينتهم ، كائنة ما تكون ، عند أول فرصة تحين ؛ وثانياً كثرة الضغائن العائلية التى ملأت مشكلات السياسة بأغلب هذه المدن مرارة وحرارة، واضطراباً . وعاشت البندقية دون غيرها من المدن الإيطالية عيشة راغدة هانئة ، بفضل خلوها من هذين الوبائين . وساعد على ازدياد رغدها وهناءتها ما توفر لأهلها من عدالة نزيهة فى متناول جميع الطبقات ، وضرائب خفيفة العبء على الفقراء ، وأعياد ومواسم حافلة بالمباهج والملاهى ، وتنظيمات تشمل عدداً من نقابات مهنية صغيرة ، وهى نقابات متكفلة بمواردها وحاجاتها ، والغرض منها توفير أسباب العيش والعمل فى مختلف المهن . وهذا وذاك فضلا عن مسرح تمثيلى متواضع ، هيأته حكومة البندقية لأصحاب المواهب من الكتاب والمؤلفين والممثلين . ولم ينغمس البنادقة أو تنغمس حكومتهم فى هذه المظاهر انغماساً أريد به صرفهم عن شئونهم ومصالحهم القومية فى البحر والبر ، فإن تعيين الدوج فى وظيفته مدى حياته ضمن استمرار الحكم أطول مدة ممكنة، فى شىء من الاطمئنان ، كما أن سعة السلطان المخولة لمجلس العشرة كفل إدارة دفة الحكومة فى كثير من الحزم والدقة . لكن يضاف إلى ذلك أن حكومة البندقية جنحت إلى شىء من الاستبداد ، حين استعانت بهيئة من العيون والجواسيس لتجس بها أنباض المدينة ، وتتخذ حذرها من المفاجآت المكدرة ذوات العواقب الوخيمة . غير أنه إذا كان هذا هو الاستبداد الذى عاش عليه البنادقة ، فلا مشاحة أن حكم أدواج البندقية، بالقياس إلى غيره من ألوان الاستبداد فى التاريخ، كان استبداداً ملؤه الأبوة والرحمة . وكفى دلالة على رقى التشريعات البندقية تحريم استخدام الصغار فى المهن الخطيرة ، وتعيين حد أقصى لحمولة السفن ، وهى تشريعات لم تعرفها تشريعات بريطانيا العظمى إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، بعد أن غدت أعظم دول العالم فى ميادين الصناعة والملاحة فيما وراء البحار .

وحبت الطبيعة جمهورية البندقية بوضع جغرافى جعلها مفتاح الطريق بين الشرق والغرب ، واستخدمت وضعها الجغرافى هذا فى مهارة وجسارة ، وسبقت جنوة وأرجونة سبقاً بعيداً فى ميادين التجارة ، وهما أقرب المنافسين لها فى

هذه الميادين . فحملت سفن البندقية الجزء الأكبر من التجارة الأوربية ، وجلبت غلايينها السكر والتوابل من الشواطىء المصرية والشامية إلى إنجلترا ، والصوف الإنجليزى الخام من إنجلترا إلى بلاد الفلمنكيين[١] (الفلاندرز) ، والمنسوجات الفلمنكية من بلاد الفلاندرز إلى مدن البحر الأبيض المتوسط . ولم تنشب حروب البندقية ضدّ جنوة حول أمور تافهة حقيرة الشأن ، كما هو الحال فى كثير من حروب العصور الوسطى ، بل كانت نضالا مهلكاً عنيداً من أجل السيطرة على أسواق التجارة . ذلك أن التجارة هى التى وجّهت سياسة البندقية، حتى إذا غدت البندقية إمبراطورية ذات ممتلكات واسعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط لم تكن هذه الإمبراطورية غاية فى ذاتها ، بل أصبحت وسيلة للتوسع فى التجارة . وغدا البحر سبيلا لجميع مغامرات البندقية ، ومثاراً لجميع أطماعها الواسعة . والتحق الشباب من نبلاء البنادقة فى البحرية ، لأنها الطريق الطبيعى للشهرة والمجد والمال . وفى البحر أنشأت حكومة الجمهورية ستة أساطيل على طراز واحد ، وعينت لكل منها موانيه ومراسيه ، وقصدت بتوحيد طرازها أن يكون باستطاعة القناصل البندقيين – فى مختلف الموانى الأوربية – إمداد السفن بما تحتاج إليه من " قطع للغيار " (spare parts) – ذات نوع واحد ؛ وفى هذا ما يدلّ دلالة واضحة على مبلغ ما اتصفت به حكومة البندقية من بصيرة وتدبير ، فى كلّ ما يتعلق بشئون البحرية .

أما السياسة الخارجية فى البندقية ، فاتجهت منذ أول أمرها إلى تحقيق أهداف ثلاثة على وجه التحديد ، وهى الاستيلاء على ساحل دالماشيا ، والتملك على مساحات زراعية كافية بشمال إيطاليا ، والسيطرة على الممرات الألبية التى تخترقها قوافلها التجارية البرية . وفى سبيل تحقيق هذه الأهداف اتصلت البندقية أحياناً مختلفة بملوك المجر ، وأدواق پادوا وڤيرونا . غير أن البندقية وجدت فى فيليپو ماريا ڤسكونتى ، دوق ميلان (١٤٠٢ – ١٤٤٧ م)، أشدّ منافسيها خطراً معظم النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى ، إذ استطاع فيليپو بفضل فرنتشسكو كارمانيولا (Francesco Carmagnola) ، وهو قائد المرتزقة فى ميلان ، أن يوسع فى الممتلكات الميلانية بالحرب ، وأن يغدو فيليپو نتيجة هذه الحرب مسيطراً

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣١٧ . زيادة .

على شمال إيطاليا أتمّ سيطرة ، سنة ١٤٢١ م .

هل تستطيع البندقية أن تقف جامدة ، على حين عكف هذا المنافس الخطير على تقوية مركزه ؟ هل تثق فى عدم هجومه على ڤيرونا عند أول فرصة مناسبة ؟ أليس الهجوم فى الوقت المناسب خير وسيلة للدفاع ؟ أليس امتداد حكم البندقية إلى السهل اللومباردى هو الضمان الكفيل وحده بسلامتها ؟ وفى سنة ١٤٢١ م نادى الزعيم الشاب فوسكارى (Foscari) ، فى حرارة وحماسة ، أن تقوم البندقية ضدّ ميلان بحرب سريعة لمنع الحرب ، قطعاً لما لا بدّ لميلان أن تقوم به — عاجلاً أو آجلاً — ضدّ البندقية . واعترض الدوج الشيخ موتشنيجو (Mocenigo) بأقوال شبيهة بما تسوقه حكمة الشيوخ فى كل العصور ، من حجج ضدّ مذهب المبادرة بالحرب لمنع الحرب ، وما فيه من خراب ؛ وما دام ذلك الدوج العجوز على قيد الحياة تجنبت البندقية هذه الحرب . لكن موتشنيجو توفى سنة ١٤٢٣ م ، وحل فوسكارى محله فى منصب الدوج ، فلم يبق لصون السلام صدى فى دوائر حكومة البندقية . ونزولا على إلحاح فلورنسا فى طلب الحرب ، ولا سيما بعد أن تحول كارمانيولا إلى خدمة البنادقة ، أعلنت البندقية الحرب على فيليپو ماريا ڤسكونتى دوق ميلان .

غير أن جمهورية القديس مرقص — وهو الاسم الرسمى لدولة البندقية — لم تلق من التوفيق ما جعلها تحمد هذا القرار ، لأن شخصيات مرتزقة أكثر مهارة من كارمانيولا ملأت سوق الخدمة الحربية المرتزقة فى إيطاليا أواخر العصور الوسطى ، وأشهرها فرنتشسكو سفورزا (Francesco Sforza) ، وهو ابن أحد مشاهير المرتزقة من إقليم رُمانية (Romagna) بإيطاليا ، وصاحب الفضل فى نصر ميلان على البندقية . وبدا سفورزا على جانب من هائل الحيوية وقوة الاحتمال ، ودلّ أثناء الحروب الطويلة التى اشتعلت بين البندقية وميلان على أنه جندى واسع الحيلة ، وسياسى من أبرع السياسيين فى عصره . ولم يكن كارمانيولا نداً لمثل هذا الخصيم ، ولم يلبث أن أثار شكوك البنادقة فى إخلاصه لهم ، بعد أن أحرز بجيوشهم بعض النصر أول مراحل القتال .

ذلك أن أسطول البندقية فى مياه نهر پو تحطّم سنة ١٤٣١ م ، فسألت حكومة القديس مرقص عما شغل خادمها كارمانيولا المتقلب حين حلّ بأسطولها الدمار ، وأغوته إلى البندقية ، حيث اتهمته بالخيانة العظمى ، وقدّمته للمحاكمة سرّاً ، ثم

أمرت بإعدامه علناً . وأعجب القاصى والدانى من المعاصرين بالشجاعة البالغة التى حملت البندقية على إعدام قائد من قادة المرتزقة ، فى غير جلبة أو هرج ، ورأوا فى ذلك دليلا على عزم البنادقة أن تكون السلطة المدنية فيها فوق الاعتبارات الحربية . غير أن هذه الحادثة لم تجرّ فى أذيالها نصراً، ولم تؤدّ إلى شىء من الحكمة فى دوائر البندقية . والدليل على ذلك أنه لما مات فيليپو ماريا دوق ميلان سنة ١٤٤٧ م ، دون أن يخلف وريثاً ذكراً ، وغدت ميلان جمهورية مرّة أخرى ، اقتضت الفطنة السياسية أن تمدّ البندقية يد الصداقة للحكومة الجديدة بميلان ، وهى لا تزال واهنة مزعزعة الأركان . لكن شاء النحس ، وشاءت صلابة حزب الحرب فى البندقية — وهو الحزب الذى أنجب جميع البلايا السابقة — أن يقرّر الدوج فوسكارى ما عقد عليه نيته من هدم جمهورية ميلان .

غير أن البندقية بنت قرارها دون أن تحسب حساباً للقائد الداهية فرنتشسكو سفورزا ، وهو الذى احتاط لما عسى تتمخض عنه الحوادث فى ميلان بالزواج من الابنة الوحيدة لآخر الفسكونتيين ، وهى بيانكا ابنة فيليپو ماريا . واتخذ سفورزا من غلطة البنادقة فرصة لتحقيق أطماعه الشخصية ، فانبرى للدفاع عن الحكومة الجمهورية الناشئة فى ميلان ، وهزم البنادقة برّاً وبحراً، حتى إذا ذلت البندقية والتمست مصالحته ومحالفته ، انقلب هو على الجمهورية الميلانية وأهلها أصحاب نعمته ، ونصّب نفسه دوقاً فى ميلان ، سنة ١٤٥٠ م . وهكذا بعد خمس وعشرين سنة كلها حروب لا هوادة فيها ، منذ سنة ١٤٢٢ م ، باتت البندقية آخر الأمر قبالة دوق جعل سلفه فيليپو ماريا ڤسكونتى يبدو طفلاً ساذجاً ، بالقياس إليه فى الحيلة والبطش .

ومن المعقول أنه لم يكن باستطاعة سفورزا أن يحدث ما أحدث من انقلاب ، وأن ينصّب نفسه دوقاً فى ميلان ، لولا انقلاب غير منتظر فى سياسة فلورنسا المجاورة . ذلك أن سفورزا لقى منذ أوائل عهده بخدمة الڤسكونتيين فى ميلان مساعدة مالية متصلة من صديقه كوزيمو دى ميدتشى (Cosimo di Medici) ، وهو تاجر فلورنسى عاش منفياً عن بلده فلورنسا مدة سنين ، ثم عاد إليها سنة ١٤٣٤ م ، ولم يلبث أن جعل نفسه الحاكم الفعلى للجمهورية الفلورنسية وقتذاك . وكان من رأى هذا الرجل الهادئ البصير أن البندقية — لا ميلان — هى العدو الحقيقى لفلورنسا ، لأنها هى التى تنافسها فى مصالحها المصرفية وأسواقها التجارية بأنحاء أوربا .

الواقع أن فلورنسا اشتهرت من الناحية الاقتصادية بمصارفها المالية (البنوك) ،

وتجارتها الضخمة ، فضلا عن صناعة المنسوجات ، وهى بالإضافة إلى ذلك عاصمة روحية لأواسط إيطاليا ، منذ غدت إيطاليا الوسطى إقطاعاً للبابا جريجورى السابع ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . ثم إن فلورنسا كذلك مسقط رأس دانتى ، وموطن أسرة بترارك ، وأسرة بوكاشيو . وفى أثناء النضال بين الجولفيين والجبلينيين[1] مال أهل فلورنسا إلى الجانب البابوى ، ثم إلى الجانب الفرنسى ، لأنهم اعتقدوا أن الرضا بالإمبراطورية فى أية صورة من الصور إثم لا يغتفر . ولما كانت أغراض فلورنسا غير مقتصرة على الدين والسياسة فحسب ، بل تهدف دائماً إلى الغنى والثروة ، فإنها أفادت أموالا طائلة جزاء ميلها إلى الجانب البابوى ، بأن صارت مصرف الكرسى البابوى بأنحاء أوربا . غير أن النهوض بالأعمال المصرفية على مقياس كبير ، وهو ما نهضت به فلورنسا ، تطلب دخول الجمهورية الفلورنسية ميادين السياسة والدبلوماسية . ولذا أدّى اهتمام فلورنسا بالأعمال المصرفية إلى ارتباطها بعلاقات سياسية مع كثير من الحكومات فى مختلف البلاد ، وأضحت أسرة أكيايولى (Acciaiuoli) مصدراً لشخصيات بارزة فى دوائر السياسة ، وهى الأسرة التى سيطرت بأموالها على جميع المصارف الفلورنسية فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وأشبهت بذلك أسرة روتشيلد فى القرن التاسع عشر الميلادى . وكان من الأكيايوليين رئيس وزراء فى نابولى ، وحاكم فى مالطة ، وطاغية فى كورنثة ، وسلسلة من أدواق أثينا . لكن أهل فلورنسا أنفسهم ظلوا على حالهم متمسكين بروح المساواة المطلقة بين الناس ، فى كثير من الحماسة والتحاسد ، وهذا برغم تطورّ أعمال فلورنسا المصرفية ، ونشاطها التجارى بين عواصم الدول الأوربية . فعلى حين لم تسمح أية أسرة من الأسر الفلورنسية أن يكون لغيرها شىء من الأولوية عليها ، طمعت كل واحدة منها أن تكون هى الأولى دون غيرها من الأسر .

ووضحت هذه الصفات الدالة على التقلب والتحاسد والطموح فى دستور فلورنسا ، وهو دستور تنقصه لزوميات الحكم الصالح النظيم . ذلك أن هذا الدستور اكتظ بموادّ لتحديد السلطات ، ووسائل للاستثناء من التحديد ، وموادّ للانتخاب بالاقتراع ، وموادّ لضمان تقصير ولاية المناصب التنفيذية ، وموادّ لتركيز السلطة الفعلية فى النقابات الصناعية الكبيرة أو الهيئات التجارية . ولو لم يحرم النبلاء والعمال على السواء من الحقوق المدنية فى فلورنسا العصور الوسطى ، لاستطاع

---

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ، ١٩٤ ، حاشية ١ . زيادة .

الباحث أن يصف هذا الدستور الفلورنسي العجيب بأنه ديمقراطية بورچوازية نظرية متطرفة ، تقرب من الاختلال العقلي . فالجونفالونييري[1] ، (Gonfaloniere di Giustizia) ، وهو رئيس الحكام (Signorio) ، يتولى منصبه لمدة شهرين ، وكل اقتراح لمجلس الحكام لا يصبح قانوناً إلا بعد إقراره بأغلبية ثلثي الأعضاء فى خمس لجان — أى مجالس — متفرقة . ويصعب على الباحث أن يتصور دستوراً آكد وأضمن من هذا الدستور ، لخفض مستوى الحكم ، وعرقلة سير الأداة الحكومية .

وكان مما لا بدّ منه أن ينهار هذا الدستور عند أول محنة حتى إذا أحسّ الفلورنسيون خطر جيرانهم ، وأدركوا أن مدينة فلورنسا وحدها لا تستطيع مقاومة هذا الخطر ، وأن الاستيلاء على الأراضى المحيطة بها ضرورىّ لتأمين صلاتها التجارية ، عمدوا إلى إجراءات عملية سريعة ، وأخذوا يغفلون كثيراً من حرفية القيود المعقدة فى دستورهم العجيب ، وهو الدستور الذى بلغ من تعلق الناس به أن أحداً لم يجرؤ على اقتراح بنبذه . وكان حزب الجولفا (Parte Guelfa) — وهو منظمة حزبية لم ينصّ عليها الدستور الفلورنسي — أول حزب من الأحزاب التى هدفت جدياً إلى انتهاك روح الديمقراطية الفلورنسية ، مع مراعاة حرفيتها . غير أن وسائل هذا الحزب للوصول إلى أغراضه لم تشتمل على شيء من الرقة أو الحياء ، بل أشبهت وسائله وأغراضه أسوأ أعمال عصابات المجرمين فى بعض المدن الأمريكية الحالية ؛ ولم تكن فلورنسا مدينة مشهورة بالهدوء والخضوع والخلوّ من الصخب ، يوماً من الأيام . ثم أدت شناعة أعمال الجولفا — بالإضافة إلى سخط عمال الصناعة من كساد أحوالهم وقتذاك — إلى الثورة الشعبية الكبرى فى تشيومبى (Ciompi) ، سنة ١٣٧٨ م ، وهى الثورة التى كفلت للنقابات الصغرى (Arti Minori) مكاناً فى حظيرة الدستور . ومع أن حزب الجولفا خسر بعد ذلك جميع مظاهر نفوذه ،

---

(١) المرادف الحرفى المتبادر لهذا اللفظ فى اللغة العربية هو أمير علم ، وهو فى دستور دولة سلاطين المماليك بمصر العصور الوسطى أمير مملوكي يتولى أمر الأعلام السلطانية وترتيبها ، فى الركوب والاحتفالات . (انظر المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر زيادة — ج ١ ، ص ١٢٤ ، حاشية ١ ، وما بها من المراجع) . غير أن هذا المرادف العربى لا يصلح لتأدية المراد هنا بالمتن ، لأن لفظ جونفالو نييرى جرى فى مصطلح الفلورنسيين فى العصور الوسطى بمعنى رئيس الحكام ، مع العلم بأنه اسم مركب تركيباً مزجياً ، مقطعه الأول من اللغة الألمانية القديمة ، ومعناه عَلَم ، ومقطعه الثانى إيطالى ومعناه ممسك . انظر (Camb. Med. Hist. VIII. pp. 219-222) ، لمعرفة تفصيلات دستور فلورنسا وحكومتها فى ذلك العصر . زيادة .

بسبب شناعة أعماله ، لم يتحرك أحد لتعديل الدستور الفلورنسى ، بل ظلّ هذا الدستور موضع تعلق الفلورنسيين ، رغم استحالة تطبيق الكثير من موادّه ، ولم يزد عليه سوى أن الحاجة إلى تجاهله وإغفاله – بالدوران حوله – أضحت ضرورة واضحة .

وفى هذه المرحلة من تاريخ فلورنسا انتقلت السيطرة على شئون المدينة – – نتيجة ثورة أخرى – إلى أيدى أسرة فلورنسية ذات مكانة بارزة فى التجارة والمال والوطنية ، وهى أسرة آلبيتزى . وعرف الآلبيتزيون كيف يحفظون لأنفسهم قسطاً وافراً من السلطة ، دون أن يخلقوا شعوراً بظلم ، أو يثيروا روحاً من سخط . ومن هؤلاء الأخوَان ماسو ورينالدو اللذان حكما فلورنسا حكم أصحاب التيجان ، من سنة ١٣٨٢ إلى ١٤٣٤ م . واطمأنت فلورنسا وتوابعها من المدن بإيطاليا الوسطى لهاتين الشخصيتين ، وما شهدت فيهما من المقدرة على دقة البت فى الأمور ، فضلا عن الخبرة بشئون التجارة ، والاهتمام بالفنون والآداب ، والسخاء على الفقراء مع القسوة على الأشقياء ، والدأب على الظهور بمظهر المواطنين العاديين ، والحرص على إخفاء مصادر السيطرة . ومما مكن لهذين الأخوَين فى فلورنسا – بالإضافة إلى ذلك كله – أن الفلورنسيين أحسوا وقتذاك بخطر خارجى عام ، إذ وافق حكم الآلبيتزيين ازدياد قوة ميلان على عهد جيان جالياتزو وفيليپو ماريا ڤسكونتى ، وأضحت فلورنسا بحاجة إلى يد قوية لتسلم إليها دفتها راضية مطمئنة .

وفى هذه الأثناء شقّت أسرة أخرى طريقها نحو مسرح الحوادث فى فلورنسا وإيطاليا الوسطى ، وهى أسرة آل مِدتشى التى فاقت بثروتها الآلبيتزيين ، واشتهرت منذ ثورة سنة ١٣٧٨ م بعطفها على المصالح الشعبية . ونشأ آل مِدتشى فى دوائر المـال حـتى غدوا أربابها ، والفضل كل الفضل لهؤلاء المدتشيين المهرة الأعلام ، فيما بلغته فلورنسا من غنى ومعرفة وسعة نفوذ ، فى بلاط الملوك والأمراء بعواصم الدول الأوربية . وبلغ من أهمية الخدمات المصرفية وضخامتها زمن آل مدتشى فى فلورنسا أن صار من البداهة المالية أن أى عجز يطرأ على المصارف المدتشية يهوى بجميع الأوضاع والنظم المالية – فى أوربا – إلى مهاوى الانهيار . غير أنه إذا غدت الأعمال المصرفية هى الأساس الاقتصادى الذى أقام عليه آل مدتشى حكمهم فى فلورنسا ، فإن المال لم يكن سوى عامل من العوامل الكثيرة التى اشتقوا منها نجحهم وسلطانهم المديد . وإذ صار آل مدتشى أرباب مصارف وأموال ضخمة ، فإنهم ظلوا كذلك أرباب مزارع ومحاصيل زراعية ، وفى استطاعتهم مناقشة فلاحى

تسكانيا ومسامرتهم فى مسائل الماشية وأحوال المحاصيل ، مع الخبرة بالآداب والفنون ، والدراية بكل جلائل الأمور فى سياسة الدولة ، ودقيق الصغائر وأحقرها فى التآمر السياسى . وفى جميع ما درج عليه الآلبيتزيون من سلوك — فى مختلف شئون فلورنسا — خطت عبقرية المدتشيين خطوة إلى الأمام ، على مقياس أكبر وخيال أوسع . غير أن الضرائب ظلت وسيلة لمساعدة الأصدقاء وإيذاء الأعداء ، كما ظلت الانتخابات موضع التلاعب . ثم إن حرفية الدستور الفلورنسى بقيت موضع الرعاية ، على حين أضحت روحه ومراميه موضع العبث والإغفال فى كثير من البراعة ، ومهما تكررت الانتخابات أسفرت النتيجة دائماً عن عودة المرشحين المدتشيين . وتغافلت الديمقراطية الفلورنسية عن هذه المخالفات والاختلالات الصريحة ، لأن علو كعب المدتشيين فى تصريف شئون الحكم ، وفخامة بلاطهم ، ورعايتهم للفنون رعاية سخية ذكية ، مع حرصهم على التخلق بأخلاق ممعنة فى البساطة والتواضع والاختلاط بالناس — كل ذلك كفل لكل من كوزيمو دى مدتشى وحفيده لورنزو سنوات رائعة من واسع السلطان .

أما نابولى — وهى المملكة العسكرية التى يكمل تصويرها تاريخ إيطاليا أواخر العصور الوسطى — فلم يوجد بين الدول الإيطالية ما هو جدير أو زعيم أن يفوقها فى القوة والبطش ، مع العلم بأنه لم يكن بين الدول الإيطالية ما يمكن أن يشبهها فى الضعف والهوان . وبديهى أولا أنه ليس ثمة علاقة بين مصائر دولة — كائنة ما تكون — وبين اعتدال أحوالها الجوّية ، أو بهاء مناظرها الطبيعية ، أوأصالة النسب الذى ينتسب إليه أهلها . ثم إنه يبدو أن نوعاً من النحس وسوء الطالع لزم هذا الإقليم الإيطالى الجميل " الذى طاب للصوص وقطاع الطرق أن يجعلوا منه موطناً "[١] ، وطاب قبل ذلك أن يكون موطناً لأول قبس من نور الحضارة اليونانية القديمة بشبه جزيرة إيطاليا ، حين حلّت به جالية يونانية فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وهى الجالية التى بنت نابولى (Neapolis) — أى المدينة الجديدة . غير أن حضارة من الحضارات لم تقو على النمو والبقاء طويلا فى هذا الإقليم الذى غدا تكوينه الحضارى أشبه شىء بمجموعة (Palimpsest) من حضارات رغيدة تهدّمت بعضها فوق بعض طبقات ، بعد إيناع

---

(١) اقتبس المؤلف العبارة الواردة بين الشولات المقلوبة من مرجع لم يذكره ، ولم يستطع المترجم أن يهتدى إلى ذلك المرجع . زيادة .

كل منها زمناً ، دون أن تخلف واحدة منها شيئاً مذكوراً . ذلك أن الدولة الرومانية استولت على هذا الإقليم من اليونانيين أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم استولى عليها القوطيون الشرقيون من الرومانيين فى القرن الخامس الميلادى ، ثم أعادها جستنيان وجنوده إلى حظيرة الدولة الرومانية (الشرقية) أواسط القرن السادس الميلادى ، وظلت على حالها هذه حتى صارت دوقية مستقلة أوائل القرن الثامن الميلادى ، ثم مماكة نورمانية تشمل إقليم ناپولى وجزيرة صقلية سنة ١١٣٩ م ، وهى مملكة الصقليتين . وحلّ الهوهنشتاوفن محلّ النورمانيين فى هذه المملكة المزدوجة ، فأضحت ناپولى وإقليمها وجزيرتها على عهد أولئك الهوهنشتاوفن أبهى وأرقى الممالك الأوربية وأحسنها حكماً ، فى العصور الوسطى . غير أن قوة الهوهنشتاوفن تهدمت تحت مطارق النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية ، وانتقلت مملكة الصقليتين على أيدى البابوات إلى حكم الفرنسيين ، أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فى شخص الملك شارل آنچو ، أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا . ومنذئذ جاءت النحوس تترى فى مملكة الصقليتين ، إذ دلّ الملك شارل آنچو على أنه طاغية أنانىّ لا خير فيه ، فثار عليه الصقليون ثورة اصطبغت بكلّ ما هو معروف عن أهل صقلية من عنف وقسوة ، فذبحوا ما استطاعوا من جنده وحاشيته وموظفيه ، وغيرهم من سائر الفرنسيين رجالا بأنحاء الجزيرة ، ثم أسلموا أمرهم إلى حليفهم پيترو الثالث ملك أرجونة ، وهو الذى اكتسب بزواجه من ابنة ما نفرد بن الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن حق المطالبة بإرث صقلية[١] .

بهذا باتت مملكة الصقليتين الإنچوية الفرنسية قاصرة على إقليم ناپولى ، وغدت صقلية تابعة لمملكة أرجونة . ومن ثم اشتعلت بين أسرتى آنچو وأرجونة حروب طويلة حامية باء فيها الأنچويون بالخسران ، على حين بقيت صقلية فى أيدى الأرجونيين ، وهم ثالث الدول البحرية القوية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . غير أن قصة النحوس بناپولى وجنوب إيطاليا لم تتمّ فصولا بهذه الخاتمة ، لأن الأنچويين ظلوا أسرة عريضة الأطماع ضيقة التفكير ، يهتمون بمظاهر الحكم أكثر من اهتمامهم بشئون الحكومة . ثم إنهم لم يقنعوا بمملكة ناپولى ، بالإضافة إلى

(١) انظر تفصيل ذلك فى (Previté-Orton : A History of Europe. p. 92.) . زيادة .

(٢) انظر تفصيل هذه التطورات الهامة فى تاريخ مملكة نابولى العصور الوسطى فى (Camb. Med .Hist. Vol. VII. pp. 62-64) . زيادة .

كونتيتهم پروفانس الفرنسية ، بل راح فرعهم الأكبر يعمل للتملك فى بلاد المجر ، على حين بقى فرعهم الأصغر يحكم فى مملكة ناپولى . ولم يرَ لويس آنچو — بعد أن صار ملك المجر — أية غرابة أو شذوذ فى التوفيق بين النقائض من الممتلكات على اختلاط أوضاعها الجغرافية والسياسية . فغزا إيطاليا أملا فى الجمع بين مملكتى ناپولى والمجر تحت صولجانه . ثم إنه على الرغم من نزول لويس آنچو عن هذا المشروع الأخرق ، وسماحه أن تظلّ مملكة ناپولى فى فرع من الفرع الآنچوى الأصغر — أى شارل الثالث أمير دورازو وابنه لادسلاس وابنته چوانا الثانية (١٣٨٢ — ١٤٣٥ م) ، وهم الذين استطاعوا لعدم وجود ممتلكات لهم فى فرنسا أن يجانسوا بين مصالح ناپولى ومصالحهم الشخصية — فإن الملكية الآنچوية استندت إلى قواعد هاوية . ذلك أن حقوق بيت دورازو ظلت غير مقبولة أو معترف بها فى صقلية ، أو فى پروڤانس ، وأن ملوك ناپولى من ذلك البيت واجهوا طبقة من البارونات الذين وجدوا فى التآمر مع الطامعين فى العرش من بيت مملكة أرجونة خير سبيل لتحقيق آمالهم الإقطاعية . وبسبب هذه الحال تعثرت الملكية الآنچوية فى ناپولى بمختلف المعاثر والعقبات الخطيرة ، على حين أضحت الملكية فى كلّ من فرنسا وإنجلترا مصدراً للقوة والوطنية . والخلاصة أن قيام أسرة ملكية أجنبية فى ناپولى ، وتعاقب سلسلة من الملوك المستهترين والملكات الفاجرات أمثال چوانا الثانية على العرش ، واستمرار القلق الناجم عن تنازع الأنچويين والأرجونيين حول أحقية كليهما فى المملكة — كل ذلك جعل سياسة ناپولى على عهد بيت آنچو أشبه شيء بمأساة درامية رخيصة . ثم وجدت ناپولى أخيراً فى ألفونسو الخامس ملك أرجونة (سنة ١٤٣٥ م) حاكما رشيداً ممتازاً بصفاته ، وسياسياً حازماً كريماً رفيع الثقافة ، من شاكلة ملوك عصر النهضة فى أوربا ، وهو فضلا عن ذلك قوى بما تحت يده من جيوش مرتزقة . ورأى ألفونسو أن أسرته لن تكون فى مأمن من خطر الفرنسيين إلا بحلف وثيق مع فلورنسا وميلان ، ونجح ألفونسو فى عقد ذلك الحلف الذى يعدّ فخراً لسياسة ناپولى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وهو فى الواقع السهم الوحيد الذى أسهمت به ناپولى فى سبيل تحسين شئون إيطاليا السياسية . ثم انهار ذلك الحلف بعد وفاة ألفونسو (سنة ١٤٥٨ م) ، بسبب خيانة ميلان ، وافتتح بذلك فصل جديد من المتاعب والاضطرابات فى تاريخ إيطاليا عامة وناپولى خاصة ، وهو فصل اعتبره بعض المؤرخين لضخامة نتائجه خط التقسيم الزمنى بين العصور الوسطى والعصور الحديثة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Ady, (C.M.) : A History of Milan under the Sforzas. Ed E. Armstrong 1907

Armstrong. (E.) : Lorenzo de Medici and Florence in the Fifteenth Century, 1896.

Butler, (W.F.T.) : The Lombard Communes. 1906.

Horatio Brown : Venice, A Historical Sketch of the Republic. 1893.

Trevelyan (Janet) : History of Italy, 1908.

Sismondi (J.C.I.) : History of the Italian Republics. (Everyman's Library). 1907.

Symonds (J.A) : The Renaissance in Italy. (The. Age of the Despost.) 7 vols. 1875-1886.

Villani, (G.) : Chronicles. Selections. Tr. R.E. Selfe. 1896.

Villani, (P.) : The Two First Centuries of Forentine History. Tr. L. Villani. 1894-1895.

الفصل السادس والعشرون

الأتراك العثمانيون

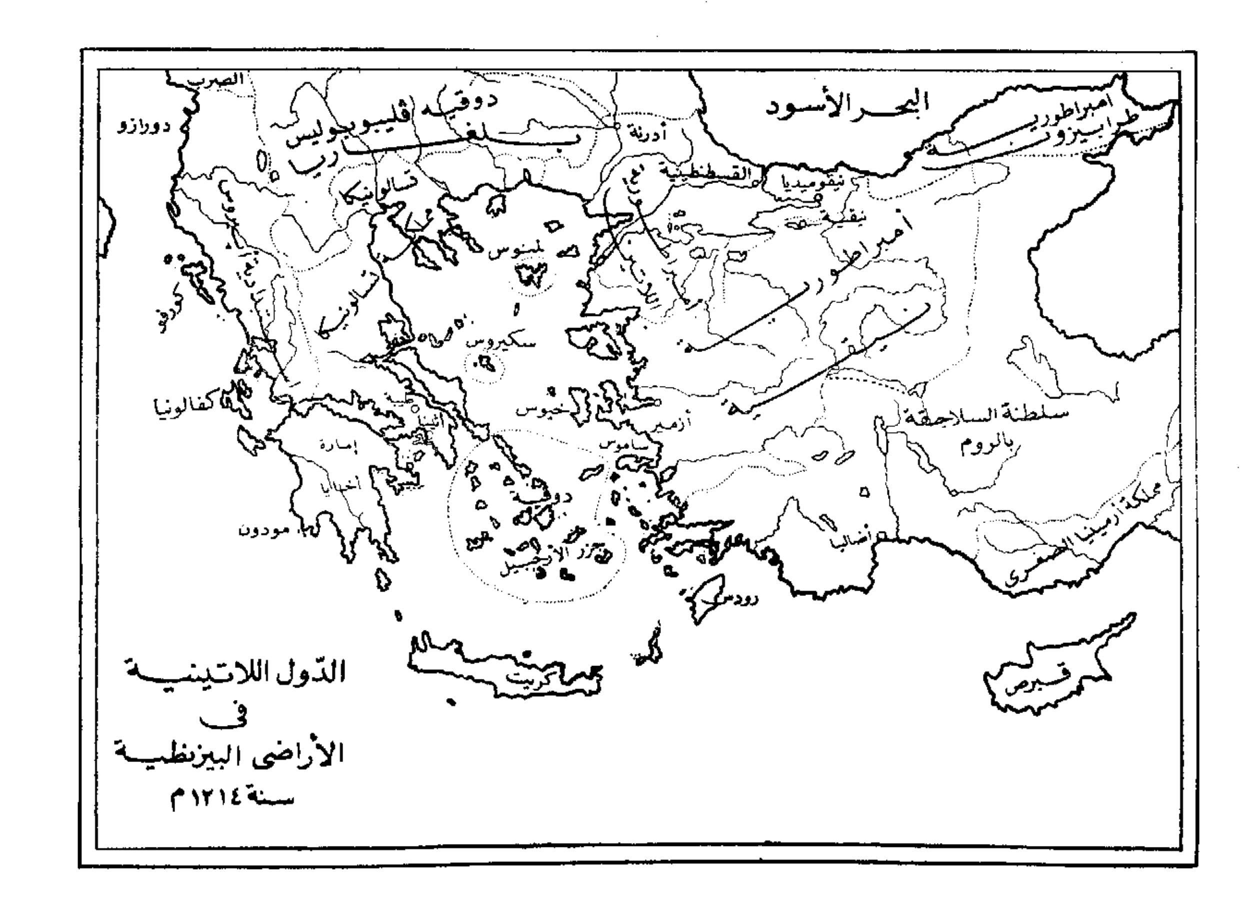
مواطن الضعف فى الإمبراطورية البيزنطية بعد عودتها إلى القسطنطينية — العصبة القطلانية — نهضة الأتراك العثمانيين — الينى شارية (الانكشارية) — الصربيون — وقعة قوصوة الأولى — غزوة تيمورلنك — وقعة أنقرة — المجريون — حنا هنيادى وانتصاراته الأولى على العثمانيين فى البلقان — هزيمته النهائية فى وقعة قوصوة الثانية — أثر الانقسام بين المسيحيين فى سقوط القسطنطينية .

* * *

هانت الدولة البيزنطية هواناً ليس يرجى منه شفاء أو ينتظر ، بعد أن استولى اللاتينيون الصليبيون على عاصمتها ، وحلوا محلها بمعظم أقاليمها[1] ، وهى الإمبراطورية التى وقفت حائلا بين أوربا وهجمات الشرقيين من المسلمين وغير المسلمين ، لعدة قرون . ولعلّ أقرب الأدلة على ذلك أن عودة البيزنطيين إلى عاصمتهم وبعض أقاليمهم فى آسيا وأوربا ، سنة ١٢٦١ م ، لم يعقبه شىء من عودة إلى سلطانهم القديم ، برغم ما أينع بالدولة البيزنطية وقتذاك من نهضة ختامية متأخرة فى حابة العلوم والآداب . ذلك أن أباطرة البيت الباليولوجى عادوا إلى إمبراطورية بيزنطية مختصرة ، ممزقة مبعثرة[2] ، وهى لشدة تمزيقها وبعثرتها وضعفها لا تملك إلا أن تغرى جيرانها إغراء دائماً بالهجوم على أشلائها هى ، وكان هجوم أولئك الجيران دائما فى جرأة وجسارة . فبينما غدت أقاليم الأناضول منذ أجيال تحت سلطان التركمان من آل سلجوق فى قونية ، وهى الأقاليم التى أمدت الإمبراطورية البيزنطية القديمة بالجند والرجال ، غدا كذلك معظم شبه جزيرة البلقان خاضعاً لسلطان البلغاريين . ثم إن بلاد اليونان ، خلا

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٤٦ — ٢٤٨ . زيادة .

(٢) انظر الخريطة بالصفحة التالية هنا ، لمعرفة أسماء بعض الدوقيات والإمارات التى تكونت بمختلف الأقاليم البيزنطية ، غداة حلول الصليبيين اللاتينيين بالقسطنطينية ، وغيرها من أجزاء الإمبراطورية . ومن هذه الخريطة تتضح مساحات إمبراطوريتين بيزنطيتين طريدتين ، إحداهما فى نيقية قبالة القسطنطينية ، وثانيتهما فى طرابيزون بأقصى الجنوب الشرقى من ساحل البحر الأسود . زيادة .


الدّول اللاتينية
في
الأراضي البيزنطية
سنة ١٢١٤م
البحر الأسود
إمبراطورية طرابيزون
دوقية فليبوبوليس
بلغاريا
الصرب
دورازو
أدرنة
القسطنطينية
نيقوميديا
نيقية
إمبراطورية نيقية
تسالونيكا
لمنوس
سكيروس
خيوس
أزمير
ساموس
كورفو
كفالونيا
إمارة
أخايا
مودون
جزر الأرخبيل
رودس
كريت
قبرص
أضاليا
سلطنة السلاجقة بالروم
مملكة أرمينيا الصغرى

إقليم واحد بشبه جزيرة المورة (Peloponnese) ، غدت خليطاً من إقطاعات فرنجية – أى لاتينية – لا يونانية . ولم يبق للإمبراطورية سوى شريط ضيق من الأرض على الشاطئ الأسيوى ، بالإضافة إلى مدينة القسطنطينية وتراقيا الغربية ، ومدينة سالونيكا ، وخلقدونيا الطراقية ، وولاية مامسترا فى المورة ، وبضع جزر معدودة فى بحر إيجة . ثم إن الإمبراطور لم يعد قادراً على حماية هذه الجزر من هجوم الهاجمين ، وهى على أية حال لا تبلغ فى مجموعها مبلغ أهمية جزيرة رودس التى استولى عليها فرسان الاسبتارية[١] – أى فرسان القديس يوحنا – سنة ١٣١٠ م .

وليس أدل على مبلغ الضعف الذى ران على الإمبراطورية البيزنطية ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، من قصة العصبة القطلانية ، وهى عصبة شرسة من جند مرتزقة ، تنمّ فى كل ما يتصل بها عن مستقبل ملؤه نذر ومخاوف ثقيلة . وتكونت هذه العصبة من جماعة النبلاء القطلانيين الذين أخنى عليهم الفقر ، دون أن يخنى على جائش أطماعهم ، وهم الذين شاءت لهم المقادير فيما بعد أن يملأوا الآفاق بشهرتهم الحربية . وخبر أولئك النبلاء القطلانيون أول ما خبروا من حروب المرتزقة فى نضال الصقليين من أجل استقلال صقلية عن الفرنسيين (١٢٨٠ – ١٣٠٢م) ، فتعلموا كيف يقفون مواقف الأنداد فى وجه فرسان إيطاليا وفرنسا ، حتى إذا اختتم ذلك النضال المرير دخلوا خدمة الإمبراطور البيزنطى . وتزعم هذه العصبة فى العاصمة البيزنطية قرصان ألمانى قديم اسمه رجار دى فلور (Roger De Flor) ، كان أبوه حارس الطير (Falconor) فى بلاط الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، وكانت أمه إيطالية برنديزية ذات مال . وأغدقت الإمبراطورية البيزنطية على رجار هذا لقب جراندوق (أى دوق أعظم) ، ثم لقب قيصر

---

(١) الاسبتارية (Knights Hospitallers) إحدى جمعيات الإخوان الرهبانيين التى تكونت بالشام زمن الصليبيين بالشرق ، وهى معروفة كذلك باسم فرسان القديس يوحنا . وظلت هذه الهيئة تخدم أغراضها المسيحية حتى خرجت مع الصليبيين من الشام ، بعد سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية ، سنة ١٢٩١م . واستقرت الاسبتارية بجزيرة رودس ، وأنشأت لها فروعاً بمختلف البلاد الأوربية ، وبلغت من الثروة والغنى والنفوذ ما جعلها موضع الحاسدين من المسيحيين والمسلمين . ثم استولى الأتراك العثمانيون على جزيرة رودس سنة ١٥٢٣ م ، فانتقل مركز الاسبتارية إلى جزيرة مالطة ، وظلت بها حتى استولى نابليون على تلك الجزيرة سنة ١٧٩٨ م . ومن ثم انكمشت هيئة الفرسان الاسبتارية ، وصارت فروعها تعرف بأسماء البلاد القائمة فيها ، مثل هيئة فرسان القديس حنا فى إنجلترا (Knights of St. John) منذ سنة ١٨٢٧ م ، وهيئة فرسان القديس حنا فى براندنبرج بألمانيا (Brandenberg Johanniteroren) منذ سنة ١٨٥٣ م ، كما انتقل مركز الاسبتارية إلى روما منذ ١٨٩٧ م . زيادة .

أى أمير[1] من أمراء الإمبراطورية ، بعد أن تزوّج من أميرة بلغارية . غير أن هذه المجاملات – وما وأكثرها فى القسطنطينية وقتذاك – لم تغن شيئاً عند رجار وأصحابه الغرباء المتغطرسين، المشغوفين بالشحناء . والواقع أن رجار وعصبته فهموا سادتهم البيزنطيين تمام الفهم ، وأدركوا أنه لا حرج عليهم فى دولة برّح بها الضعف أن يسفهوا فى خدمتها أكبر سفه ، وأن يتطوّلوا على حكومتها وإمبراطورها أعظم تطوّل . ولهذا اختاروا محاربة فرقة المرتزقة اللانيين (Alans) – وهم أقوى فرقة بالجيش البيزنطى بالقسطنطينية – ، كما اختاروا مشاجرة الجنوية (Genoese) ، أهل جالاطا بالقسطنطينية كذلك ، – وهم الذين أمدوا البحرية البيزنطية بالسفن اللازمة للأسطول ، وهذا وذاك بدلا من الذهاب فى حملة حربية ضدّ الأتراك السلاجقة، والتعرض لمشاق الأسفار والعيش فى ميادين القتال . ثم ألحت الإمبراطورية عليهم فى الرحيل لهذه الحملة ، فلم يرحلوا إلا بعد أن استولوا على حصن جاليپولى لأنفسهم ، وهو مفتاح الدردنيل ، وإلا بعد أن حاصروا القسطنطينية سنتين (١٣٠٥–١٣٠٧ م) ، وهزموا الإمبراطور أندرونيق الثانى فى معركة حامية .

وبينما هذه الأحداث تجرى فى الدولة البيزنطية انتقلت دوقية أثينا سنة ١٣٠٨ م إلى ولتر دى بريين ، وهو سليل عنيف مغامر من أسرة فرنسية اشتهرت بمغامراتها ، فى كثير من بلاد الغرب والشرق فى العصور الوسطى[2] . وانتهى بذلك الانتقال عهد مدته قرن من الزمـــان ، نعمت فيه أثينا بحكم أدواق من أسرة برجندية وديعة السلطان. فى ساعة هى من ساعات النحس على دوق ولتر دى بريين ، بقدر ما هى من طوالع السعد للإمبراطور أندرونيق الثانى ، دعا هذا الدوق الجديد عصبة القطلانيين ، ليستعين بهم فى إعادة نفوذ أثينا ودوقيتها على إقليم من أقاليم شمال اليونان . ورحّب القطلانيون بهذه الدعوة التى هيأت لغرامهم بالشحناء

---

(١) لا علاقة بين هذا اللفظ ومعناه الرومانى القديم ، إذ الواقع أن لفظ قيصر غدا شائع الاستعمال فى الدولة البيزنطية للدلالة على أبناء البيوت الإمبراطورية الحاكمة . واتسع شيوع هذا الاستعمال ، فصار لقب قيصر يمنح للبارزين فى الدولة البيزنطية ، فضلا عن أمراء بعض البلاد التى امتدت إليها فى عز أيامها ، مثل بلغاريا وصربيا وروسيا العصور الوسطى . زيادة .

(٢) أسهمت هذه الأسرة فى حوادث الإمبراطورية التى تأسست فى القسطنطينية على أنقاض الإمبراطورية البيزنطية ، بعد حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة سنة ١٢٠٤م ، فقام حنا دى برين إمبراطوراً فى القسطنطينية ، كما قام ولتر دى بريين المذكور هنا دوقاً فى أثينا . انظر تفصيل ذلك فى (Camb. Med. Hist. IV.pp., 427, 449-454-475,488,489,608) . زيادة .

فرصة من نوع ما اقترصوا منذ أيامهم الأولى بجزيرة صقلية ، وكان من أدبهم إما أن يشاحنوا غيرهم أو يشاحنوا بعضهم بعضا . ولذا هبط القطلانيون إلى شمال اليونان وأيديهم مخضبة بدماء أحد عشر ضابطاً من ضباط عصبتهم ، وأعملوا خناجرهم الطويلة فى اليونانيين سنة كاملة ، هى مدة خدمتهم المتفق عليها . ثم تراءت لهم سهولة العيش فى تلك البلاد الخصبة الخضراء ، فرفضوا الرحيل عنها إلا بشروط لم يستطع دوق وُلتر قبولهـــا ، وأقسم قسما مغلّظاً أن يخرجهم من بلاده على وجوههم . غير أن المقادير شاءت مشيئتها دون هذا القسم العظيم ، ففى سهل بوئيشيا — وهو ما يرى زائر أثينا عن يمينه حين يعبر التلال الأثينية إلى وادى نهر كفيسوس — وقعت واقعة أودت بحياة الدوق (مارس سنة ١٣١٠ م) ، وألقت بدوقيته فى قبضة القطلانيين مدة أربع وسبعين سنة . ذلك أن القطلانيين — وعدتهم ستة آلاف وأربعمائة رجل معظمهم من المشاة — لم يخشوا ما عسى أن يقوم به وُلتر لتنفيذ قسمه ، فعسكروا فى سهل بوئيشيا بين حقول القمح الخضراء ، وجعلوا من أنفسهم هدفاً مغرياً لخصيمهم وأعداده المتفوقة . وفصل بين الفريقين أرض واطئة حرثها القطلانيون حرثاً عميقاً أول قدومهم إلى هذا السهل ، ثم غمروها بماء من نهر كفيسوس حتى صارت مستنقعاً متوحلا تعلوه خضرة حديثة ، يخيل للرائى أنها مرج من المروج . وتقدم دوق وُلتر وجنوده نحو هذا الوحل المخبوء ، فغاصت الخيل حتى بطونها ، وعجزت الخيالة عن الحركة . وانهال القطلانيون بخناجرهم الطويلة ، فذبحوا وقتلوا ما شاءوا من ذبح وقتل ، فكانوا بذلك — وهم مسيحيون كاثوليكيون — أكثر وحشية من الفرس الأقدمين ، فى حروبهم القديمة ضد اليونانيين .

وفيما وراء الشاطئ الأسيوى لبحر مرمرة ، كانت قبيلة من قبائل الأتراك الضاربة بين تلال بيثنيا تتأمل عجائب المقدور فى أخبار القطلانيين ، الذين غلبوا فئة كبيرة من الفرسان بفئة قليلة من المشاة . وقال أولئك الأتراك العثمانيون إن أى جيش من الجيوش — بالغاً ما يبلغ من القلة — يستطيع النهوض بالمعجزات ، ما دامت به فئة من المشاة المارنة على النظام . الواقع أن انتصار المشاة القطلانيين فى بوئيشيا علّم الأتراك العثمانيين درساً أرسخته الأيام فى رءوسهم الرزينة الواعية ، فلم يلبثوا أن أعدوا هم كذلك جيشاً عماده المشاة ، واستولوا على حصن جاليبولى ، وهزموا الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثالث وجنوده ، ووطئت أقدامهم المظفرة أرض

أثينا والأكربول ، ليسودوا فيها وغيرها من بلاد اليونانيين ، لعدة قرون .

على أن تاريخ الأتراك العثمانيين لا يعدو أن يكون فى أوله تاريخ عشيرة من رعاة الأغنام والماشية ، إذ أخذت هذه العشيرة تجمع إليها شيئاً من القوة والنفوذ على مرّ الأيام ، ثم استطاعت بفضل ما توفر فى أهلها من صفات الأناة والعدالة — الممتزجة بكثير من القسوة والدهاء — أن تجتذب إلى خدمتها أقواماً يختلفون بعضهم عن بعض تمام الاختلاف . وبذا غدت هذه العشيرة التركية العثمانية فى حال أمكنتها من القيام على فتوح هائلة سريعة ، والنهوض بإمبراطورية إسلامية قوية وطيدة الأركان . وفى صورة مصغرة لما سوف تتمخض عنه الحوادث ، رسم عثمان — وهو الذى تنتسب إلى اسمه هذه العشيرة — بعض الخطوط الرئيسة فى السياسة المستقبلة التى سار عليها أخلافه . على أن مسرح نشاطه اقتصر على مقاطعة بيثينيا ، إذ أغرته أطرافها الخالية من وسائل الدفاع الإمبراطورى بشنّ الإغارات الخاطفة على البيزنطيين المسيحيين ، باعتباره أميراً فى خدمة السلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد الثالث ، ثم بصفته — بعد سنة ١٣٠٧ م — أميراً مستقلا بهذه المقاطعة تمام الاستقلال . وسار عثمان على هدى إيمان عميق وبساطة فى الدين ، وبنى سياسته على مشورة الفقهاء المسلمين ، وحكم بين الناس حكماً عادلا يوجب الالتفات فى تلك العصور الطافحة بالجور والعنف ، وما يتولد عنهما من الرشوة والمحسوبية وبيع الذمم . ورأى عثمان بثاقب بصيرته — وهو المسلم المتحمس لعقيدته — أنه مع التسليم بصلاحية الشريعة المحمدية أن تكون قاعدة لصروح دولة عظيمة ، فإن عشيرة تركية لن تستطيع أن تنهض وحدها بتأسيس هذه الدولة ، وأن سبيل النجاح فى هذا المضمار يتطلب مصاهرة الدول المجاورة ، واستجلاب الرقيق من مختلف البلاد ، واستخدام المغامرين الذين تستهويهم الشهرة فى ميادين القتال . ومن ثمّ اختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيلقيا ، وزوج ابنه من فتاة مسيحية ، كما اتخذ من ميخائيل ذى اللحية المفرجنة (Michael Fork Feard) — وهو بيزنطى مرتدّ عن المسيحية — نائباً له فى ميادين الحروب .

وأتمّ أورخان — وهو أكبر أبناء عثمان — ما بدأه أبوه من فتح بيثينيا ، فانتقلت نيقية (إسنك الحالية) سنة ١٣٢٩ م ، ونيقوميدية (إزمت الحالية) سنة ١٣٣٧ م ، إلى أيدى العثمانيين ، بعد حرب لينّة هينة ، ضدّ جيوش إمبراطورية نخرت فى شجاعتها السنون . ووضح من سهولة هذه الحرب ، ومن عيوب الخطة الإمبراطورية

قبالة هاتين المدينتين الشهيرتين، أن باستطاعة أورخان – أو أى قائد كائناً من يكون – أن يثنى على ما استقام له من ظفر فى آسيا الصغرى بالهجوم على الأجزاء الأوربية من الدولة البيزنطية الحائرة . غير أن أورخان لم يكن قائداً من قادة الحروب فحسب ، ولذا صرف السنوات العشرين التى أعقبت استيلاءه على نيقية ونيقوميدية فى مدينة بروصة،عاصمته البيثينية الجميلة ، حيث عكف على تنظيم دولتهتنظيما جعل هذه السنوات أعظم مرحلة فى تاريخ الدولة العثمانية . فبدلا من محاربة الجيران بساحل آسيا الصغرى ، أو مهاجمة الأقوام بشبه جزيرة البلقان ، انصرفت حكمة أورخان ، وانصرفت همة المحيطين به ، إلى بناء المساجد والمدارس والمشافى والفنادق للتجار . وربط أورخان العملة الرسمية للدولة ، واختار الزىّ القومى للرأس (وهى طاقية من جوخ أبيض) ، فضلا عن تنظيم الجيش ، وهو أهم هذه الأمور جميعاً . ولهذه المرحلة التى استعاض فيها أورخان عن الحروب والفتوح بالإقامة فى بروصة، ترجع الفيالق العسكرية التى جعلت الأتراك العثمانيين مصدر الرعب فى شرق أوربا لعدة قرون ، وهى فيالق الإيكنجية ، أى فرق المناوشة الخفيفة ، وفيالق الفرسان الإقطاعيين،وفيالق الحرس السلطانى ، وفيالق المشاة ذات الشهرة الهائلة ، وهى الينى[1]شرية التى يتطلب الموضوع هنا شرح تاريخها .

ومعنى الينى شرية الجنود الجدد ، وهم جميعاً أطفال مسيحيون انتزعهم العثمانيون انتزاعاً من مختلف البلاد التى خضعت لحكمهم ، ثم علّموهم الإسلام فى مدارس رتبوا مناهجها لتمحو كل أثر من آثار أصولهم وعواطفهم المسيحية الأولى ، وتجعل منهم أدوات طوع مشيئة الدولة والسلاطين . وخصّص العثمانيون بعض الينى شرية لوظائف الغلمان بالقصر السلطانى ،وأولئك غدوا أتعس إخوانهم حظاً، على حين عينت الدولة بعضاً آخر منهم لوظائف الحكم والإدارة المدنية . أما الجزء الأكبر من الينى شرية فأضحى فيالق المشاة ، وهى التى بلغ من شجاعتها وتفانيها فى الحروب أن وجود فرقة واحدة منها ، فى أى جيش عثمانى ، كان ضميناً باستماتة هذا الجيش كله فى ميدان القتال . ويتضح من هذا أن الينى شرية نشأوا أرقاء

---

(١) دأبت الكتب المتداولة فى اللغة العربية على تسمية هذه الفرقة باسم الإنكشارية ، مع أن اللفظ فى صيغته الأوربية (Janissaries) ، بله صيغته التركية ، يدل دلالة راضحة على أن الصيغة المثبتة بالمتن هنا هى التى ينبغى استعمالها . زيادة .

— أو أشباه أرقاء — متجرّدين من جميع المؤثرات السلمية الإنسانية التى تهذب الطباع ، محرومين من جميع الصفات المكتسبة التى تفتح العقول ، بعيدين عن جميع المثل العليا التى تحرك الإرادة . ومرجع ذلك كله صرامة النظام الذى نشأ فيه الفرد منهم ، وتقيد به تقيداً محا ماضيه محواً يكاد يكون تاماً ، وجعل أفق مستقبله محدوداً بالحروب . ذلك أن الينى شرى تعلّم أن ينسى أباه وأمه وإخوته وأقاربه ، وأن يعيش دون أمل فى زوج وبنات وبنين ؛ فالثكنة العسكرية مأواه ، والحرب مهنته ، والقرآن عقيدته ، وما عليه إلا أن يمضى فى قتال أعداء السلطان أعداء الله ، بروح رهبانية ملؤها حماسة متأججة وتعصب ركيز .

أما الاقتراح بتكوين الينى شرية من أطفال مسيحيين — تجمعهم الدولة جزية من مختلف البلاد الخاضعة لحكمهما — ، فيقال إن مصدره هابيل الأسود ، وزير أورخان ؛ ومن الواضح أنه لولا هذه الجزية ما استطاعت الدولة العثمانية أن تجد مورداً دائماً لتجنيد هذه الفيالق فى نظام . ويستخلص من هذا أن الإمبراطورية قامت وظلت قائمة ، لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب ، وأولئك لم يكونوا كثرة فى الجيوش العثمانية ، بل كذلك بفضل رجال معظمهم صقالبة الأصل ، ولدتهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جئ بهم إلى مدارس الينى شرية ، حيث طبعوا بطابع الخضوع العسكرى والعقيدة الإسلامية . وليس فى استطاعة باحث أن ينكر أن أعظم رجال الإمبراطورية العثمانية جاءوا إلى هذه المدارس ، بعد انتزاعهم من أهلهم المسيحيين .

وبينما يمضى العثمانيون فى بناء دولة هذه أدواتها وقواعدها فى غرب آسيا ، أخذت دولة جديدة أخرى تتحرك حركات عنيفة فى البلقان ، وتفيد أعظم الفوائد من الحروب الأهلية والفوضى الضاربة بين البيزنطيين . وهذه هى دولة الصربيين الذين شبههم كاتب حديث بالاسكتلنديين الكلتيين سكان اسكتلندا الوسطى والشمالية ، كما شبه البلغاريين بالاسكتلنديين سكان سهول اسكتلندا الجنوبية . والواقع أن التاريخ الصربى يكشف عن أمة ذات شجاعة وجرأة مشوبة بالتقلب ، وبفضل زعيمها ستيفن دوشان — وهو جندى بارع ومشرّع قدير وسياسى ماهر ، ومرتبته فى مرتبة قلائل العظماء الذين ألهموا أممهم إلهاماً ، ونفخوا فيها من روحهم الطامحة إلى المجد — امتدت الدولة الصربية من نهر دانوب إلى بحر إيجه ، بفتح ألبانيا وإپيروس وتساليا . غير أن هذه الفتوح التى انطبعت فى عقول الصربيين انطباعاً لا تمحوه الأيام ، لم تشبع طموح زعيم متوثب فى أمة وثابة ، ولذا اتخذ ستيفن

دوشان لنفسه لقب إمبراطور — إشباعاً لطموحه الذى مدّدته توفيقاته فى ميادين الحرب والتشريع والسياسة ، وحتى تراءى له أن أحلامه لن تتحقق إلا بإخضاع البيزنطيين لإمبراطوريته[١] .

ثم توفى ستيفن دوشان سنة ١٣٥٥ م ، وتوفيت معه أحلامه كلها ، دون أن يحقق هو منها شيئاً . وفى سنة ١٣٥٦ م ، — وهى السنة التى شهدت وقعة پواتييه بين فرنسا وإنجلترا[٢] — عبر سليمان ولى عهد أورخان مضيق الدردنيل ذات ليلة مقمرة من ليالى الخريف ، ونزل شبه جزيرة جاليپولى ، وبذا أسس أول جالية تركية عثمانية فى أرض أوربا . وذات يوم بعد ذلك بقليل خرج سليمان ليلهو بصقوره فى مرج قريب من بلدة بولير ، فكبا به فرسه كبوة أردته صريعاً ، ودفن حيث لقى حتفه . ولمائة من السنين — على قول فون هامر مؤرخ الدولة العثمانية — ظل سليمان هو الأمير العثمانى الوحيد الذى ضمّت رفاته أرض أوربية ، وغدا قبره مدعاة العثمانيين لتأدية حجيجهم إلى أوربا بسيوف منصورة فاتحة . وليس بين قبور الأبطال التى ترتبط بالتاريخ العثمانى قبراً أجل شهرة ، أو أكثر مزاراً ، من قبر ذلك المؤسس الثانى للإمبراطورية العثمانية ، فهو قيصر الدردنيل ، وهو حجر الأساس فى بناء إمبراطورية العثمانيين بأوربا .

وفى سنة ١٣٥٩ م تولى مراد الأول — وهو أخو سليمان — حكم العثمانيين ، بعد وفاة أبيهما أورخان ، فلم تلبث أوربا أن أدركت ما لم تدرك قبلا ، وهو ضخامة القوة التى نمت نمواً متصـــلا مدة جيل ونيف بالدولة العثمانية الصغيرة — فيما وراء الدردنيل . ذلك أن مراداً عبر الدردنيل إلى شبه جزيرة جاليپولى ، فألفى الانتصارات كأنما تسعى إليه سعياً ، إذ استولى على سالونيكا وأدرنة — وهما أكبر مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية — فى سهولة توحى بأن هذه الإمبراطورية وشيكة الزوال . لكن مراداً كان بصيراً حاذراً كأبيه أورخان ، فرأى أنه بحاجة إلى شىء من الأناة والسلام ، ريثما يدعم فتوحه الأوربية بأن يجعل من أدرنة البيزنطية عاصمة عثمانية إسلامية ، ويدخل فى تركيّة أوربا نظام الإقطاعية الحربية التى إستمدّ العثمانيون منها فيالق الفرسان ، حتى إذا تحققت هذه الأهداف ،

---

(١) انظر هذه الأحلام وتطوراتها فى الفصل السابع والعشرين من (Camb. Med. Hist. IV. p. 517 et seq.) ، حيث وصف ستيفن دوشان بأنه نابليون الصربيين . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٣١٨ . زيادة .

وتوطدت سيادة السلطان فى آسيا الصغرى ، غدا الزحف على القسطنطينية وبلغراد أمراً معقولاً . ولم يخش مراد أن تنبس الإمبراطورية البيزنطية بحركة إبان اتجاهه إلى تحقيق أهدافه هذه، فالإمبراطور مانويل الثانى باليولوج (١٣٩٠ — ١٤٢٥ م) لين العريكة ، مذعان لمشيئات المقادير ، وروح البيزنطيين منحطة متخضعه، وليس من المنتظر أن تجد المسيحية معيناً أو نصيراً ضدّ العثمانيين المسلمين إلا فى الشمالى الغربى من البلقان ، حيث ظلت الدولة الصربية على شىء غير قليل من القوة .

ولئن مات ستيفن دوشان ، فإن قبساً من روحه ظل مشتعلا فى صدر ابنه الملك لازارس ، إذ اهتبل هذا الملك فرصة انصراف السلطان مراد إلى حروبه المظفرة ضد أعدائه من الأتراك فى آسيا الصغرى ، وتزعم حلفاً عظيما من الأمم الصقلبية المسيحية بالجنوب الشرقى من أوربا سنة ١٣٨٧ م ، لتحطيم العثمانيين المسلمين . وامتلأت معسكرات هذا الحلف المسيحى العظيم بجند الصربيين والبلغاريين والبوسنيين والألبانيين والبولنديين والمجريين والمغوليين أصحاب دبروجه[١] ، على حين خلت من جند الأمم الأوربية الكبيرة ، اللاتينية منها والبيزنطية سواء . ومن اليسير على الباحث أن يتوقع أن جيشاً مرتجلا ، يرطن كل جزء من أجزائه السبعة بلسان خاص به ، لن يستطيع مهما بلغت أجزاؤه ومفرداته من الشجاعة ، أن يقف لجيش تركى عثمانى قديم العهد بالحروب ، وهو جيش جعله التنظيم الصارم والمران الطويل وحدة عسكرية هائلة . وهذا هو عين ما تجلى (شهر يونية سنة ١٣٨٩ م) فى وقعة قوصوه الأولى[٢] ، وهى التى خلدها الصربيون فى بعض ملاحمهم الشعرية الدامية ، إذ انتصر العثمانيون انتصاراً مبيناً على جيوش الحلف المسيحى العظيم ، برغم فقدانهم سلطانهم مراد قبل بداية القتال ، بطعنة وطنى صربى غادر ، وهى طعنة كلّفت الصربيين ذبح ملكهم لازارس .

ولاثنتى عشرة سنة بعد هزيمة الصقالبة فى قوصوه الأولى ، سار العثمانيون من نصر إلى نصر فى غير انقطاع ، بقيادة بايزيد الأول (يلدرم) ، فتغيرت

---

(١) دبروجه إقليم من أقاليم رومانيا الحالية ، وفى العصور الوسطى جاءت طائفة من مغول القبيلة الذهبية تبتغى استيطان جزء من أجزاء البلقان البيزنطى ، فاستقلوا بهذا الإقليم المطل على البحر الأسود . زيادة .

(٢) انظر (Camb. Med. Hist. IV. p. 528) ، لتفصيلات وقعة قوصوه الأولى . وإلصاق صفة الأولية على وقعة قوصوه هذه ضرورى ، تمييزاً لها من وقعة قوصوه الثانية ، سنة ١٤٤٨ . انظر ما يلى هنا ص ٤٥٤ . زيادة .

أحوال أمم كثيرة ، وتهدمت جيوش صليبية عظيمة ،وهى جيوش جاءت من غرب أوربا خصيصاً لحرب العثمانيين (وقعة نيقوپوليس، ٢٨ سبتمبر سنة ١٣٩٦ م)[١] . وامتدت أطراف الدولة العثمانية بعد نيقوپوليس إلى الدانوب والفرات ، وكل ذلك على يد السلطان بايزيد الأول ابن مراد ، وهو السلطان الذى استهل سلطنته بقتل أخيه وقسيمه فى مجد قوصوه الأولى ، وذلك بعد الوقعة بساعات .

والخلاصة أن بايزيد الأول بدا ، فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، كأنما بلغ من المجد أقصى ما يستطيع أى إنسان أن يبلغ . وكيف لا يكون ذلك والنصر خديم رايته الدموية الحمراء حيث رفرفت ، فى الجبهة الأوربية أو الجبهة الأسيوية سواء . وذات يوم جلس السلطان بايزيد الأول بقصره الناعم الرغيد بمدينة بروصة، ونظر فى أرجاء الدولة العثمانية حوله ، وتأمل فيما أفاءت عليه الانتصارات الحربية المتتابعة من نعيم وحريم ، وأرقاء مسيحيين ، وبنى شرية آباؤها مسيحية ، وسلاجقة بلادها خاضعة تابعة ، وبيزنطيين فى الجبن والصغار غارقين ، فضلا عن شبكة قوية من ممتلكات واصلة بين قارتين متراميتين . وتراءى لبايزيد الأول أن الساعة آذنت للنهوض بآخر ما وجب عليه من مجهود ، وهو الحلول محل البيزنطيين فى القسطنطينية ، صلحاً أو عنوة سواء . وفى سبيل ذلك طلب بايزيد إلى الإمبراطور مانويل الثانى تسليم القسطنطينية ،ومبارحتها إلى غير رجعة سنة ١٣٩٧م[٢] ، فرفض مانويل طلبه هذا بصمت إمبراطورى طويل ، وأخذ بايزيد يعدّ العدّة ليضرب العاصمة البيزنطية ضربة قاصمة .

غير أن القسطنطينية نجت من هذه الضربة القاصمة التى أنذرت بها قبضة بايزيد ، إذ أسعفتها المقادير بكارثة جعلت بايزيد لبضعة قرون عبرة خالدة لتقلب الحظوظ ،وبذا نعمت القسطنطينية بسلام من ناحية العثمانيين لخمسين من السنين . ومصدر هــذه الكــارثة هبوط الصاعقة المغولى تيمور من أقصى الشرق الأسيوى ،على رأس جحافله من الخيالة الراكبة إلى غرب أوربا ،واقترابه من تخوم الأراضى العثمانية . وتيمور هو الأشيب الأعرج — تيمورلنك — الذى ملأ

(١) انظر (Atiya : The Crusade of Nicopolis, Methuen, 1934) ، لمعرفة نتائج هذه الوقعة التى جعلت العثمانيين مخافة أوربا ، لعدة قرون . زيادة .

(٢) ذكر المؤلف هنا سنة ١٤٠٠ م ، والمعروف حسبما ورد فى (Camb. Med.Hist. IV. p. 67) أن مانويل الثانى صرف معظم هذه السنة متجولا بين العواصم الأوربية، ليبحث عن نجدة لإنقاذ القسطنطينية من تهديدات بايزيد الأول ، منذ ١٣٩٧ م . زيادة .

الآفاق بمهارته العقلية فى لعبة الشطرنج وعلوم الفقه الإسلامى ، وخطط الحرب والفتح والنصر ؛ بل هو أكبر أستاذ عرفه تاريخ البشرية فى فنون التخريب ، من تركستان إلى الهند ، ومن العراق إلى الشام . وبلغ بايزيد من الطيش أحمقه حين استجلب غضب هذا المخرب الذى دانت له دلهى وسمرقند ، وبغداد ودمشق . ودفع العثمانيون ثمن طيش السلطان بايزيد غالياً ، فى سهل أنقرة (٢٠ شهر يولية ، سنة ١٤٠٢ م) ، حيث وقع الجيش العثمانى ، ذو الانتصارات الكثيرة المتتابعة ، فى فخ هائل من الخيالة المغولية الساحقة العدد . وأبيد هذا الجيش العثمانى عن آخره ، ووقع بايزيد نفسه أسيراً فى يد تيمور لنك . وبينما يقطع بايزيد الفيافى أسيراً ، محمولا فى قفص من حديد إلى سمرقند ، انثال المغوليون المنتصرون غرباً لتخريب عاصمته بروصة ، وتمزيق ممتلكاته حتى سواحل الدردنيل وبحر إيجه .

ثم نهضت الدولة العثمانية من كبوتها العظمى نهضة غريبة ، تشبه فى غرابتها عجز الدول المسيحية عن استغلال هذه الكبوة لفائدتها . والواقع أن أحوال الدولة العثمانية بعد وقعة أنقرة بدت يائسة كل اليأس ، إذ فقد العثمانيون جميع ممتلكاتهم فى آسيا ، وبات سلطانهم أسيراً ، وآض أبناؤه يحارب بعضهم بعضاً من أجل ميراثه . لكنهم تعوضوا عما فقدوا فى آسيا بما بقى لهم فى أوربا ، حيث غدت أدرنة مدينة إسلامية منذ أيام مراد الأول . وفى هذه المدينة — وهى العاصمة العثمانية الجديدة — تركزت جميع المقومات اللازمة للنهوض بالدولة وأصول الحكم ، من خبرة ماضية ، وشجاعة لا تنكر ، ومثابرة شهدت الأجيال بتأصلها فى قلوب العثمانيين . وفى هذه المدينة كذلك — ولمدة أربعين سنة — نمت نواة الحكومة العثمانية الجديدة ، فتكونت فئات الموظفين ، وفيالق الجند ، وطوائف رجال القانون ، وعلماء الدين والمحلفين ؛ وتأسست المحاكم ، ونهضت المدارس العسكرية لتعليم الينى شرية ؛ وظهر القادة المتشبعون بروح النعرة الحربية القديمة . وكانت أدرنة — بفضل وضعها الجغرافى وسط بلاد معظم أهلها على المسيحية — مركزاً طيباً لجمع أبناء المسيحيين للتجنيد ، ولم يدر الأباطرة البيزنطيون أن هذه العاصمة العثمانية الجديدة سوف تشهد عن قريب انطلاق السلطان محمد الأول (١٤١٣ — ١٤٢٢ م) ، والسلطان مراد الثانى بعده (١٤٢٢ — ١٤٥١ م) ، فى سبيل إحياء الإمبراطورية العثمانية .

ومما يدل أوضح دلالة على اضطراب الحال فى أوربا الغربية وقتذاك أن محاولة

أوربية واحدة لم تنهض للإفادة من كارثة العثمانيين ، إلا بعد أربعين سنة من وقعة أنقرة . ومعنى ذلك أن فرصات ذهبية متعددة ، حين كان العثمانيون بغير جيش أو سلطان ، ضاعت كلها سدى . الواقع أن الدول الأوربية الغربية لم تلتفت إلى تبعاتها الجسام، إزاء الخطر العثمانى الرابض فى شرق أوربا، إلا بعد أن أعاد مراد الثانى تكوين الجيش وتنظيم الدولة، وجعل الحياة فى بلاد المجر فوق المحتمل، بسبب اعتداءاته المتكررة على المجريين ، للحصول على الرقيق المسيحى اللازم لأغراض التجنيد .

لذا أضحى المجريون أول الدعاة إلى حرب صليبية جديدة ، لأن أمتهم غدت أكثر الأمم خوفاً وخشية من إحياء سلطان الأتراك العثمانيين . والمعروف أن المجريين من أبسل الأمم الحربية وأصلبها عوداً فى أوربا ، وأنهم على جانب عظيم من صفات الثبات والمتانة والرصانة ، شأنهم فى ذلك شأن العثمانيين الذين تربطهم بهم رابطة الجنس ، ولكنهم يتصفون بصفات عالية خرى ليست فى العثمانيين ، وهى مما تمتاز به بعض الأمم ذات الخيال الواسع والموهبة الخصبة . واستطاعت الأمة المجرية الباسلة — برغم تأخرها فى حلبة الحضارة — أن تتقدم خطوات واسعة فى سبيل الوحدة الحربية والتجانس، بعد أجيال من العصبية القبلية المتنافرة، والأرستقراطية الإقليمية المتناحرة، كما استطاعت أن تدرج فى مدارج عمرانية فى ميادين الإدارة والحكم وشئون المال والقضاء، بالإضافة إلى قواعد سياسية هدفها السيطرة على البلقان وبولندا وبوهيميا — كل ذلك على عهد ملكين قديرين من ملوك البيت الأنجوى ، وهما شارل روبرت الأول (١٣٠٩ — ١٣٤٢ م) ، ولويس العظيم (١٣٤٢ — ١٣٨٢ م) . ذلك أن كلا من هذين الملكيين استطاع أن يحد من فوضى الأرستقراطية المجرية الشامخة ، وأن ينظم نشاطها تنظيما يكفل توجيهها لفائدة المجريين . ولهذين الملكيين اللذين جرت فى عروقهما الأنجوية الفرنسية دماء نابولية إيطالية تدين بلاد المجر بكثير من نظم الفروسية الفرنسية ، وشىء غير قليل من مظاهر الرفاهة الإيطالية ؛ إذ شيدوا القصور المنيفة ، وزينوا البلاط الملكى بحاشية فخمة ، وحياة اجتماعية بهيجة ، وعنوا بتنظيم مواسم المبارزات وحفلات الفروسية ، وكونوا الجيوش الإقطاعية ، واجتذبوا إليهم نبلاء المجريين ،عن طريق إنشاء الرتب العسكرية ، وإغداق الإنعامات السخية . غير أن الحكومة المجرية التى غدت بسبب هذه التنظيمات الكثيرة فى حاجة إلى ملك ناشط ، منصرف بكل نشاطه إلى أمور الحكم ، لم تلبث أن آلت مقاليدها بعد

وفاة لويس العظيم إلى زوج ابنته ماري ، أي سجسمند ملك بوهيميا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة[١] ،وهو—بالقياس إلى غيره من ملوك أوربا جميعاً—أقلهم طاقة على تركيز همته في شئون المجر وحاجاتها ، للدفاع عن نفسها في الحروب .

ذلك أن سجسمند—وهو ملك المجر بحق زواجه من ماري المجرية ابنة لويس العظيم ، وهو كذلك ملك بوهيميا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ظل في شغل شاغل عن المجر وأمورها ، بأمور بوهيميا والإمبراطورية ، إلى درجة جعلت من المستحيل عليه أن ينصرف إلى الدفاع عن دولة بلغ الخطر عليهامن ناحية العثمانيين مبلغاً كبيراً ، بل أضحى الدفاع عنها لا يحتمل هوادة أو تأجيلا . ولهذا غدت سياسة سجسمند نحو المجر ، بعد هزيمة نيقوپوليس[٢] ، متراخية فاضحة فاترة متقطعة ؛ فبقي يملك ولا يحكم بين المجريين . وظلت الجيوش المجرية قابعة في بيوتها بغير عمل ، مع أن الدولة العثمانية عدوة المجر أمست جثة هامدة من ضربات تيمورلنك ولطماته ، ومع أن هذه الجيوش المجرية كانت قادرة على مواجهة العثمانيين وجيوشهم ، لو أن قيادة أتيحت لها في ملك غير سجسمند .

ثم تغيرت هذه الحال كلها بعد وفاة سجسمند سنة ١٤٣٧ م ، بظهور عبقري من العباقرة بين المجريين . ففي خلال حروب السلطان مراد الثاني لاسترداد الممتلكات العثمانية في أوربا ، اكتشف المجريون في حنا هنيادي جندياً عظيماً ، وهو على المشهور ابن غير شرعي للملك سجسمند ، من أم مجرية . ودل حنا هنيادي على صفات حربية ممتازة تسترعي الانتباه والأمل ، في كثير من اشتباكاته الصغيرة ضد العثمانيين ، وهم وقتذاك يحاولون التوغل في ترنسلفانيا المجرية ، حيث كان هنيادي هو الحاكم من قبل لادسلاس الخامس ، ملك المجر . وذاع اسم هنيادي في سرعة ، فأسندت إليه قيادة جيوش الحلف المسيحي الكبير الذي تكون وقتذاك لمنازلة العثمانيين مرة أخرى ، أملا في التمهيد لإخراجهم نهائيا من أوربا . وشمل هذا الحلف — لا المجر وبولندة والصرب وبلاد الأفلاخ (Wallacia) فحسب ، بل دوقية برجنديا وجنوة والبندقية والبابوية وإمبراطورية البيزنطيين . وبينما أبحر أسطول من السفن الإيطالية والفلمنكية صوب الدردنيل ، زحف هنيادي جنوباً على رأس جيوش الحلفاء ، فعبر نهر دانوب ، وطرد العثمانيين من بلاد الصرب ، وهزمهم هزيمتين

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٨١ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٥٠ . زيادة .

فادحتين شمالى نهر هايموس وجنوبيه، حتى اضطرهم لأول مرة فى تاريخهم إلى طلب الصلح . وهذا هو صلح سيزجدن (يونيه سنة ١٤٤٤[١] م) ، وهو الصلح الذى أراد مراد الثانى أن يجعل منه خاتمة حياته السياسية ، ولهذا خلع نفسه من السلطنة ، وتولى مكانه ابنه محمد الثانى .

هنا كانت السنة الفاصلة فى تاريخ الشرق الأدنى ، إذ أحرزت جيوش المسيحية نصرين باهرين على الدولة العثمانية ، وغدت هذه الجيوش مرابطة جنوبى نهر هايموس ، على مسافة هينة من أدرنة عاصمة العثمانيين . ثم إن الألبانيين — بزعامة چورچ كاستريوتس الذى اشتهر فيما بعد باسم اسكندر بك — كانوا وقتذاك فى ثورة ضدّ العثمانيين ، على حين أثار بعض أمراء قرمان بعض المتاعب للسلطان فى آسيا الصغرى . ولذا وجب على القائد المجرى هنيادى وجوباً واضحاً أن يستغلّ موقفه بالزحف على أدرنة ، ليتمّ فوزه قبل أن يفيق العثمانيون من أثر الصدمة التى حلّت بهم نتيجة نجاحه فى الحرب على غير انتظار ، ولو جاء ذلك مخالفاً لرأى الحلف المسيحى الكبير .

أما الذى حدث فهو أن هنيادى لم يستغلّ موقفه، بل قرر احترام الصلح مع العثمانيين ، وسواء أكان هنيادى مدفوعاً إلى هذا القرار — كما يقول البعض — بتأثير رشوة عثمانية ، أم بتحريض چورچ ملك الصربيين لغرض فى نفسه ، أم بسبب عوامل شخصية أو حربية أخرى ، فموضع الأهمية هنا أن هنيادى أتاح لأعدائه مدة سلمية كانوا فى أشد الحاجة إليها ، لإصلاح ما أفسدت حظوظ القتال . ثم سارت الأمور على غير ما يشتهى القائد المجرى العظيم بعد هذا القرار، إذ اضطر إلى السكوت عن عزم لادسلاس على نقض الصلح مع العثمانيين — وهو عزم أثيم لنقض صلح أمضاه لادسلاس وأقسم[٢] عليه . وخشى هنيادى ما سوف يؤدى إليه ذلك من إظهار العثمانيين بمظهر المتعدى

---

(١) راجع (Camb. Med. Hist. IV. p. 691) ؛ حيث ورد أن مراداً الثانى، ولادسلاس ملك المجر وحلفاءه، تعهد كل منهما لصاحبه فى معاهدة الصلح أن يكون نهر دانوب حداً فاصلا لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشر سنين ، وأن مراداً أقسم على القرآن ، كما أقسم لادسلاس على الإنجيل ، وأن هنيادى لم يشترك فى القسم أو التوقيع على صلح ألبتة ، وهو لذلك غير مقيد بأى شرط من شروطه ، لكنه رأى احترام هذه الشروط ، لأسباب واردة فيما يلى هنا بالمتن . زيادة .

(٢) راجع الحاشية السابقة . زيادة .

عليهم من المسيحيين ، لكنه قبل الاشتراك فى الهجوم على المواقع العثمانية جنوبى الدانوب ، مكرهاً لابطلاً . وعند مدينة ڤارنا علم هنيادى برجوع مراد الثانى إلى السلطنة وقيادة الجيوش العثمانية ، ليقتص لنفسه من أصحاب الأقسام على الإنجيل . ثم لم يلبث هنيادى أن لقى العثمانيين وعدتهم ستون ألفاً ، فانهزم هزيمة فادحة ، أوائل نوفمبر سنة ١٤٤٤ م ، وكان ذلك كافياً لإقناع مراد الثانى بسلامة التخلى عن السلطنة لابنه محمد الثانى مرة أخرى .

غير أن هذه الهزيمة على فداحتها لم تهدم هنيادى أو تفل من عزمه ، برغم اندحار جيشه ، ومصرع ملكه لادسلاس فى ڤارنا ؛ ولم يمض عليه سوى أربع سنوات حتى ظهر فى الميدان على رأس جيش صغير من خيرة جند المجريين والأفلاخيين ، كما ظهر مراد الثانى فى القيادة العثمانية والسلطنة مرة أخرى ، بناء على طلب ابنه محمد الثانى . وعند قوصوه التقى العثمانيون بجيش هنيادى ، ووقع المصاف ثلاثة أيام حسوماً تحركت أثناءها نحوس الاختلاف البلقانى والتفرقة بين المجريين والأفلاخيين ، حتى إذا كان اليوم الثالث ، مال الأفلاخيون إلى جانب العثمانيين وانضموا إليهم ، وانتهى هذا اليوم بانهزام المجريين هزيمة شنيعة ذهبت فيها آلاف من زهرة الفروسية المجرية . تلك هى وقعة قوصوه الثانية ، سنة ١٤٤٨ م ، وهى وقعة أخرجت بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من قائمة الدول التى تستطيع النهوض بعمل حربى هجومى ضد العثمانيين ، وقبلها وقعت قوصوه الأولى ، وهى الوقعة التى كانت القاضية على آمال الصربيين فى الحرية[1] . أما السلطان مراد الثانى ، فظل فى السلطنة حتى وفاته سنة ١٤٥١ م . ومن هنا يصبح الباحث على مقربة من آخر مراحل الشوط الحربى الطويل الذى بدأه العثمانيون من بقعة مغمورة بين تلال بيثينيا بآسيا الصغرى ، وهو شوط ظلوا يطوونه مرحلة بعد مرحلة فى دأب متصل ، حتى انتهوا إلى قصر الأباطرة بالقسطنطينية .

وكانت القسطنطينية لا تزال حتى وقتذاك مدينة بيزنطية ، وعاصمة لإمبراطورية ، ولئن غدت استحكاماتها أقل منعة مما كانت عليه قديماً ، فإنها استطاعت أن تدرأ هجوماً شنه عليها السلطان مراد الثانى ، فى السنوات الأولى من حكمه . ثم إن القسطنطينية على كثرة الطامعين فى فتحها منذ القرون المسيحية الأولى استعصت

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٤٩ . زيادة .


الدولة
العثمانية
سنة ١٤٨١م
البحر الأسود
البغدان
الأفلاق
القرم
كرواتيا
البوسنة
صربيا
بلغاريا
الروملي
مقدونيا
إيطاليا
بلغراد
نيقوبولس
سلستريا
أدرنة
القسطنطينية
سالونيكا
تساليا
المورة
زانتي
مودون
كريت
رودس
قبرص
سينوب
قسطموني
طرابيزون
أرزنجان
كردستان
العراق
سيواس
أنقرة
قرمان
قونيه
بروسة
اسكي شهر
صاروخان
كرميان
أيدين
حميد
تكه
أضاليه
سلطنة المماليك

على كل طامع ، وسرى بين الأجيال عقيدة راسخة بأنها لن تسقط فى يد فاتح ، مهما أوتى من مهارة وجسارة وبأس . غير أن العقائد لا تعصم المدن من هجوم الهاجمين وفتوح الفاتحين ، بل تعصمها الإرادات والعزمات المتحدة ، والقوات الحربية التى يستطيعها أهلها . فلو كان البيزنطيون متحدين عزومين ، ولو ظلت أساطيل جنوة والبندقية تحت تصرف الحكومة الإمبراطورية ، ولو رضيت الأرثوزكسية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية بشىء من التوافق المذهبى ، بل لو قام بين البيزنطيين والإيطاليين شىء من نية معقودة على عمل حربى مشترك ، لنجت القسطنطينية من أيدى العثمانيين . غير أن نية معقودة لم توجد ، لأن البيزنطيين أضحوا — من شدة ما امتلأت به عاصمتهم من جدل حول توحيد الكنيستين الأرثوزكسية والكاثوليكية — يسخطون على الإيطاليين والكاثوليكيين جميعاً كل السخط ، وأضحت قلنسوة الكردنالية الكاثوليكية عندهم أعظم مقتاً من طاقية العثمانيين . ثم إن الكاثوليكيين لم يـرَوا فى البيزنطيين الواهنين وأرثوذكسيتهم سوى هرطقة بغيضة ، وهذه أقل غفراناً عندهم من عقيده المسلمين الفاتحين . وأدهى من ذلك وأمرّ أنه بينما تفاقمت المباغضات الدينية المذهبية وقتذاك ، أضحت روح التقوى والحماسة الخالصة لوجه الدين معدومة أو تكاد . يضاف إلى ذلك أن تجار راجوزة وجنوة والبندقية رأوا فى قيام هذه الإمبراطورية العثمانية الجديدة ، لا كارثة طامة على الدين المسيحى ، بل فرصة نادرة لتحصيل امتيازات تجارية كفيلة بربح وفير . وكيف يفكّر أولئك التجار النبهاء المهرة أن يباغضوا دولة باغت من القوة والعزة والسيطرة ما سوف يجعلها — ولعدة قرون — صاحبة الأمر فى مصائر آسيا الصغرى ، وشبه جزيرة البلقان . وهذا هو بعض السرّ فى قيام التجار الجنوية أهل حىّ جالاطا بالقسطنطينية — وهم أصحاب المتاجر الواسعة فى موانئ البحر الأسود — بمفاوضة السلطان محمد الثانى ، وهو على حصار العاصمة البيزنطية ، للحصول على امتيازات تجارية لأنفسهم ، قبل غيرهم من تجار الجمهوريات الإيطالية الأخرى .

وفى هذه السنوات الحرجة فى خاتمة الإمبراطورية البيزنطية سطع اسم قنسطنطين الحادى عشر (١٤٤٨—١٤٥٣م) — وهو آخر الأباطرة البيزنطيين — فى سماء الدبلوماسية والبطولة ، وبرهن هذا الإمبراطور على استعداد للوصول إلى حلّ نصفة بين العثمانيين والبيزنطيين ، أو الجود بالنفس فى حومة الدفاع عن القسطنطينية ، برغم أنه مدين بعرشه للسلطان مراد الثانى ، فضلا عن تبعيته للسلطنة العثمانية منذ أدائه لها جزية

سنوية عن شبه جزيرة المورة . ولم يكن البيزنطيون أهل القسطنطينية قمينين بزعيم من شاكلة قنسطنطين ، فإنهم أصبحوا وأمسوا قوماً يعيرون المشاحنات الدينية الكنسية اهتماماً أكثر مما يعيرون الصدمة الداهمة بكيانهم وجنسيتهم ، من ناحية العثمانيين المسلمين .

وليس أدل على هذا العفن الروحى المشتعل بين أولئــك البيزنطيين من امتلاء القسطنطينية بعاصفة من السخط واللعنة على الإمبراطور قنسطنطين الحادى عشر ، لأنه قرر أن يعترف بقيام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى القسطنطينية ، وأن يسمح بإقامة شعائرها الدينية فى كنيسة أيا صوفيا ، أملا منه — ولات حين أمل — فى اجتذاب غرب أوربا إلى جانبه . كل ذلك والسلطان محمد الثانى يقرع أبواب القسطنطينية بقذائفه ، ويدك أسوارها بمدافعه . وهذه المنافسات الدينية النكيدة هى السبب الذى أدى — فيما يبدو — إلى وقوع الجزء الأكبر من الدفاع عن القسطنطينية ، لا على أكتاف البيزنطيين ، بل على أكتاف الإسبانيين والألمانيين والإيطاليين ، وهم الذين جاءوا إلى القسطنطينية نجدة متطرعة أو مرتزقة مأجورة ، ولم يكن لهم فى الحزبية الدينية نصيب . وكما كانت معظم قوات الدفاع عن القسطنطينية من غير البيزنطيين ، كذلك لم يكن الجيش العثمانى كله من العثمانيين ، إذ المعروف أن كثيراً من جند السلطان محمد الثانى جاء من أصول مسيحية ، بيزنطية وغير بيزنطية ؛ وهذه هى الينى شرية[1] . ومعنى هذا كله أن التقصير المسيحى هو الذى جعل القسطنطينية تخور وتمور ، وتتهدم تحت ضربات العثمانيين ، وجعل آخر الأباطرة البيزنطيين يخر صريعاً شريفاً ، والإمبراطورية نفسها تئن أنين الموت ، فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو ، سنة ١٤٥٣ م .

هكذا حل العثمانيون محل البيزنطيين فى القسطنطينية ، وظلوا لعثمانيتهم حافظين ، وبها فخورين شامخين ، برغم ما شهدوا من قيم حضارية أوربية عبر تاريخهم الطويل ، بالجنوب الشرقى من أوربا حتى أواسط نهر دانوب . وللمؤرخ الإنجليزى سير تشارلس إليوت فى وصف البيت العثمانى فى القرن التاسع عشر الميلادى ملحوظة خلاصتها أنه — أى البيت العثمانى — لا يحوى من الأثاث أكثر مما يستطاع حمله فى سرعة ، على عربة تعود به إلى جوف آسيا ، إذ قال إن البيت العثمانى يبدو

---

(١) انظر ماسبق هنا ، ص ٤٤٦ . زيادة .

لأول وهلة فى عين الزائر الأوربى ليس مقصوداً به أن يكون سكناً ثابتاً دائماً . فالطابق الأرضى إسطبل ومخزن لحاجات البيت ، بالإضافة إلى دَرَج هو فى أغلب الأحيان سلّم خشبى يؤدى إلى الطابق العلوى . وهذا الطابق العلوى يكون طرازه عادة ممشى طويل ، على جانبيه عدة غرف ، مداخلها ستائر من قماش ، لا أبواب من خشب ، كما لا يخلو سقفها من بيوت العناكب وأعشاش العصافير . أما الغرف نفسها فهى غاية من الأناقة والنظافة ، ولكنها تبدو عارية خالية من الأثاث إلا الضرورى القليل ، وهو كل ما تحتاج إليه الأسرة العثمانية الميسورة لحياتها اليومية . وهذا كله يصوّر فى عين الزائر الأوربى كأنه يرى بيتاً مهجوراً من البيوت الملحقة بقصور الأغنياء فى ريف إنجلترا ، وكأن جماعة من المسافرين عثروا فى طريقهم بهذا البيت ، فألقوه خالياً أو يكاد إلا من تراب الإهمال ، فأخذوا فى تهيئته للإقامة به بضعة أيام ، وقالوا بعضهم لبعض هلمّوا نضع بالطابق الأرضى خيلنا ورواحلنا ، وننظف هذا الطابق العلوى لمبيتنا ، ولا معنى للتذمّر ، فإننا لابدّ راحلون عنه بعد أسبوع أو أقل من أسبوع . على أن الخلق العثمانى امتاز فى نظر الأوربيين بشىء غير قليل من الهيبة الممتزجة بوقار الطلعة ، مع ميل إلى الفكاهة والتهكم ، وهى صفات حمدها الأوربيون الذين خبروا العثمانيين عن كثب ، كما حمدوا ما اتصفت به الجيوش العثمانية من قصد فى المأكل والمشرب . غير أن العثمانيين لم يقيموا للحضارة الأوربية الغربية وزناً ، ولم يدركوا قيمتها يوماً من الأيام ، ولذا عاش العثمانى غريباً أجنبياً فى أوربا ، لا نصيب له فى تقاليدها ، ولا يتعدى تفكيره فى لزوميات الحكم الإمبراطورى مبادئ الأوليجاركية الاستئثارية ، وهى المبادئ التى تعتمد على الرقيق ، وتنظر إلى البشرية المحيطة بها كأنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية . غير أن هذا كله وشبهه نبذته الجمهورية التركية الحديثة نبذ النواة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Camb. Med. Hist. Vol. IV. Chap XXI.

Finlay, (G.) : History of Greece. Ed. H.F. Tozer. 7 vols. 1877

Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. Bury. 1896-1900.

Hammer-Purgstall. (J.) : Histoire de l'Empire Ottoman. Traduit de l'Allemand. M. Dochez. 3 vols. 1840-1842.

Macartney. (C.G.) : Hungary. (Nations of the Modern World Series). 1934.

"Odysseus" (Sir Charles Eliot) : Turkey in Europe. 1900.

Temperley. (H.W.V.) : History of Servia. 1917.

الفصل السابع والعشرون

آفاق جديدة في العصور الوسطى

انعدام التقدم العلمي في العصور الوسطى — نموّ المعلومات الجغرافية — كشف موقع الصين — الطواف حول أفريقيا .

* * *

يصل الباحث في التاريخ الأوربي هنا إلى نقطة يستطيع الوقوف عندها ، وهي نقطة تبعد عن العصر القديم الذي تصفه أشعار هوميروس مسافة زمنية طولها نحو ألفين وستمائة من السنين . وفي هذه المرحلة الزمنية الطويلة أنتج العقل البشري آداباً رفيعة ، ومنشآت معمارية عظيمة ، وديانات وفلسفات جليلة ، وروائع من تماثيل منحوتة وصور منقوشة ، وهي روائــع فنية لم تفقد شيئاً من جاذبيتها على مرّ العصور . وفي هذه المرحلة الزمنية كذلك بحث العقل البشري مسائل الروح والقلب والحواس ، وكل شيء عدا الطبيعة ، فإذا سأل أحد في ظاهرة من ظواهر الطبيعة لم يستطع متابعة سؤاله حتى النهاية ، وبقي السؤال دليلا من دلائل اللقانة العابرة العقيمة في تلك العصور الوسطى . ولذا ظلّ التقدم معدوم الخطى في ميادين البحوث والكشوف التي تزيد من سيطرة الإنسان على قوى المادة الغشوم ، وترفع من مستوى الخير العام ، فبقيت وسائل النقل حيث هي منذ أقدم العصور ، ولم تستطع ثلاثة آلاف من السنين أن تبدل الحصان وسرعته بوسيلة أسرع ، أو الريح وقوتها في تسيير السفن الشراعية بقوة أخرى . وعاش معظم الأوربيين في بيوت حقيرة خانقة ، وتغلقت خبراتهم وتجاريبهم في حدود ضيقة ، وتبددت أعمارهم في الأرض بسوء التغذية وكثرة الأمراض والطواعين ، كأنما كُتب على البشرية أن تنتظر حتى عصر البخار والبترول والكهرباء قبل أن تضيف شيئاً واحداً إلى عظيم مخترعات الإنسان الأول ، من عجلة وشراع ومحراث .

ومع هذا خطا الأوربيون منذ عصر الحروب الصليبية خطوات واسعة في ميدان المعرفة ، إذ غدوا على علم أتمّ ومعرفة أدقّ بأحوال البرّ والبحر ، وأضحى

من المعروف أن الأرض كروية ، وأن السفر إلى أقصى شرق آسيا ينتهى إلى الصين واليابان وجزر البهار . ثم عبر الجنويون الصحراء الكبرى وبلغوا السودان ، كما أسسوا لأنفسهم جالية بجنوب الصين سنة ١٣٣٦ م ، على حين أخذ البرتغاليون طريقهم فى البحر جنوباً حول سواحل غرب إفريقيا ، وهم الذين تلقوا فنون الملاحة على أساتذتهم الجنويين. يضاف إلى ذلك اتجاه ملاحى البحر الأبيض المتوسط — فى أعداد متكاثرة من مختلف السفن نحو المحيط الإطلنطى — وهذا منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، أى منذ صار للبنادقة أسطول تجارى فى المياه الغربية بين إنجلترا وبلاد الفلاندرز[١] . وهذا غدت الملاحة البحرية فرعا من فروع المعرفة التى تتطلب معلومات وإرشادات دقيقة. وأمدت المراشد البحرية(portolani[٢]) ، وهى التى قام على إعدادها الملاحون الإيطاليون والقطلانيون — فى القرن الرابع عشر الميلادى — مختلف الملاحين بخرائط جغرافية علمية .

ولم ينشأ هذا الازدياد فى المعرفة بالجغرافية عن حبّ الاستطلاع ، أو روح المغامرة التى امتاز بهما الأوربيون . بل كان منشؤه كذلك مغريات الثروة . ذلك أن الشرق امتلأ وقتذاك بمتاجر لم يكد يتذوّق الغرب طَعمها حتى استمرأها ، وألحف فى طلبها . فمن الشرق جاء الحرير. وجاءت التوابل (القرفة والفلفل وجوزة الطيب) ؛ وشاع لبس الحرير فى المجتمع الرومانى — أى منذ القرن الرابع الميلادى — حتى صار من ألزم اللزوميات عند النساء ، كما شاع استعمال التوابل ، وهى مما خفّ وزنه وغلا ثمنه. وصار الطهى من صغيف الفنون ، لفتح الشهية إلى مزيد من الطعوم .

ثم جىء بدودة القز تهريباً من الصين إلى الإمبراطورية الرومانية فى القرن السادس الميلادى ، وما أعظم ما ترتب على نقل هذا المخلوق التافه من نتائج اقتصادية كبيرة، إذ تأسست صناعة المنسوجات الحريرية فى سوريا ثم صقلية ، وبعدهما فى إيطاليا وإسبانيا . واتسعت صناعة الحرير بعد ذلك اتساعاً جعل أوربا فى غنى عن استيراد هذه السلعة التجارية الهامة من الصين ، لكن أوربا غدت بذلك محرومة من دافع كان وجوده كفيلا بحملها على سلسلة من المغامرات فى

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٢٩ . زيادة .

(٢) انظر (Gordon East : Historical Geography of Europe, p. 320) لمعرفة أوصاف هذه الخرائط البحرية . زيادة .

سبيل الوصول إلى الشرق الأقصى ، فى العصور الوسطى .

أما التوابل فلم تنقطع عن أوربا يوماً من الأيام ، غير أنها ظلت باهظة الأثمان . والسبب فى ذلك أن الهنود ، ثم العرب والأحباش الذين أغلقوا طريق البحر الأحمر فى وجه الملاّحين الرومانيين منذ القرن الثالث الميلادى ، ثم سلاطين المماليك فى مصر فى العصور الوسطى — كل أولئك فرضوا مكوساً هائلة على مختلف أصناف التوابل ، قبل أن تصل إلى أيدى التجار من الرومانيين البنادقةوبعدهم . ولذا أضحى التخلص من دفع هذه المكوس الطائلة التى ملأت جيوب أولئك الوسطاء الشرقيين هدفاً اقتصادياً لابدّ من تحقيقه ، عاجلاً أو آجلاً ، بفتح طريق من طرق الاتصال المباشر ببلاد الشرق .

ولم يكن تحقيق ذلك الهدف الاقتصادى الكبير عسيراً على الأوربيين أواسط العصور الوسطى ، فإن الطريق البرّى عبر آسيا — وطوله وقتذاك سبعة آلاف وخمسمائة ميل ، ومعظمه صعب وعر مخطور — كان مفتوحاً للمسافرين الأوربيين أكثر من قرن من الزمان ، بفضل حكمة الخانات المغوليين وبصيرتهم السياسية المتسامحة . ففىخلال الأعوام المائة التى امتلأت بالسلام المغولى (١٢٦٤— ١٣٦٨ م) ، وهى الأعوام التى امتدت من عهد قوبيلاى الى عهد طوغان تيمور غدا الصناع والمبشرون الغربيون موضع ترحيب الصين . ثم انسدل الستار بين الشرق والغرب فجأة ، بانهيار الدولة المغولية ، وبذا ذهبت مراكز التبشير مع الريح ، وهوت آسيا الوسطى مرة أخرى فى مهاوى الحروب التيمورلنكية المغولية المتأخرة ، وأمست الصين منطوية عن الأوربيين فى غمرة من ظلام دامس ، وعزلة صارمة جامدة .

غير أن سرّ الوصول إلى الصين لم يعد خافياً على أحد من الأوربيين المعنيين بمعرفته ، والواقع أن القصة الرائعة التى تمّ نشرها سنة ١٢٩٩ م ، والتى روى فيها ماركو پولو أخبار أسفاره فى آسيا ، وأخبار إقاماته وتنقلاته بين بلاد الصين مدة سبعة عشر عاماً ، أحدثت فى أوربا ثورة فكرية لا تقل فى أهميتها وأثرها عما نجم عن اكتشافات كولمبس فيما وراء الإطلنطى ، من امتداد فى المعرفة الإنسانية ، أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ذلك أن رحلات ماركو پولو أوضحت للعقول أن الكرة الأرضية تختلف كلّ الاختلاف عما تصوّر السابقون ، وأن بأقصى الطرف الأقصى من آسيا بلاداً تمتاز بكثرة سكانها ، وضخامة ثروتها ، وتعاملها بنقد من الورق لا المعدن ، فضلا عن مستوى حضارى ونظام عام يحكى

— على أقل تقدير — ما وصلت إليه إيطاليا من مستويات حضارية فى تلك العصور .

الخلاصة أن كتاب رحلات ماركوپولو فتح سلسلة لا نهاية لها من الافتراضات ، والاحتمالات . ففى سنة ١٤٢٨ م ، اشترى دون پدور البرتغالى من مدينة البندقية نسخة من هذا الكتاب ، وأهداها إلى أخيه الأمير هنرى الملاح (١٤١٥ — ١٤٦١ م) ، وهو الأمير الذى استطاعت البرتغال بفضل توجيهاته الذكية أن تصبح زعيمة السبق فى حركة الكشوف البحرية .

ثم أخذت فكرة الطواف بحراً حول أفريقيا تجتذب إليها الكثير من الاهتمام ؛ ولم يكن مشروع الطواف حول أفريقيا جديداً ، إذ قام به الفينقيون فى القرن السادس قبل الميلاد ، على فرض صحة ما ورد فى هيرودوت . وكان باستطاعة الإمبراطورية الرومانية أن تقوم به مرّة أخرى فى التاريخ — ولا محل للريب هنا — ، لولا أن السيطرة الرومانية على مصر وطريق البحر الأحمر جعلت الرومانيين فى غير حاجة اقتصادية إلى محاولته . لكن جمهورية من جمهوريات البحر الأبيض المتوسط — وهى چنوة — أحست بقوة هذه الحاجة إحساساً شديداً ، منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك لأن چنوة نافست البندقية فى ميدان المتاجر الشرقية ، ولأن البندقية حالفت مصر ، واستطاعت بصداقتها لسلاطين المماليك أن تحتكر من المتاجر الشرقية معظم السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر ، للتجارة بها فى أوربا . ولم يكن ثمة سبيل إلى فك هذا الاحتكار عن البندقية إلا وسيلة من وسيلتين اثنتين ، إما هدم قوتها بحرب تشنها عليها چنوة فى إيطاليا ، وإما هدم ثروتها بسدّ منابع هذه الثروة أن تصل إليها . وجرّبت چنوة وسيلتها الأولى ، وأخفقت إخفاقاً ذريعاً فى وقعة تشيوجيا[1] ، فلم يبق لديها سوى وسيلتها الثانية ، فعكفت على دراسة الطرق والمسالك الكفيلة بتحقيقها ، وقدّرت أن فى استطاعة السفينة من السفن أن تطوف حول إفريقيا ، وتأتى بالتوابل من وراء البحار إلى أوربا ، دون حاجة إلى استئذان العرب أو الأتراك أو المماليك ، أو التعرض لمكوسهم الباهظة واستبداداتهم الثقيلة .

ولذا كان الجنويون أول من قام بتنفيذ هذه الفكرة ، فى شهر مايو من سنة ١٢٩١م ، أبحر أوجولينو دى ڤيفالدو — وهو من أهل چنوه — فى سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحرى إلى الهند . غير أن ڤيفالدو غرق فى سفينتيه قبالة الساحل الإفريقى ، وجاء القرن الرابع عشر الميلادى وانتهى دون أن يثنّى أحد على مغامرته الباسلة . وفى تلك الأثناء

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٢٣ . زيادة .

لقن البرتغاليون فنون البحار عن الجنويين ، وتعلموا بناء السفن الكبيرة والسير بها فى المحيطات ، وأمدتهم أسفارهم المتكررة إلى جزر كناريا (الخالدات) ، وسياحاتهم الدائبة فى البحث عن ساحل غانة ، بجميع المؤهلات البحرية اللازمة لتحقيق الهدف العظيم الذى جعل أوربا على صلة مباشرة بالمحيط الهندى مرة أخرى ، بعد قطيعة مدتها ألفان ومائتان من السنين ، أى منذ أيام الإمبراطورية الرومانية ؛ وبذا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ العالم .

والمؤرخ الحديث لا يستطيع إلا أن يرى فى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ، وفى اكتشاف البرتغاليين ساحل غانة ، حدثين متعاصرين عميقين ، جليلين بما انطوى عليه كل منهما من معنى . فأولهما أوصد المنفذ الرئيسى من أوربا إلى الشرق فى وجه الأوربيين ، وثانيهما افتتح باب الكشوف البحرية التى نشرت سلطان أوربا تدريجاً على أرجاء الكرة الأرضية ، وغيرت الموازين والمعايير الاقتصادية فى أنحاء العالم . غير أن المعاصرين لهذين الحدثين لم يروا أهمية فاصلة مؤذنة بحال جديدة إلا فى الحدث الأول ، فإن أوربياً مسيحياً لم يملك أن يتأمل فتح العثمانيين المسلمين عاصمة مسيحية عظيمة دون أن تهتز عليه مشاعره . وبالقياس إلى ما سوف يترتب على سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين من نتائج وبيلة فى نظر الأوربيين المعاصرين ، بدت تجارة الوارد إلى أوربا من ساحل غانة غير ذات أهمية أو قيمة ، وهى التجارة التى بدأت بجهود هنرى الملاح ملك البرتغال . ومن الدليل على ذلك حرص آزورارا — وهو مؤلف سيرة هنرى الملاح — ألا يقيم مجد الملك البرتغالى على نواحى نشاطه فى تنظيم المتاجر البحرية والكشوف ، على طول ساحل إفريقيا ، لخلو هذه الأعمال مما يشتم منه رائحة المجد.

تلك هى سنة البشر فى الحياة ، إذ يمر المستقبل تحت أعين الناس وأبصارهم دون أن يروه ، أو يلقوا بالا إلى مروره . فالإنجليز مثلا — وهم الذين شاءت لهم المقادير — دون سائر الشعوب الغربية — أن ينعموا بهذا المستقبل أكبر نعمة اقتصادية ، وأن يجنوا أعظم الثمرات من حركة كشف المحيطات ، كانوا وقتذاك يتأسون أشد أسى على ضياع ممتلكاتهم الفرنسية فى أرض فرنسا . ولم يدرك الإنجليز وقتذاك أن وراء رحلات البرتغاليين العشواء عصا سحرية تمهد لجزيرتهم الواقعة عند الطرف الأقصى من غرب أوربا ، كيما تصبح هذه الجزيرة الصغيرة النائية وسط البحار الباردة ، بهرة العالم المعمور ، وصاحبة السيطرة الطويلة على حرية البحار ، ومركز النشاط الاقتصادى والحضارى فى الكرة الأرضية ، حتى مطلع القرن العشرين .

بعض المراجع لهذا الفصل

Beazley, (C.R.) : The Dawn of Modern Geography 3 vols, 1897-1906

Horatio Brown : Venice. A Historical Sketch of the Republic 1893.

Hudson. (G.F.) : Europe and China. 1931.

Pirenne. (H.) and Renaudet. (A.) : La Fin du Moyen Age. 1931.

ملاحق

قوائم تاريخية وشجرات الأنساب

(١) قائمة بأسماء الأباطرة أواخر الأمبراطورية الرومانية .

(٢) قائمة بأسماء الأباطرة البيزنطيين حتى سنة ٨٦٧ .

(٣) أجداد شرلمان

(٤) بيت تانكرد هوتڤيل النورمانى .

(٥) الملوك السكسونيون والأباطرة الساليون .

(٦) الأباطرة المقدونيون فى الدولة البيزنطية .

(٧) الجولفيون والجبلليينيون .

(٨) ملوك فرنسا .

(٩) ملوك إنجلترا .

(١٠) ملوك اسكتلندا

(١١) المطالبون بعرش فرنسا سنة ١٣٢٨م

(١٢) أسرة هابسبرج .

(١٣) بيت لكسمبورج .

(١٤) الأباطرة البيزنطيون من سنة ١٠٥٤م إلى سنة ١٤٥٣ م.

(١٥) السلاطين العثمانيون حتى الاستيلاء على القسطنطينية .

أسماء الأباطرة الرومانيين

من دقلديانوس إلى روميلوس أجسطيلوس

	سنة ولايته
دقلديانوس	٢٨٤ م
دقلديانوس مع مكسيميانوس (قسيم)	٢٨٦ م
قسطاطينوس جاليريوس	٣٠٥ م
سڤيروس	٣٠٦ م
قنسطنطين (الكبير)	٣٠٦ م
ليسنيوس	٣٠٧ م
مكسيمانوس	٣٠٨ م
قنسطنطين وجاليريوس وليسنيوس	
ومكسيمين ومكسينتوس ومكسميان شركاء فى الإمبراطورية	٣٠٩ م
قنسطنطين (الكبير)	٣٢٣ م
قنسطنطين الثانى وقسطانطيوس الثانى	
وقنسطانز	٣٣٧ م
ماجنتيوس	
قنسطاطينوس	٣٥٣ م
يوليان	٣٦١ م
يوڤيان	٣٦٣ م

ڤالنس وڤالنتيان الأول . . . . ٣٦٤ م
جراتيان وڤالنتيان الأول . . . . ٣٦٧ م
جراتيان وڤالنتيان الثانى . . . . ٣٧٥ م
تاوداسيوس الكبير . . . . ٣٧٩ م
أركاديوس (فى الشرق) . . . . ٣٩٥ م
هونوريوس (فى الغرب) . . . . ٣٩٥ م
تاوداسيوس الثانى (فى الشرق) . . . . ٤٠٨ م
ڤالنتيان الثالث (فى الغرب) . . . . ٤٢٤ م
مارقيان (فى الشرق) . . . . ٤٥٠ م
مكسيموس أڤيتوس (فى الغرب) . . . . ٤٥٥ م
مايوريان (فى الغرب) . . . . ٤٥٥ م
ليو الأول (فى الشرق) . . . . ٤٥٧ م
سڤيروس (فى الغرب) . . . . ٤٦١ م
(فترة شغور فى الغرب) . . . . ٤٦٥ م
أنثيميوس (فى الغرب) . . . . ٤٦٧ م
أوليبريوس (فى الغرب) . . . . ٤٧٢ م
جليكيريوس (فى الغرب) . . . . ٤٧٣ م
يوليوس نيپوس (فى الغرب) . . . . ٤٧٤ م
ليو الثانى وزينون وباسل (فى الشرق) . . . . ٤٧٤ م
روميلوس أجسطيلوس (فى الغرب) . . . . ٤٧٥ م
نهاية الأباطرة فى الغرب . . . . ٤٧٦ م

ومنذئذ إلى سنة ٨٠٠ م لم يكن فى أوربا سوى أباطرة الدولة الرومانية فى الشرق وهى الدولة البيزنطية .

قائمة بأسماء الأباطرة البيزنطيين حتى سنة ٨٦٧ م

أسرة جستنيان

جستين الأول	٥١٨—٥٢٧م
جستنيان الأول	٥٢٧—٥٦٥م
جستين الثانى	٥٦٥—٥٧٨م
طباريوس الثانى	٥٧٨—٥٨٢م
موريس	٥٨٢—٦٠٢م
فوقاس	٦٠٢—٦١٠م

أسرة هرقل

هرقل	٦١٠—٦٤١م
قنسطنطين الثالث (١)	٦١٣—٦٤١م
هرقلوناس	٦٣٨—٦٤١م
قنسطانز الثانى	٦٤١—٦٦٨م
قنسطنطين الرابع	٦٥٩—٦٦٨م
قنسطنطين الرابع (ذو اللحية المرسلة)	٦٦٨—٦٨٥م
جستنيان الثانى (المجدوع الأنف)	٦٨٥—٦٩٥م
ليونتيوس	٦٩٥—٦٩٨م
طباريوس الثالث	٦٩٨—٧٠٥م
جستنيان الثانى (المجدوع الأنف — ولايته العرش مرة أخرى)	٧٠٥—٧١١م
فيليبكوس (باردانس)	٧١١—٧١٣م
أنسطاسى الثانى	٧١٣—٧١٥م
تاوداسيوس الثالث	٧١٥—٧١٧م

الأسرة الإيسورية

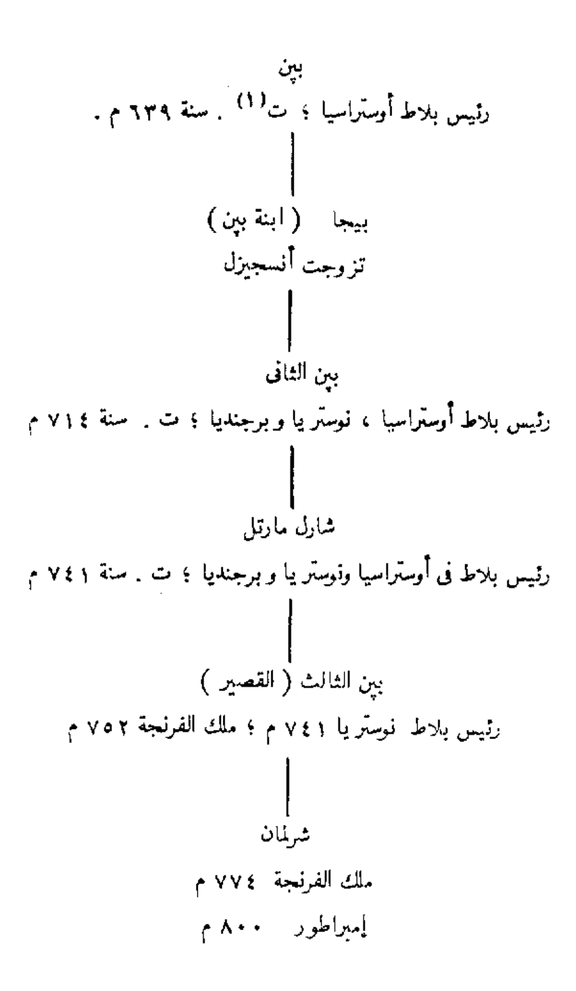
ليو الثالث (الإيسورى)	٧١٧—٧٤٠م
قنسطنطين الخامس	٧٤٠—٧٧٥م
ليو الرابع	٧٥٠—٧٧٥م
ليو الرابع	٧٧٥—٧٨٠م
قسطنطين السادس	٧٧٦—٧٨٠م
قنسطنطين السادس	٧٨٠—٧٩٧م
تولت أمه أيرينى الوصاية عليه من سنة	٧٨٠—٧٩٠م
ومن سنة	٧٩٢—٧٩٧م
أيرينى	٧٩٧—٨٠٢م
نقفور الأول	٨٠٢—٨١١م
ميخائيل الأول	٨١١—٨١٣م
ليوالخامس (الأرمنى)	٨١٣—٨٢٠م

الأسرة العمورية

ميخائيل الثانى	٨٢٠—٨٢٩م
ثيوفيل	٨٢١—٨٢٩م
ثيوفيل	٨٢٩—٨٤٢م
ميخائيل الثالث (السكير)	٨٤٢—٨٦٧م
وصاية برداس عليه عمن	٨٦٢—٨٥٦م
وصاية تيودورا عليه من	٨٦٢—٨٦٦م
باسل الأول	٨٦٦—٨٦٧م

(١) يدل الاسم المكتوب بالحروف الصغيرة على اشتراك فى الحكم مع الإمبراطور السابق له .

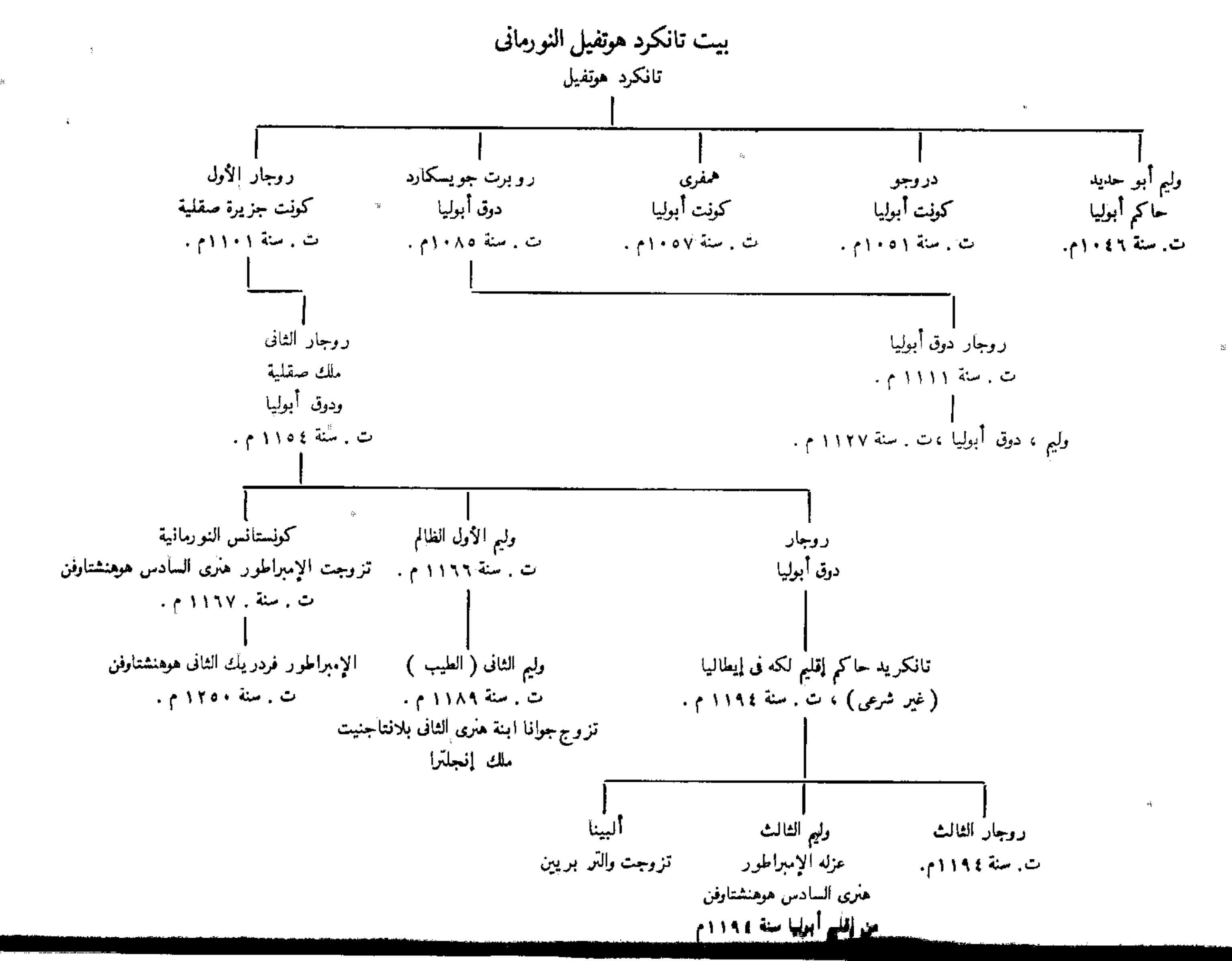
أجداد شرلمان

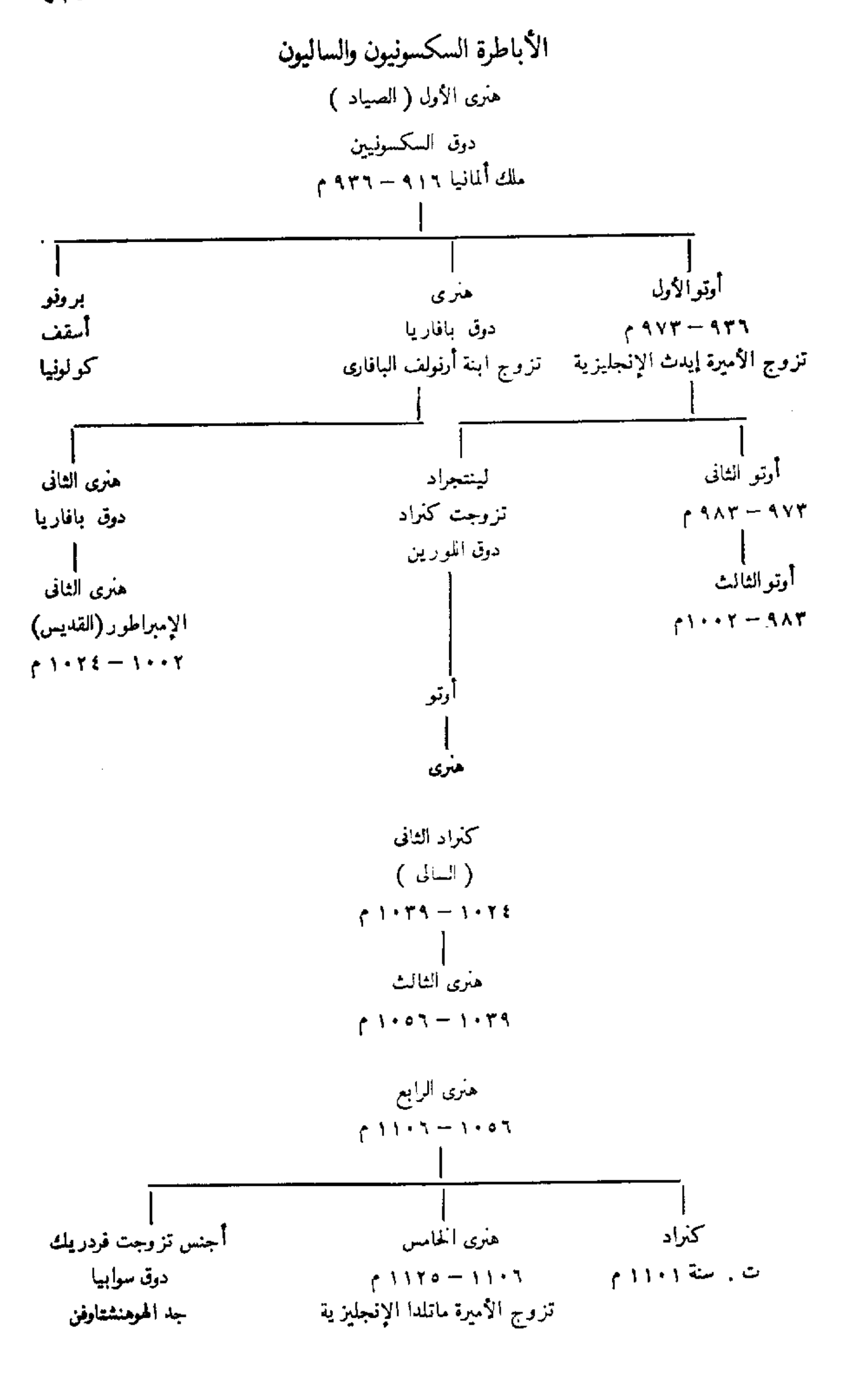


---

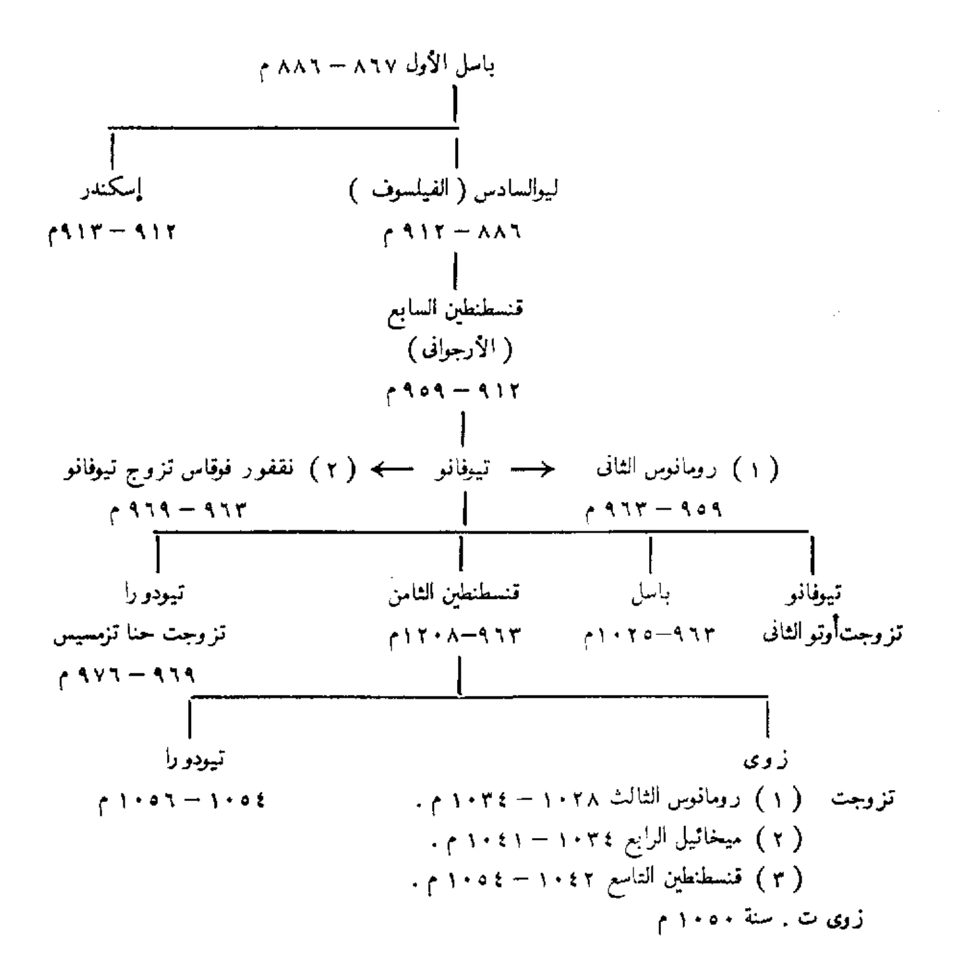
(١) يرمز هذا الحرف «ت» إلى سنة الوفاة فى هذه القوائم .

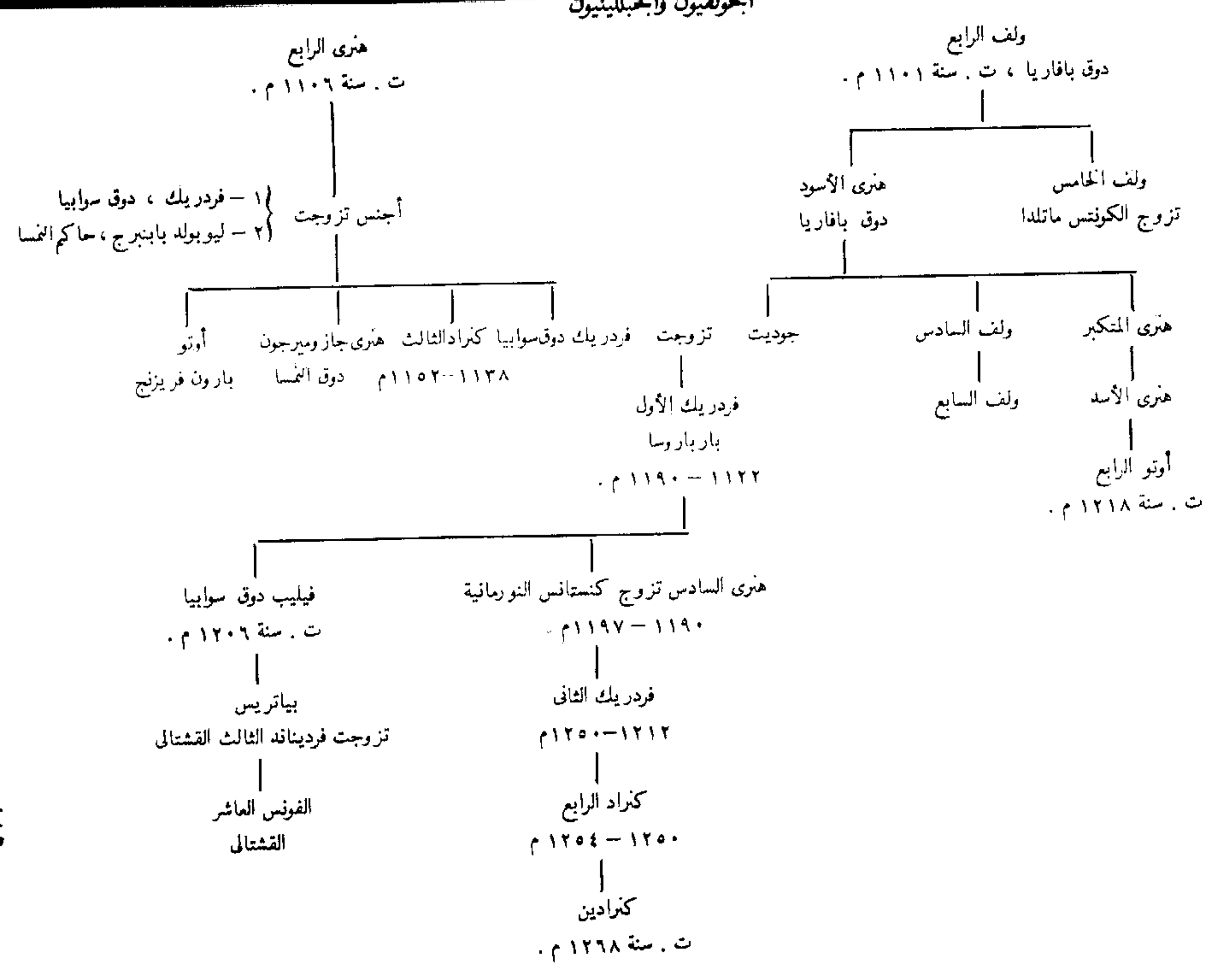
بيت تانكرد هوتفيل النورمانى




الأباطرة السكسونيون والساليون
هنرى الأول (الصياد)
دوق السكسونيين
ملك ألمانيا ٩١٦ – ٩٣٦ م
أوتو الأول
٩٣٦ – ٩٧٣ م
تزوج الأميرة إيدث الإنجليزية
هنرى
دوق بافاريا
تزوج ابنة أرنولف البافارى
برونو
أسقف
كولونيا
أوتو الثانى
٩٧٣ – ٩٨٣ م
أوتو الثالث
٩٨٣ – ١٠٠٢ م
لينتجراد
تزوجت كنراد
دوق اللورين
أوتو
هنرى
هنرى الثانى
دوق بافاريا
هنرى الثانى
الإمبراطور (القديس)
١٠٠٢ – ١٠٢٤ م
كنراد الثانى
(السالى)
١٠٢٤ – ١٠٣٩ م
هنرى الثالث
١٠٣٩ – ١٠٥٦ م
هنرى الرابع
١٠٥٦ – ١١٠٦ م
كنراد
ت . سنة ١١٠١ م
هنرى الخامس
١١٠٦ – ١١٢٥ م
تزوج الأميرة ماتلدا الإنجليزية
أجنس تزوجت فردريك
دوق سوابيا
جد الهوهنشتاوفن

الأباطرة المقدونيون فى الدولة البيزنطية





ولف الرابع
دوق بافاريا ، ت . سنة ١١٠١ م .
ولف الخامس
تزوج الكونتس ماتلدا
هنرى الأسود
دوق بافاريا
هنرى المتكبر
هنرى الأسد
أوتو الرابع
ت . سنة ١٢١٨ م .
ولف السادس
ولف السابع
جوديت
تزوجت
هنرى الرابع
ت . سنة ١١٠٦ م .
أجنس تزوجت
١ – فردريك ، دوق سوابيا
٢ – ليوبولد بابنبرج ، حاكم النمسا
فردريك دوق سوابيا
كنراد الثالث
١١٣٨–١١٥٢م
هنرى جازوميرجون
دوق النمسا
أوتو
بارون فريزنج
فردريك الأول
بار بار وسا
١١٢٢ – ١١٩٠ م .
هنرى السادس تزوج كنستانس النورمانية
١١٩٠ – ١١٩٧م
فردريك الثانى
١٢١٢–١٢٥٠م
كنراد الرابع
١٢٥٠ – ١٢٥٤ م
كنرادين
ت . سنة ١٢٦٨ م .
فيليب دوق سوابيا
ت . سنة ١٢٠٦ م .
بياتريس
تزوجت فرديناند الثالث القشتالى
الفونس العاشر
القشتالى

ملوك فرنسا

٩٨٧ — ١٥٨٩ م

هيو كابيه	٩٨٧ — ٩٩٦م
روبرت	٩٩٦ — ١٠٣١ م
هنرى الأول	١٠٣١ — ١٠٦٠ م
فيليب الأول	١٠٦٠ — ١١٠٨ م
لويس السادس	١١٠٨ — ١١٣٧ م
لويس السابع	١١٣٧ — ١١٨٠ م
فيليب الثانى (أجسطس)	١١٨٠ — ١٢٢٣ م
لويس الثامن	١٢٢٣ — ١٢٢٦ م
لويس التاسع	١٢٢٦ — ١٢٧٠ م
فيليب الثالث	١٢٧٠ — ١٢٨٥ م
فيليب الرابع	١٢٨٥ — ١٣١٤ م
لويس العاشر	١٣١٤ — ١٣١٦ م
فيليب الخامس	١٣١٦ — ١٣٢٢ م
شارل الرابع	١٣٢٢ — ١٣٢٨ م
فيليب السادس (١)	١٣٢٨ — ١٣٥٠ م
حنا	١٣٥٠ — ١٣٦٤ م
شارل الخامس	١٣٦٤ — ١٣٨٠ م
شارل السادس	١٣٨٠ — ١٤٢٢ م
شارل السابع	١٤٢٢ — ١٤٦١ م
لويس الحادى عشر	١٤٦١ — ١٤٨٣ م
شارل الثامن	١٤٨٣ — ١٤٩٨ م
لويس الثانى عشر (٢)	١٤٩٨ — ١٥١٥ م
فرنسوا الأول (٣)	١٥١٥ — ١٥٤٧ م
هنرى الثانى (٤)	١٥٤٧ — ١٥٥٩ م
(٥) فرنسوا الثانى	١٥٥٩ — ١٥٦٠ م
(٥) شارل التاسع	١٥٦٠ — ١٥٧٤ م
(٥) هنرى الثامن	١٥٧٤ — ١٥٨٩ م
(٥) مرجريت تزوجت من هنرى الرابع بن أنطونى دوق بوربون .	

(١) ابن شارل ، كونت فالوا ، وشارل هذا هو الابن الثانى لفيليب الثالث ، أول ملك فى بيت فالوا .

(٢) ابن شارل ، دوق أورليانز ، وزوج جوان أخت شارل الثامن ، وتزوج فيما بعد آن دوقة بريتانى .

(٣) ابن شارل ، دوق أنجوليم ، تزوج كلود ، ابنة لويس الثانى عشر .

(٤) تزوج كاترين دى مدتشى .

(٥) أبناء هنرى الثانى وكاترين دى مدتشى .

ملوك إنجلترا

من سنة ١٠٦٦ — ١٤٨٥ م

وليم الأول الفاتح	١٠٦٦ — ١٠٨٧ م
وليم الثانى	١٠٨٧ — ١١٠٠ م
هنرى الأول (أخو وليم الثانى)	١١٠٠ — ١١٣٥ م
ستيفن [١]	١١٣٥ — ١١٥٤ م
ماتلدا [٢]	
هنرى الثانى [٣]	١١٥٤ — ١١٨٩ م
رتشارد الأول	١١٨٩ — ١١٩٩ م
حنا (أخو رتشارد الأول)	١١٩٩ — ١٢١٦ م
هنرى الثالث	١٢١٦ — ١٢٧٢ م
إدوارد الأول	١٢٧٢ — ١٣٠٧ م
إدوارد الثانى	١٣٠٧ — ١٣٢٧ م
إدوارد الثالث	١٣٢٧—١٣٧٧م
هنرى الرابع [٤] حفيد إدوارد الثالث	١٣٩٩ — ١٤١٣ م
هنرى الخامس	١٤١٣ — ١٤٢٢ م
هنرى السادس	١٤٢٢ — ١٤٦١ م
إدوارد الرابع [٥]	١٤٦١ — ١٤٨٣ م
إدوارد الخامس	١٤٨٣ م
رتشارد الثالث	١٤٨٣ — ١٤٨٥ م

(١) حفيد وليم الفاتح من ابنته أديلا بزواجها من ستيفن كونت بلوا .

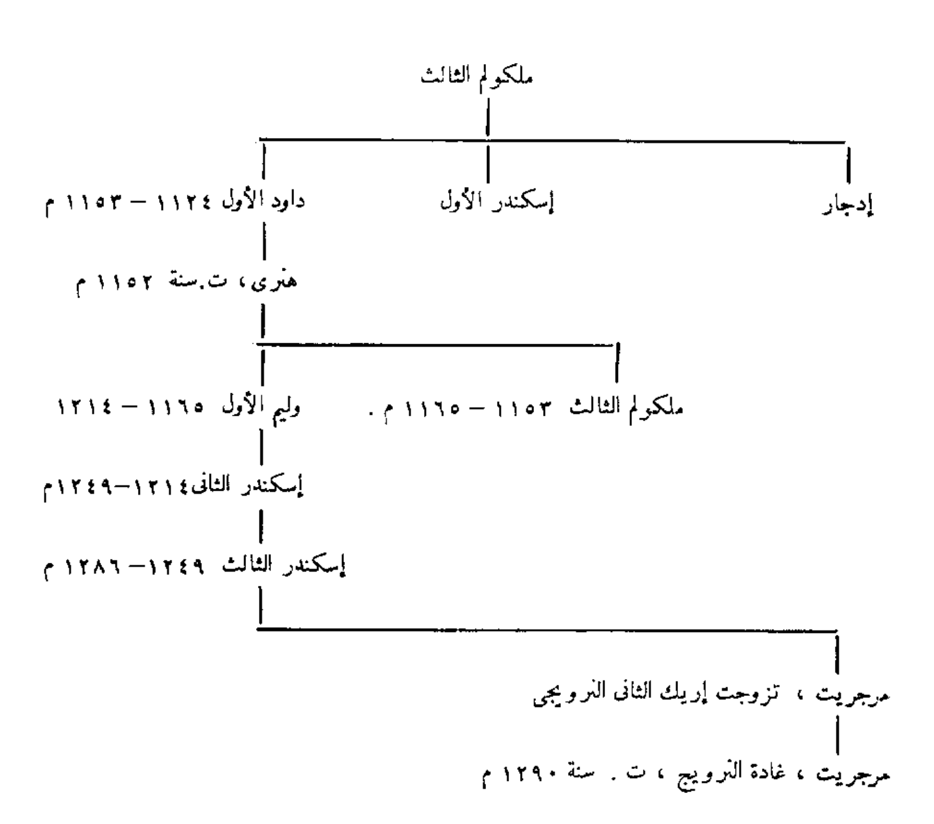
(٢) ابنة هنرى الأول .

(٣) حفيد هنرى الأول من ابنته ماتلدا بزواجها من جفرى بلانتاجنت ، كونت أنجو ، وهو الزوج السابق للأميرة إلينور طليقه لويس السابع ملك فرنسا ووريثة أكويتانيا .

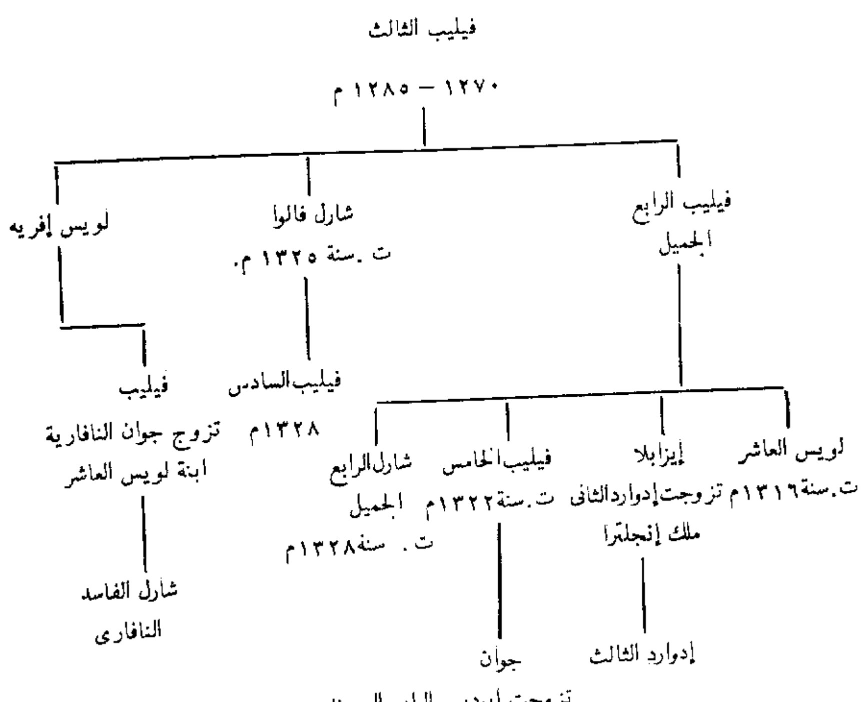
(٤) حفيد إدوارد الثالث من ابنه الثالث حنا جونت .

(٥) حفيد إدموند ، دوق يورك ، الإبن الرابع لإدوارد الثالث .

ملوك اسكتلندا

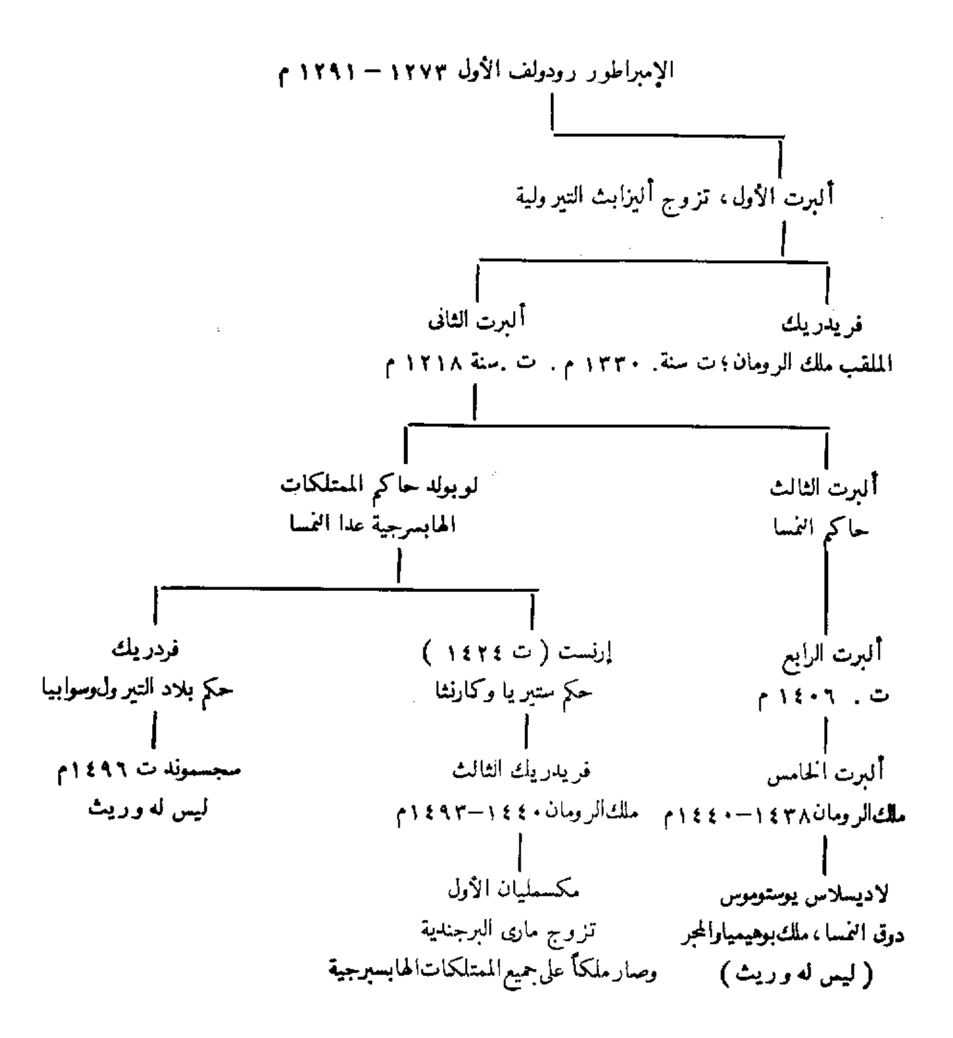


المطالبون بعرش فرنسا سنة ١٣٢٨ م

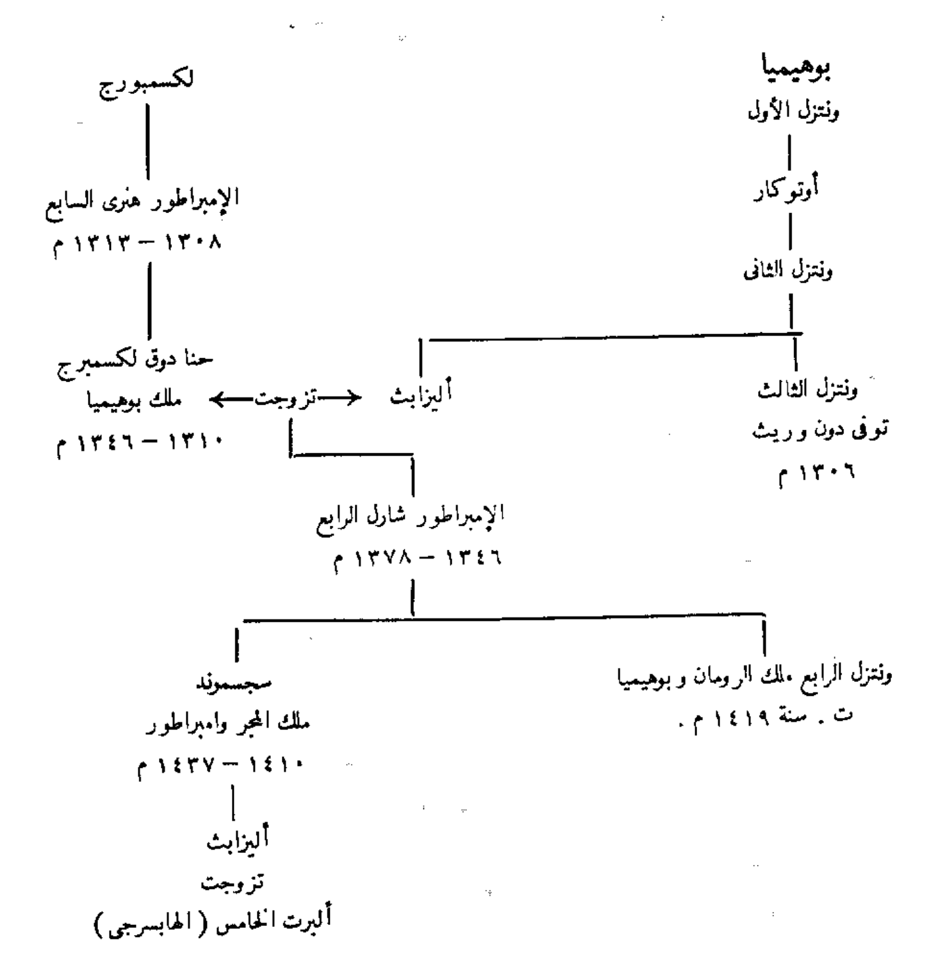


أسرة هابسبرج

١٢٧٣ – ١٥١٩ م



بيت لكسمبورج وعرش بوهيميا



الأباطرة البيزنطيون من ١٠٥٩ إلى ١٤٥٣م

أسرة دوقاس

قنسطنطين العاشر ١٠٥٩–١٠٦٧م
ميخائيل السابع
(تحت وصاية إيودوخيا) ١٠٦٧–١٠٦٨م
دومانوس الرابع
(ديوجينيس) ١٠٦٨–١٠٧١م
ميخائيل السابع ١٠٧١–١٠٧٨م
نقفور الثالث ١٠٧٨–١٠٨١م

أسرة كومنين

ألكسيوس الأول ١٠٨١–١١١٨م
قنسطنطين دوقاس ١٠٨١–١٠٩٠م
حنا الثانى ١٠٩٢–١١١٨م
حنا الثانى ١١١٨–١١٤٣م
مانويل الأول ١١٤٣–١١٨٠م
ألكسيوس الثانى ١١٧٢–١١٨٠م
ألكسيوس الثانى ١١٨٠–١١٨٣م
أندرونيكوس الأول ١١٨٣–١١٨٥م

أسرة أنجيلوس

إسحاق الثانى ١١٨٥–١١٩٥م
ألكسيوس الثالث ١١٩٥–١٢٠٣م
ألكسيوس الرابع ١٢٠٣–١٢٠٤م
ألكسيوس الخامس ١٢٠٤م

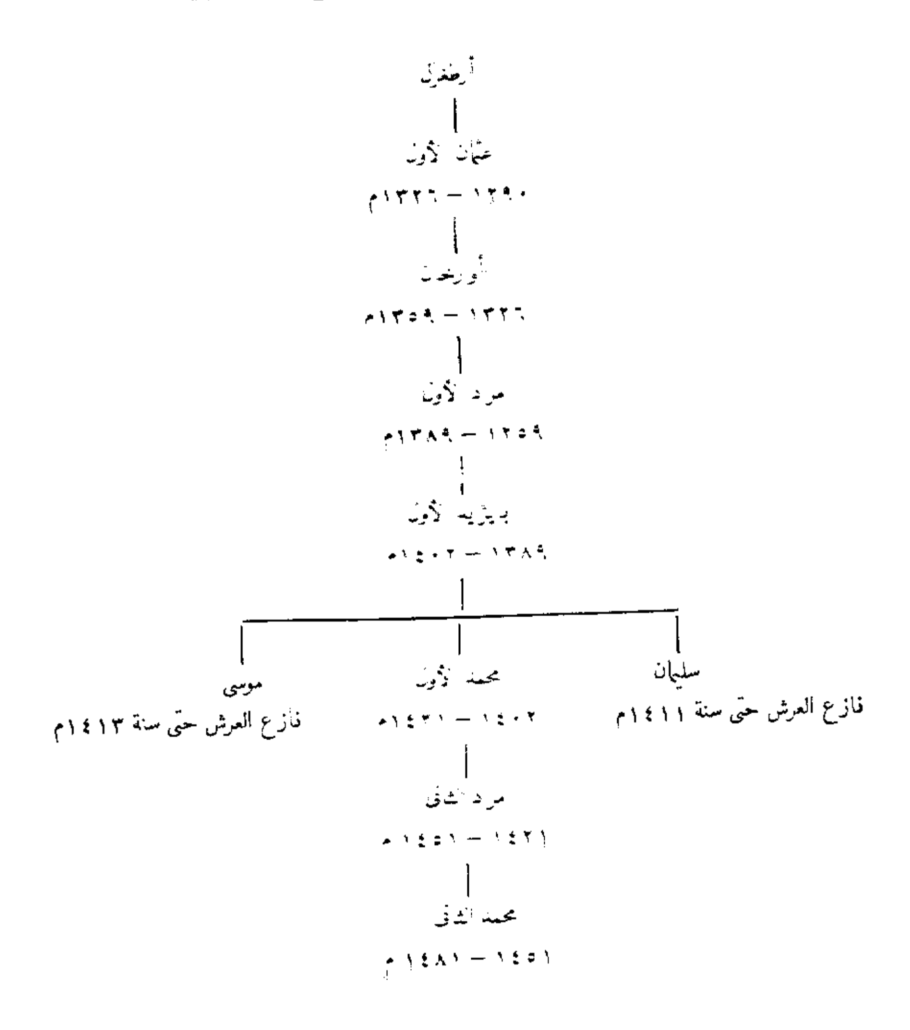
أسرة الأشاكرة

(أو إمبراطورية نيقية) ١٢٠٤–١٢٦١م
تيودور الأول ١٢٠٤–١٢٢٢م
حنا الثالث ١٢٢٢–١٢٥٤م
تيودور الثانى ١٢٥٤–١٢٥٨م
حنا الرابع ١٢٥٨م

أسرة باليولوج

ميخائيل الثامن ١٢٥٨–١٢٨٢م
أندرونيكوس الثانى ١٢٨٢–١٣٢٨م
أندرونيكوس الثالث ١٣٢٨–١٣٥١م
حنا الخامس
(تحت وصاية آن أميرة سافوى) ١٣٤١–١٣٤٧م
حنا السادس
(كانتاكوزين) ١٣٤٧–١٣٥٥م
حنا الخامس (مرة أخرى) ١٣٥٥–١٣٧٦م
أندرونيكوس الرابع ١٣٧٦–١٣٧٩م
حنا الخامس ١٣٧٩–١٣٩٠م
أندرونيكوس الرابع ١٣٧٩–١٣٨٥م
مانويل الثانى ١٣٨٦–١٣٩١م
حنا السابع ١٣٩٠م
حنا الخامس (مرة أخرى) ١٣٩٠–١٣٩١م
مانويل الثانى ١٣٩١–١٤٢٥م
حنا الثامن ١٤٢٥–١٤٤٨م
قنسطنطين الحادى عشر ١٤٤٨–١٤٥٣م

السلاطين العثمانيون حتى الاستيلاء على القسطنطينية



فهـــرس عام

(ا)

أبيلارد : ٣١٥ .
آتالوس : ٢٧ .
اتفاقية بورج : ٣٨٠ .
أتو الأول (إمبراطور) : ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .
أتو الرابع (إمبراطور) : ٢٤٩
أتو وتلسباخ : ٢٠٢ .
آتولف : ٢٧ ، ٣٣ .
أتيلا : ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .
إتيوس : ٢٩ .
إثلبرت : ٤٠ ، ١١٩ .
إثلرد : ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ .
أثناسيوس : ١٠٦ ، ١١٠ .
أثينا : ٢٣ ، ٤٤٢ .
أجاثياس : ٥٦ .
أجنكورت : ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ .
أخيلوس : ١٢ ، ٢٧٣ .
أدالبرت : ١٥٨ .
أدرنة : ٢٢ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ .
إدموند : ٢٩٨ .
إدوارد (الأمير الأسود) : ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ .
إدواردالأول (ملك إنجلترا) : ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١١ .
إدوارد الثانى (ملك إنجلترا) : ٣٢٩ .
إدوارد الثالث (ملك إنجلترا) : ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٦٤ .
إدوارد بروس : ٣١١ .
الإدوارديين : ٣٢٢ .
أدوآكر : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٨ .
أراس (معاهدة) : ٣٣٢ .
إربان الثانى : ١٧٤ ، ١٧٨ .
إربان الرابع : ٢٦٠ .
إربان السادس : ٣٥٩ .
أرتوا : ٢٨٥ .
أرجونة : ٣٦٠ ، ٣٩٤ .
الأرسطاليين : ٢٦٨ .
أرسطو : ١٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
الأرك (وقعة) : ٣٩١ .
أركاديوس : ٢٣ .
آرل : ٩ ، ٧٦ .
أرماخ : ٩٠ .
لأرمنياك : ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ .
أرموريكا : ٣٠ .
آرنولد البريشى : ١٩٨ .
آرنولف : ٧٥ ، ١٠٠ .
الأريوسية : ٩ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧١ ، ٨١ .
السااليون : ٣١٥ .
أسامة بن منقذ : ١٨٥ .
إسبانيا : ٣١٩ ، ٣٨٥ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ .
الإسبتارية : ١٨٣ ، ٢٩٤ ، ٤٤١ .
الإستوارتيون : ٣٠٨ .
اسكتلندا : ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣٤٦ ، ٣٦٠ .
الاسكتلنديون : ٢٥ ، ٣٧ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ١٦٤ .
إسكندر الثالث : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٨٦ .
إسكندر نفسكى : ٤١١ .
الإسكندرية : ٩ ، ١٨ ، ١٠٤ .
اسكنديناوة : ١٦ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٧٨ ، ٢٢٦ .
الإسلام (والمسلمون) : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٥٨ .
آسيا الصغرى : ٣١٩ .
أشبيلية : ٣٩٢ .
الإصلاح الديني : ٢٩٣ .
الأفار : ٤٤ ، ٥٢ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٢ .
أفلاطون : ١٢ .
أفينيون : ٧٦ ، ٢٠٤ ، ٢٦٤ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٨٢ .
إقريطش : ١٧١ ، ١٧٨ .
أقطانية : ١٧ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٧٤ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٩ ، ١٥٧ ، ٢٨٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .
إكارت : ٣٦١ .
أكسفورد : ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .
أكيايولى (أسرة) : ٤٣٢ .
ألارك : ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٥ .
ألب أرسلان : ١٧٢ .
ألبرت الأول هابسبرج : ٣٥٢ .
ألبرت الخامس (هابسبرج) : ٣٥٢،٣٥٣
ألبرت الكولونى العظيم : ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
البرك (راهب مونت كاسينو) : ٢٧٢ .
آل آلبيتزى : ٤٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ .
الألبيجنسيون : ٢٨٨ .
إلجريكو المصور اليونانى : ٣٩٦ .
ألفونس الرابع (ملك قشتالة) : ٣٨٨ .
ألفونس السادس (ملك قشتالة) : ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ .
ألفونسو هنريك : ٣٨٩ .
ألكسيوس أنجيلوس (إمبراطور) : ٢٤٤ ، ٣٤٦ .
ألكسيوس كومنين (إمبراطور) : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ .
ألكوين : ٩٠ .
اللاتران : ٢٩٦ .
ألمانيا : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٤٦ .
الألمانى : ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ١٠٠ .
الألمان : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٨٧ ، ٣١٥ .
أمالاثونسا : ٤٧ .
آمورى الأول : ١٨٦ .
أميان : ٢٨٥ .
إنجلترا : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٦٧ ، ٤٣٧ .
الإنجليز : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،

٢٩٥ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٤٦٤ .
الأنجلو – سكسونيين : ٢٩٥ .
آنجو : ٢٨٦ ، ٣١٥ .
أنجوليم : ٢٨٨ .
أندرونيق الثانى (إمبراطور) : ٤٤٢ .
أندرى بوجوليوسكى سوزدال : ٤٠٦ .
أنريكو داندولو : ٢٤٤ .
أنسطاسى : ٤٥ ، ٥٥ .
آنسلم : ١٦٢ ، ١٦٥ .
أنطاكية : ٥١ ، ١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .
أنقرة : ٤٥٠ .
إنوسنت الثالث (بابا) : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
إنوسنت الرابع (بابا) : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ .
أنو شروان : ٤٦ .
إينياس سيلفيوس : ٣٥٣ .
أوتوكار : ٣٤٣ .
أوجسطس (الإمبراطور) : ٢٧٥ .
أوجسطين (القديس) : ١١ ، ١٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٨ .
أوجز برج : ١٩٥ ، ٢٢٤ ، ٣٤٦ .
أوجطاى (الخاقان) : ٤٠٨ ، ٤١٠ .
أوجولينو دى فيفالدو : ٤٦٣ .
أورخان (التركى) : ٤٤٤ ، ٤٤٥ .
أورليان : ١٧ ، ٣٢ ، ٣٣٣ .
الأورليانيين : ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ .
أوستراسيا : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .
أوفرن : ٢٨٦ .
أوفيد : ١٢ .
أوجيرود : ٤١٤ .
أوليفلا : ١٧ .
أوليفر كرمويل : ٢٨٣ .
أوين جلندور : ٣٠٦ ، ٣٣٠ .
آيا صوفيا : ٥٣ ، ٥٤ ، ٤٠٤ ، ٤٥٧ .
أيرلندا : ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ .
إيزابلا : ٣١٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ .
إيزوب : ٦ .
إيستولف : ٨٢ .
إيطاليا : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٣١٩ ، ٣٤٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٦١ .
إيفان الأكبر : ٤١٧ .
إيفان كاليتا – (إيفان أبو الذهب) : ٤١٢ ، ٤١٣ .
إيلليريا : ١ ، ٤ ، ٩ ، ١٧ ، ٤٥ .
أيونا (جزيرة) : ٩٠ .

(ب)

البابوية : ٢٦٨ .
باتاى (وقعة) : ٣٣٣ .
باترك (قديس) : ٣٠٩ .
بادوا : ٤٢٩ .
باريس : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٢٨ ، ١٥٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ .
الباستوروه : ٢٩٢ .
باسل الثانى (إمبراطور) : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٤٠٤ .
الباستيل : ٣٢٨ .
بافاريا : ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٣٤٤ .
بافيا : ٢٠٠ ، ٢٢٣ .
بالرمو : ١٤٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
بانوكبرن (وقعة) : ٣٠٨
بايزيد الأول (يلدرم) : ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
بترارك : ٨٨ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٤٣٥ .
براج : ٣٤٤ ، ٣٧٠ .
البراجيرى : ٣٣٦ .

البراطنة : ١٣٦ .
البرانس (جبال) : ٢٨٦ .
البربر (سكان شمال إفريقيا) : ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥
برتران دى جوسكلان : ٣٢٥ .
البرتغال : ٣٩٤ ، ٤٦١ .
البرجنديون : ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٩ ، ٧٤ .
برجنديا : ٢٨٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
برشلونة : ٩٣ ، ٢٨٥ ، ٣٨٧ .
برقة : ٢٣ .
البرلمانات : ٢٩٠ .
برنارد (القديس) : ١٨٥ ، ٢١٣ ، ٣١٥ .
بروبوس : ١٧ .
بروج : ٢٨٣ ، ٣١٤ .
بروسيا : ١٥٣ ، ٣٤٦ .
بروفانس : ٢٣٤ ، ٤٣٧ .
بروكوبيوس الكبير (القس) : ٥٣ ، ٣٧٥
البريتون : ٢٩ .
البريتونيون : ٣٨ .
بريطانيا : ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٧ .
بستويا : ٢٧١ .
بشت : ٤٠٨ .
بطرس (ملك قشتالة) : ٣٩٥ .
بطرس أبيلارد : ٢١٣ .
بطرس دايى : ٣٦٠ .
بطرس كوشون : ٣٣٤ .
بطرس (القديس) : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .
بطرس الناسك : ١٧٩ .
بطلميوس : ٢٧١ .
بغداد : ٨٧ ، ٩٥ ، ٣٩٥ .
البكتيون : ٢٥ ، ٣٧ .
بلاد الأفلاخ : ٤٥٢ .
البلغار : ٤٤ ، ٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٨ .
البلقان : ١ ، ٩ ، ١٧ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٧ ، ٩١ ، ١٣٠ ، ١٨٠ .
بلنسية : ٣٨٩ .
بليز (القديس) : ٢٠٣ .
بليزاريوس : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ .
بمبروك : ٣٣٧ .
البندقية : ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٣ .
بندكت (القديس) : ١١٠ ، ١١١ .
بندكت (بابا) : ٣٢٧ .
بؤثيشيوس : ٣٥ .
بواتييه (وقعه) : ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ .
الموت الأسود (الطاعون الدملى) : ٣١٨ .
بوردو : ٢٨٤ ، ٣٢٣ .
بوزورث (وقعة) : ٣٠٦ .
بوفين (وقعة) : ٢٨٧ .
بوكاشيو : ٢٧٣ ، ٣٥٦ .
بولدون : ١٧٩ ، ١٨٦ .
بولص (القديس) : ٨٠ ، ٨٥ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .
بولندا : ٣٢٠ ، ٤٥٢
بولونيا : ٥٤ ، ٢٨٥ .
بونيفاس (ونفرث) – رسول المسيحية إلى ألمانيا : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ .
بونيفاس الثامن (بابا) : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ .
بونيفاس مونتفرات : ٢٤٥ .
بوهمند : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ .
بوهيميا : ٩٥ ، ٣٤٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ،

٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ،
٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٤٥١ .
بياتريس : ٢٧١ ، ٢٧٣ .
بيبن : ٧٥ .
بيبن الثانى : ٧٦ .
بيبن القصير : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ .
البيت الباليولوجى : ٤٣٩ .
بيت البريمسليديين : ٣٦٨ .
بيت كابيه : ٢٩٢ .
بيت المقدس : ٧٨ ، ١٠٤ ، ١٧٤ ،
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٨٨ .
بيده : ٧٧ ، ٧٩ .
بيروجيا : ٣٦١ .
بيزا : ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٢٣ ،
٢٤٥ .
بيزانسون (مجمع) : ١٩٩ .
بيزنطة : ١ ، ١٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٠ ،
٧٥ .
بيوس الثانى (بابا) : ٣٤٦ .

(ت)

تاكيتوس : ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٩
تانكرد : ١٧٩ .
تاوداسيوس (الأول) : ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٥ ،
٣٣ .
التاى (ضريبة) : ٣٣٤ .
التتار : ٤٠٨ ، ٤١٠ .
تجارة : ٥ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٢٢١ ،
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ .
تراجان : ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ .
تراقيا : ٢٢ ، ٢٣ ، ١٨٠ .
ترانسلفانيا : ٢١ .
تركستان : ١٧٢ .
تروا : ٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ .
التروبادور : ٢٣٤ ، ٢٥٥ .
تريف : ٣ .
تريفز : ٢٥ .
تسكانيا : ٤٣٥ .
التشك : ٩٥ .
تشلبرك : ٧٢ .
تشلدبرت الثانى : ٧١ .
تشوسر : ٣٣٧ .
تشيان — المصور الإيطالى : ٣٩٦ .
تشيوجيا (وقعة) : ٤٦٣ .
تشيومبى : ٤٣٣ .
تعليم : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ .
تل أوسّى (أو تل طابور) : ٣٧٣ .
توتيلا : ٤٨ ، ٤٩ .
تورين : ٢٨٧ .
تولوز : ٢٨٥ .
توماس (القديس أكويناس) : ١٢ ، ٢٣٩ ،
٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ .
توماس بكت (رئيس أساقفة كانتبرى) : ٢٨٧
تونس : ٢٩٢ .
تيرنس : ١٢ .
التيرول : ٣٤ .
التيمز (نهر) : ٣٢٦ .
تيمورلنك : ٤١٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
التيوتون : ٣٤٤ .
تيودور لاسكاريس (إمبراطور) : ٢٤٧ .
تيودورا : ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٦ .
التيردوريون : ٣١١ .

(ث)

ثيودوريك : ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠ .
الثورة الفرنسية : ٣٣٨ .

(ج)

الجابل : ٣٣٨ .
جارو : ٩٠ .
الجاكيرى (ثورة) : ٣٢٤ .
جالا بلاسيديا : ٢٧ .
جالاطا (ضاحية بالقسطنطينية) : ٤٤٢ ، ٤٥٦ .
جالياتزو فسكونتى : ٣١٧ .
جاليبولى (حصن) : ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧
جاليليو : ٨٨ .
جامعة أكسفورد : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٣٠٦ ، ٣٦٢ .
جامعة أورليان : ٢١٤ .
جامعة باريس : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٦٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٦٠ .
جامعة براج : ٣٧١ .
جامعة بولونيا : ١٩٩ ، ٢١٢ .
جامعة سالرنو : ٢١٠ .
جامعة كمبردج : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٣٣٧ .
جامعة ليبزج : ٣٧١ .
جامعة مونبلييه : ٢١٤ .
جامعة نابولى : ٢٥٥ .
جان بورو : ٣٣٤ .
جان دارك : ٣٣٣ ، ٣٣٤ .
جان كير : ٣٣٤ .
جاى لوزجنان : ١٨٨ .
الجبلينيون : ٢٧١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢ .
الجبيداى : ٥٢ .
الجرمان : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٣ ، ١٠٩
جريجورى الثالث : ٨٠ ، ٧١ ، ٨٢ .
جريجورى السابع : ٤٣٢ .
جريجورى الحادى عشر (بابا) : ٣٥٩ .
جريجورى التورى : ٧٢ ، ١٠٩ .
جزر كناريا (الخالدات) : ٤٦٤
جزريك : ٣٠
جستاف أدلفوس : ١٧٨ .
جستنيان : ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٣٠٠ ، ٤٣٦ .
جستين الأول : ٣٥ ، ٤٥ .
جسقونيا : ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣٢ .
جنت : ٣١٤ .
جند بود : ٢٨ .
جنكيز خان : ٤٠٨ ، ٤١٠ .
جنوة : ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٩ ، ٤٥٦ ، ٤٦٣ .
الجوت : ٣٨ ، ٣٩ .
جود فرى بويون : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ .
جوديمين : ٤١٤ .
جورج كاستريوتس : ٤٥٣ .
جوفنال : ١٧٥ .
الجولفيون : ٢٧١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢ .
جون هوكورد : ٤٢٧ .
جويين : ٢٨٦ .
جيان جالياتزو فسكونتى : ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ .
جيرالد الكامبرنسى : ٣٠٥ .
جيمس الأول (ملك أرجونة) : ٣٩٢ .
جيين : ٢٩٢ .

(ح)

حرب المائة عام : ٢٦٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٦،
٣٦٨ .
حرب الوردتين : ٣٠٦ ، ٣٤٠ .
حركة الأحياء الأنجيلى : ٢٣٤ .
الحركة اللولاردية : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
حروب إيجور (قصة) : ٤٠٧ .
الحروب الصليبية : ٣٨٩ ، ٤٦٠ .
الحروب الهسية : ٣٧١ ، ٣٧٦ .
حطين : ١٨٧ ، ٣٩١ .
الحكومة الإنجليزية : ٢٩٠ .
حلب : ١٨٥ ، ١٨٦ .
حنا (ملك إنجلترا) : ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ .
حنا (ملك فرنسا) : ٣١٧
حنا ابلين : ١٨٣ .
حنا باليول : ٣٠٨ .
حنا تاولر : ٣٦١ .
حنا تزسكا : ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
حنا الثانى : ٣٢٣ ، ٣٣٩ .
حنا الثانى عشر (بابا) : ١٣٧ .
حنا جرسون : ٣٦٠ .
حنا جونت (عميد اللانكستريين) : ٣٦٣،
٣٦٤ .
حنا شميشق (إمبراطور) : ١٧٠ ، ١٧١،
٤٠٧ .
حنا فم الذهب : ١٠٥ .
حنا الكريم (ملك فرنسا) : ٣٢٣ ، ٣٢٦
حنا المقدام : ٣٢٧ ، ٣٣١ .
حنا منتفرت : ٣١٨ .
حنا هس : ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨
حنا هنيادى : ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

(خ)

خانات المغول : ٤٦٢ .
خراسان : ١٧٢ .
خرسون : ٤٠٤ ، ٤٠٥ .
خلقدونيا : ٥٥ ، ٥٦ .

(د)

داسيا : ٢١ ، ٢٢ .
دافيد الأول : ٣٠٦ .
دافيد بروس : ٣١٧ .
دالماشيا : ٢ ، ٣٤ ، ٩٢ ، ١٧٤ .
دانتى : ٨٣ ، ٢٥٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨،
٢٨٠ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٥٦،
٣٦٨ ، ٤٢٢ ، ٤٣٢ .
الدانوب : ١٦ ، ٢٢ ، ٩١ ، ١٣٦ ،
١٥٢ ، ١٧٤ .
الدانيون : ٤٠ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١١٦ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٣٠٦ .
الداوية : ١٨٥ ، ٢٩٤ .
ديروجه : ٤٢٨ .
دقلديانوس : ١ — ٤ ، ١٠ ، ١١ .
دلاسكالا : ٤٢٢ .
دمشق : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٣٩٥ .
دمياط : ١٨٦
دنس : ٣٥٧ .
دودة القز : ٤٦١ .
دورازو : ١٨١
دورستشر (مقاطعة) : ٣١٩ .
دوقية ليتوانيا : ٤١٥ .
الدولة الرومانية المقدسة : ٣٤٥ .
الدولة المسكوفية : ٤١١ ، ٤١٣ .
دورمى : ٣٣٣ .
دومنيك القشتالى (القديس) : ٢٣٤ ، ٢٣٧
٢٣٨ ، ٢٣٩ .
الدوناتيون : ٩ .
دير بريمنتريه : ٢١٦ .

دير بوبيو : ٢١٨ .
ديربيك : ٢١٨ .
دير ريخنا : ٢١٨ .
دير سانت البانز : ٢١٨ .
دير سانت جال : ٢١٨ .
دير سيتو : ٢١٦ .
دير شارترو : ٢١٦ .
دير شارو : ٢١٨ .
دير فولدا : ٢١٨ .
دير كلونى : ١٤٣ ، ٢١٦ .
دير كورفيه : ١٢٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ .
دير مونت سان ميشيل : ٢١٨ .
دير مونت كاسينو : ١١٠ ، ٢١٨ .
دير وستمنستر : ٢٩٨ .
ديمترى دونسكوى : ٤١٦ .

(ر)

راجوزة : ٤٥٦ .
رافنا : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ١٤٧ ، ١٧١
رايموند : ١٧٩ .
الراين : ٣ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٩١ ، ٩٨ .
رتشارد الثانى : ٣١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٦٦ .
رتشارد الثالث : ٣٢٣ .
رتشارد دى كلير : ٣١٠ .
رتشارد قلب الأسد : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ٢٨٥ .
رتشارد كورنوال : ٢٦٢ .
رجار : ١٣٠ ، ١٣١ .
رجار دى فلور (قرصان ألمانى) : ٤٤١ .
ابن رشد : ٣٥٧ ، ٣٩١ .
رمانية : ٣٤٣ .
روان : ٢٨٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ .
روبرت بروس : ٣٠٨ .
روبرت دى سوربون : ٢١٦ .
روبرت كليف : ٢٢٨ .
روتسى : ٤٠٢ .
روجر بيكون : ٢٣٩ ، ٣٥٧ .
الروجيون — من الجرمان الشرقيين : ٣٢ .
رودس : ٤٤١ .
رودلف هابسبرج : ٢٦٢ ، ٣٤٣ .
رورك : ١١٥ ، ٤٠٢ .
روسيا : ٤٥ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٧٥ ، ٢٢٧ ، ٣٤٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١١ .
روسيا اللتوانية — أو روسيا الصغرى : ٤١٥ .
رولان : ٩٣ ، ١٢٧ .
روما : ٣ ، ٩ ، ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨٢ .
رومانوس ديوجينس (إمبراطور) : ١٧٣ .
روميلوس أوغسطيلوس : ٣٢ ، ٣٣ .
رونساليا (مجمع) : ١٩٨ ، ١٩٩ .
الرها : ١٧٤ ، ١٨٣ ، ١٨٥ .
ريمس : ٣٢٣ ، ٣٣٢ .
ريمى : ٣٣٢ ، ٣٣٣ .
رينى (إمبراطورة) : ٨٧ .

(ز)

الزلاقة (معركة) : ٣٩٠ .
زنكى : ١٨٥ .
زينون : ٣٣ .

(س)

سالونيك : ١٨٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٧ .
سانت شابيل : ٣٣٧ .
ستاتيوس : ٢٧١ .
ستايخو : ٢٣ .
ستيفن (ملك إنجلترا) : ٢٨٤ .
ستيفن (بابا) : ٨٢ .
ستيفن دوشان (زعيم الصربيين) : ٤٤٦، ٤٤٧
ستيفن لانجتن : ٢٩٧ .
سجسموند (ملك المجر) : ٣٧٣ ، ٣٨١ .
سراى : ٤١٠ ، ٤١٢ .
سردقة (صوفيا) : ١٠٦ .
سرميوم : ٣ .
سكسونيا : ٣٤٤ .
السكسون : ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١١٦ ، ١٢٥
السكسونيون : ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ .
السكندناويون : ٤٠٢ .
السلاجقة : ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ٢٤٧ .
السلافيون : ٩٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
سلستين الثالث (بابا) : ٢٠٥ .
سلستين الخامس : ٣٦١ .
سلفستر (بابا) : ٨٣ .
سلويز : ٣١٨ .
سليمان (ولى عهد أورخان) : ٤٤٧ .
سمرقند : ٤٥٠ .
سوابيا : ٣٤٤ .
سواسون : ٣٥ ، ٨٢ .
سوجيه (راهب) : ٢٨٥ .
سوزدال : ٤٤١ .
السويديون : ١١٥ ، ١١٦ ، ٢٢٨، ٢٢٩
سويسرا : ٣٥٢ .
السويسريون : ٣٤٨ .
السويڤ : ٢٤ ، ٢٩ .
سوين : ١٢٣ .
سياجريوس : ٣٥ .
سيجر البارابانتى : ٢٦٨ ، ٢٧٩ .
السيد القمبيطور (رودريجو دى بيفار) : ٣٨٨ .
سيدونيوس أبوليناريس : ٧٢ .
سيمون دى مونتفرت : ٢٨٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .
سينسيوس : ٢٣ .

(ش)

شارل (ملك نافار) : ٣٢٤ .
شارل الأصلع : ٩٨ ، ٩٩ .
شارل أنجو : ٢٦٠ ، ٢٧٦ ، ٤٣٦ .
شارل الأول (ملك إنجلترا) : ٢٩٨ .
شارل الثالث (أمير دورازو) : ٤٣٧ .
شارل الرابع (ملك فرنسا) : ٣١٥ .
شارل الرابع (ملك بوهيميا) : ٣٤٥، ٣٨٦، ٣٦٩ .
شارل الخامس (ملك فرنسا) : ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ .
شارل السادس (ملك فرنسا) : ٣٢٦ ، ٣٢٧، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٦٠ .
شارل السابع (ملك فرنسا) : ٣٣٤ ، ٣٣٦ .
شارل الثامن (ملك فرنسا) : ٣٦٠ .
شارل بلوا : ٣١٨ .
شارل روبرت الأول (ملك المجر) : ٤٥١ .
شارل السمين : ١٠٠ .
شارل مارتل : ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ .
شارلمان : ٣٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٣، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
١٤١ ، ١٥٢ ، ٢٣٣ .
الشام : ٢٩٣ .
شامبانيا : ٢٨٨ .
شروزبرى : ٣٣٠ .
شفتر : ٣٤٨ .
الشفيوت (جبال) : ٢٨٦ .
شكسبير : ٣٣٤ .
الشهاليون : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
١٥٨ .
شنتياجو : ٣٨٧ .
شيشرون : ١٣ ، ٧٨ .

(ص)

الصقالبة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٧ ، ٧٤ ،
١٠٠ ، ١١٥ .
صقلية : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ١٠٠ ،
١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٦٥ ،
١٧٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ،
٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ .
صلاح الدين : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ٢٤٥ .
صلح سيزجدن : ٤٥٣ .
صلح لودى : ٤٢٧ .
الصور المقدسة : ٢٦٩ .
الصين : ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(ط)

الطاعون : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ .
طرابلس : ١٨٣ .
طغرل بك : ١٧٢ .
طليطلة : ١٧٨ ، ٣٨٩ .

(ع)

العادل (السلطان) : ٢٤٤ ، ٢٥٦ .
عبد الرحمن الأموى (قرطبة) : ٨٧ .
عبد الرحمن الثالث : ٣٨٧ .
عبد الرحمن الغافقى : ٦٦ ، ٧٦ .
عثمان (التركى) : ٤٤٤ .
العثمانيون : ٤٥ ، ١٧٧ .
العرب : ٤٤ ، ٧٤ ، ١٩٠ ، ٣٨٥ ،
٣٨٧ .
العشاء الربانى : ٢٧٠ .
العصبة السوابية : ٣٥٠ ، ٣٥٢ .
عصبة المدن الهنسية : ٢٢٥ ،
عكا : ١٨٧ ، ١٨٨ .
العقاب (وقعة) : ٣٩١ .
عمر الخيام : ١٨٨ .
العهد الأعظم : ٢٩٥ ، ٢٩٧ .

(غ)

غالة : ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
غاليا : ٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩١ ، ٩٢ ،
٩٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٣١٣ .
الغاليون : ٣٠٥ .
غسقونيا : ١٥٧ ، ٢٢٦ .
الغسقونيون : ١٣٦ .
غرناطة : ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ .
غنت : ٢٢٤ .

(ف)

الفانجيون (أى الأحلاف) : ٤٠٢ .
فاشينو كانى : ٤٢٦ ، ٤٢٧ .
فارنا : ٤٥٤ .
فالنتينا فيسكونتى : ٣٢٧ ، ٣٦٠ .
فالنز : ٢٢ .
فالنشنيان : ٣٢ .
فتزجرالد : ١٨٨ .
فراران (مجمع) : ١٧٧ .
فرجيل : ١٣ ، ٧٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
فردان : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .
فردريك بارباروسا : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٨٦ ، ٣٦٨ .
فردريك (الثانى) : ٢٧٦ ، ٢٩٣ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ .
فردريك الثالث : ٣٥٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٣
فردريك هوهنشتاوفن (إمبراطور) : ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
فرديناند : ٣٨٥ .
الفرس : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ .
الفرسان الداوية : ٢٩٣ .
فرماندوا : ٢٨٧ .
فرنتشسكو سفورزا : ٤٣٠ ، ٤٣١ .
فرنتشسكو كارمانيولا : ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
الفرنجة : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٥ ، ١٣٥ .
فرنسا : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٠ ، ٤٣٧ .
الإخوان الفرنسسكانيون : ٣٦١ ، ٣٦٣ .
فرنسيس (القديس) : ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ .
الفرنكيون : ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٩٣ .
فرواسار : ٣٥٦ ، ٣٦٨ .
فريزيا : ٧٨ ، ١١٧ .
الفريزيون : ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ .
فسكونتى (أسرة) : ٤٢٥ .
فكتور الرابع (بابا) : ٢٠٠ ، ٢٠١ .
فكتوريا : ٥١ .
فلاديمير : ٤٠٣ ، ٤٠٤ .
فلاسكويز — المصور الأسبانى : ٣٩٧ .
فلاندرز : ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ ، ٣٢٩ ، ٤٦١ .
فلسطين : ٧٢ ، ١٨٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
فلمنكييون : ٣٢٧ .
فلوا : ٣٣٣ .
فلورنسا : ٢٢٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٨٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ .
فورمز : ٢٥ .
فورمينى (وقعة) : ٣١٦ .
فوسكارى : ٤٣٠ .
فيرونا : ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

الفيكنج : ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .
فيلكس الخامس (بابا) : ٣٨٠ ، ٣٨٢ .
فيليب أغسطس : ١٨٧ ، ٢٤٤ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ .
فيليب الثانى (ملك فرنسا) : ٢٨٧ .
فيليب الرابع (ملك فرنسا) : ٣٣٦ .
فيليب الخامس (ملك فرنسا) : ٣١٥ .
فيليب السادس (ملك فرنسا) ٣١٨ .
فيليب الجسور : ٣٢٧ .
فيليب الجميل : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣١٧ .
فيليب الطيب : ٣٣١ ، ٣٣٢ .
فيليب فلوا : ٣١٥ .
فيليبو ماريا فسكونتى : ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ .
فينا : ١٤٠ ، ١٥٢ ، ٣٥٣ .

(ق)

القاهرة : ٦٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٣٩٥ .
القبائل السيثية : ٤٠١ .
القبيلة الذهبية : ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٣ .
قرطاجنة : ٣٠ ، ٤٧ .
قرطبة : ٨٧ ، ٩٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ .
قسطنطين (الكبير) : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦-١١ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٨٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ .
قسطنطين الحادى عشر (آخر الأباطرة البيزنطيين : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
القسطنطينية : ١٠ ، ١١ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٣ .
قشتالة : ٣٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
قطالونيا : ٣٨٧ .
القطلانيون : ٣٢٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ .
قلج أرسلان : ١٨٧ .
قوانين الغابات : ٢٩٧ .
قوبيلاى (المغولى) : ٤٦٢ .
قوصوه الأولى : ٤٤٨ .
قوصوه الثانية : ٤٥٤ .
قورسقة : ٣٦٢ .
القوط : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٧١ ، ١٠٩ ، ١٢٥ .
القومونات : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٨٠ .
قونية : ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٤٣٩ .

(ك)

كابيه : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٣١٥ .
كاتدرائية نوتردام : ٢٩١ .
كاترين السينية (قديسة) : ٣٥٩ .
الكاثوليكية : ٢٦٩ .
كارل ماركس : ٤١٧ .
الكارلنجيون : ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ .
كارلومان : ٨٣ ، ٨٥ .
كازيمير (ملك بولندا) : ٣٢٠ .
كالستس (بابا) : ١٠٨
كاليماخوس : ١٧١ .
كاليه : ٢٨٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ .

كامبانيا : ٣٨٢ .
الكامل (السلطان) : ٢٥٦ .
كانوت : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .
كانوسا : ١٤٦ .
كريسوبوليس : ١٠ .
كريسى : ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣١٨ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٦٨ .
الكلت : ٣٠ ، ٩٧ .
كلمنت الرابع (بابا) : ٢٦٠ .
كمنت الخامس (بابا) : ٢٦٤ .
كلمنت السابع (بابا) : ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
كاوتيلدا : ٣٦ .
كلوديوس : ١٧ ، ٣٨ .
كلوفس : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ١٥٩ ، ٣٣٢ .
كليرمونت (مجمع) : ١٧٤ .
كنراد الثالث (إمبراطور ألمانيا) : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .
كنرادين : ٣٤٣ .
كوزيمو دى مدتشى : ٤٣١ .
كولمبس : ٤٦٢ .
كولونيا : ٢٠٤ ، ٣٤٦ .
كوليكوفو : ٤١٦ .
الكوميديا الإلهية : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
كونراد مونتفرات : ١٨٨ .
كونتيليان : ٢٧١ .
كيرلس : ٥٥ .
كييف : ١١٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .

(ل)

لامارش : ٢٨٨ .
لادسلاس الخامس (ملك المجر) : ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
اللان : ٢٤ ، ٢٩ .
لانجدوك : ٢٨٨ .
لانكستر (بيت) : ٣٢٩ .
اللانكستريون : ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
لتروورث : ٣٦٢ .
لشبونة : ٣٨٩ .
لكسمبرج : ٢٧٦ ، ٣٦٨ .
لندن : ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٣٨ ، ٣٦٦ .
لنيانو (وقعة) : ١٩٨ ، ٢٠١ .
لوثر (ملك أوستراسيا) : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .
لوثر الثالث (سبلنبرج) : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .
لوقا (القديس) : ٨٦ .
اللولاردية : ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
اللومبارديون : ٥١ ، ٥٢ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٣٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ .
لوبيك : ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
لويس (القديس) : ٢٩٠ ، ٢٩٢ .
لويس (بادة) : ٢٩٩ .
لويس آنجو (ملك المجر) : ٤٣٧ .
لويس الرابع (البافارى) : ٣٤٥ ، ٣٤٧ .
لويس السادس (ملك فرنسا) : ٢٨٥ .
لويس السابع (ملك فرنسا) : ٢١٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
لويس الثامن (ملك فرنسا) : ٢٨٣ ، ٢٩١ .
لويس التاسع (ملك فرنسا) : ٤٣٦ .
لويس العاشر : ٣١٥ .
لويس العظيم (ملك المجر) : ٤٥١ ، ٤٥٢ .
لويس (ملك بافاريا) : ٢٧٦ .
لويس الألمانى : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
ليبان (وقعة) : ٣٧٦ .

ليسينيوس : ٤ ، ١٠ .
ليموج : ٣٣٦ .
ليو الأيسورى : ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٢.
ليو الثالث (بابا) : ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٢٣٣ .
ليو التاسع (بابا) : ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٧٦
ليوتبراند : ٨١ ، ٨٣ .
ليون : ٢٨٥ ، ٢٨٨ .
ليونة : ٣٨٧ .

(م)

ماتزيني : ٢٧٦ .
مارتن الخامس (البابا) : ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ .
مارتن لوثر : ٨٥ .
مارجريت النرويجية : ٣٠٧ .
ماركو بولو : ١٨٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ .
مارى التيودرية : ٣١٨ .
ماكسمليان (ملك المجر) : ٣٥٤ ، ٣٥١ .
ماكستيوس : ٤ ، ٦ .
مانزكرت (وقعة) : ١٧٣ ، ١٧٤ .
مانويل باليولوج (الإمبراطور) : ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
مانويل كومنين (إمبراطور) : ١٨٦ ، ١٨٧
ماينز : ٧٨ .
المجريون : ١٥٢ ، ١٧٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٢
مجاس كونستانس : ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .
مجمع بازل : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ .
مجمع بيزا : ٣٧٧ ، ٣٧٨ .
محاكم التفتيش : ٢٩١ .
المحلفين : ٢٩٦ .
محمد الأول : ٤٥٠ .
محمد الثانى : ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
آل مدتشى : ٤٢٣ .
مدريد : ٣٩٦ .
مدن العصبة الهنسية : ٣٤٦ .
المرابطين : ٣٩٠ ، ٣٩١ .
مراد الأول (سلطان تركى) : ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ .
مراد الثانى (سلطان تركى) : ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ .
مراكش : ٣٩٠ .
مرسيا : ٤٠ .
مسلمة بن عبد الملك : ٦٧ .
المسلمين : ٢٦٨ ، ٢٩٤ .
مصر : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ١١٠ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٩٢ .
مكسيميانوس : ٣ ، ٤ .
مكة : ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ .
ملفيان (واقعة جسر) : ٧ .
ملياجر : ١٧١ .
المنيسنجرز : ٢٣٤ .
الموحدون : ٢٣٩ ، ٣٩١ .
مورجارتن : ٣٤٨ ، ٣٥٢ .
موسكو : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٢١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ .
الموصل : ١٨٧ .
المونوفيزيتية : ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ .
ميخائيل كريولاريوس (بطريق) : ١٧٦ .
الميروفجنيون : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ .
ميلان : ٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٥٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٧ .
ابن ميمون : ٣٩١ :
المنصور بن أبى عامر : ٣٨٧ .

(ن)

نابليون : ٢٩٠ .
نابولي : ٢٧٠ ، ٣٦٠ ، ٤٢٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .
نارسيس : ٤٨ ، ٤٩ .
نافار : ٣٩٤ .
نسطورس : ٥٥ .
النظاميين : ٣٤٧ .
نقفور فوكاس : ١٧٠ ، ١٧١ .
نقود : ٢ ، ٥ .
نمرود : ٢٧٣ .
النمسا : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٣٥٢ .
نور الدين : ١٨٥ ، ١٨٦ .
نورثمبريا : ٤٠ ، ٤١ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ٣٠٦ .
النورمان : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ .
نورماندیا : ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣١٨ ، ٣٣١ .
نورمبرج : ٣٤٦ .
نوفجورود : ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١ .
نفسكي (انظر اسكندر)
نويستريا : ٧٦ .
نيبلو نجليد : ٢١ .
نيداو : ٣٢ .
نيفلتز : ٣٢٤٨ ، ٣٥٢ .
نيقا : ٤٦ .
نيقوبولس : ٣٣١ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ .
نيقولا : ٣٥٧ .
نيقوميديا : ٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ .
نيقية : ٢ ، ٩ ، ١٨ ، ٥٥ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ٢٤٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(هـ)

الهابسبورج : ١٤٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٤١٩ .
هابيل الأسود (وزير أورخان) : ٤٤٦ .
هادريان (بابا) : ٨٥ .
هادريان الرابع (بابا) : ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٠٩ .
هارفلير : ٣٣١ ،
هارون الرشيد : ٨٧ .
هبو : ٢٤ .
هرقل : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ .
هروشيوس ٢٧١ ، ٢٧٥ .
الهسيون : ٣٧٥ ، ٣٧٦ .
هلد براند (جريجوري السابع ، بابا) : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٧٤ ، ١٩٩ .
همبورج : ٢٢٤ ، ٢٢٧ .
هنري الثاني (بلانتاجنت) : ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
هنري الثاني (ملك إنجلترا) : ٢١٤ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٩ .
هنري الثالث (ملك إنجلترا) : ٢٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
هنري الرابع (إمبراطور) : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٣٣٠ .
هنري الخامس (ملك إنجلترا) : ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ .
هنري الخامس (ملك ألمانيا) : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣١٣ .
هنري السادس (ملك ألمانيا) : ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣٣٤ .
هنري السابع (إمبراطور ألمانيا) : ٣٦٨ .
هنري الثامن (ملك إنجلترا) : ٣٠٠ ، ٣٦٤
هنري الأسد : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ،

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٧ .
هنرى تيودر : ٣٠٦ .
هنرى الشورنجى : ٢٥٧ ، ٢٥٨ .
هنرى (دوق لانكستر) : ٣٢٩ .
هنرى الصياد : ١٣٦ ، ١٣٧ .
هنرى فلاندرز : ٢٤٧ .
هنرى الملاح (البرتغالى) : ٤٦٣ .
هوراس : ٢٧١ .
هولندة : ٣٢٧ .
هوميروس : ١٢ ، ١٧١ .
هوهنز ولرن : ٢٠٢ .
هوهنشتاوفن : ١٤٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٦ .
الهون : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٥١ ، ٥٢ .
هونوريوس : ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٢ .
الهيجونوت : ٣٦ .
هيستنجز (وقعة) : ١٦١ .
هيوكابيه : ١٥٨ .
هيوبرت دى بر : ٢٩٨ .

(و)

واليا : ٢٩ ، ٣٠ .
الوباء الأسود : ٣٢٥ .
وستمنستر : ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ .
وكلف : ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ .
ولبرود : ٧٨ .
ولتر دى برين : ٤٤٢ .
ولتر مرتون : ٢١٦ .
وليم أوكام : ٣٥٧ .
وليم (دوق نورماندیا) : ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ .
وليم الفاتح : ٢٨٤ ، ٢٨٨ .
وليم مارشال : ٢٩٨ .
وليم الهولندى : ٢٥٨ ، ٢٦١ .
وليم ولاس : ٣٠٨ .
ونتزل : ٣٤٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
الوندال : ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٧ .
ونفرث — انظر بونيفاس .
ويدوكند : ٩٢ .

(ى)

ياجليلون : ٤١٥ .
ياروسلاف : ٤٠٦ .
يثرب : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .
الينى شرية — أنظر حاشية ١ : ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٧ .
يواقيم الفلورى : ٢٦٧ .
يوترو بيوس : ٢٣ .
يوجين الرابع (البابا) : ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
يوحنا (البابا الثانى والعشرون) : ٢٧٦ .
يورك : ٢٩ ، ٩٠ .
يوسف بن تاشفين : ٣٩٠
يوليوس قيصر : ٣٨ ، ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ .
اليهود : ٣٢٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٥ .

